

المركز القومي للترجمة



ميراث الترجمة

# المدنية



تأليف: كلايف بل  
ترجمة: محمود محمود

1346



المدنيّة

# المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

– العدد : ١٣٤٦

– المدنية

– كلايف بل

– محمود محمود

– ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

## *Civilization*

by: Clive Bell

---

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

c.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

# المسئبة

تأليف : كلايف بل

ترجمة : محمود محمود



بطاقة الفهرسة  
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشئون الفنية

بل، كلايف  
المدنيّة / تأليف: كلايف بل؛ ترجمة: محمود محمود؛  
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩  
٢١٢ ص؛ ٢٠ سم  
١ - الحضارة الأوروبية  
٢ - الحضارة الإنجليزية  
( أ ) محمود، محمود ( مترجم )  
( ب ) العنوان  
٨٤٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٩٠٨٠  
الترقيم الدولي 4 - 586 - 479 - 977 - 978 - I.S.B.N.  
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

# محتويات الكتاب

---

الصفحة	
	تصدير
١	الإهداء
٤	١ — المقدمة
٢٠	٣ — ما ليس بالمدنية
٣٢	٣ — نماذج الكمال
٥٤	٤ — مميزاتهم : الإحساس بالقيم
٩٦	٥ — مميزاتهم : تنوير العقل
١٣٠	— المدنية وناشروها
١٥٦	٧ — كيف فنصنع المدنية





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تصدير

مؤلف هذا الكتاب الذي تقدمه اليوم لقراء العربية هو الكاتب الانجليزي كلايف بل ، وهو أديب معاصر اشتهر بنقده للفنون وبتقديره للجمال . ولد في عام ١٨٨١ وتخرج في جامعة كبريدج ، وله نظريات معروفة في فنون التصوير والنحت والأدب ، وفي المسرحيات والموسيقى .

أخرج كتابه هذا عن المدينة عام ١٩٢٨ ، وأعيد طبعه عدة مرات . وقد أهداه للكاتبة العصرية « فرجينيا ولف » . واستهله بمقدمة ذكر فيها أن قادة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) في إنجلترا كانوا يزعمون أنهم يدافعون عن الحضارة . وبهذه الدعوى دفعوا الشعوب إلى القتال ، وفي سبيلها ماتت الملايين . هذه التضحية الكبرى في سبيل المدينة هي التي دفعت الكاتب لأن يتساءل عن معنى المدينة وأن يخرج فيها هذا البحث الذي لا يطمع أن يعرف فيه الحضارة تعريفا دقيقا ، وإنما يؤمل أن يقرب مدلوها إلى أفهام القارئ .

ويناقد الكاتب في الفصل الأول من الكتاب بعض تعريفات

المدنية الشائعة . هل هي احترام حق الملائكية ، أو ديموقراطية الحكم ، أو حب الوطن ، أو الوحدة العالمية ، أو التمسك بالدين ، أو مكاتبة المرأة في المجتمع ، أو الخضوع المطلق لقانون الطبيعة ، أو التحلي بالفضائل الخلقية والعادات الحسنة ، أو تقدم العلوم ، أو توفير أسباب الراحة للجميع ، إلى غير ذلك من التعريفات .

ويفندها الكاتب واحدا بعد الآخر لأنها صفات مشتركة بين البرابرة والمتحضرين .

ويحاول بعد ذلك أن يصل إلى تعريف للحضارة يستخلصه من أهم ما يميز الجماعات المتحضرة ، وهي في التاريخ ثلاث : أثينا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وإيطاليا في عصر النهضة ، وفرنسا في القرن الثامن عشر حتى الثورة الفرنسية . والصفات المشتركة التي تنفرد بها هذه الجماعات هي : « تحكيم العقل » و « الإحساس الصحيح بالقيم » و « تقدير الفن » .

وهي مقاييس للمدنية متداخلة وإن تنوعت ، وتنبثق منها مميزات حضارية كثيرة : منها إعلاء شأن الفرد فوق الجماعة ، وإتاحة الفرصة لكل امرئ لكي يعبر عن نفسه تعبيرا حرا كاملا بغير قيد ، وتقدير المعرفة لحد ذاتها لا لما تجلبه للانسان من منافع ، واعداد النشء للحياة العقلية دون العمل الآلي ، وإعلاء الدعوة العالمية فوق الدعوة الوطنية ، وسيادة روح السخرية والفكاهة . والشخص المتمدن — عنده — لا بد أن يكون متسامحا ، رحيا ، يجد متعة في الحياة العقلية ولا يحرم نفسه

الملذات الحسية ، ولا يؤمن بالخرافة ، ذواقة للفن ، حسن السلوك ، وغير ذلك من الصفات التي يعرضها الكاتب في ثنايا كتابه في إسهاب أو إيجاز حسبما يسوقه الأسلوب والتعبير .

وهو عندما يطبق هذه المعايير على إنجلترا المعاصرة يحكم على بلاده بالتخلف في ميدان الحضارة .

يرى بل أن المدنية مطلب الإنسانية ، ولا يمكن أن تتحقق إلا إذا وُجدت في الأمة طبقة ممتازة يهيا لها جو خاص تتوفر فيه أسباب العيش كي تحيا حياة نموذجية نسعى جميعا إلى احتدائها . هذه الطبقة ينبغي أن تتوفر طيلة العمر ، وألا تُكلف بعمل من الأعمال ، وأن تتوفر لها حرية الفكر ، وألا يسند إليها الحكم لأن السلطان يفسد النفوس . ويقول الكاتب هنا إن فرنسا كانت فيها في القرن الثامن عشر أرستقراطيتان : أرستقراطية الحكم ، وأرستقراطية الحضارة ، وكانت الثانية تظفر بتعصيد الأولى وتأبيدها . ولا يرى الكاتب مانعا من عودة هذا النظام .

ولكي نهض بالشعوب ينبغي لنا فوق هذا أن نكثر من استعمال الآلات حتى يتوفر الفراغ للناس عامة ، وأن نعمل على قلة السكان كي يرتفع مستوى العيش . ولما كانت كل جماعة لا تخلو من السفلة الأديباء فلا مندوحة عن وجود رجال لحفظ النظام ، يكون عملهم حماية المدنية لا فرضها على الناس فرضا ، لأن المدنية لا تقوم على استبداد الحاكم بمقدار ما تقوم على إرادة الشعب .

هذه بعض آراء بل في المدنية يفصلها في كتابه تفصيلا شائما ،  
ويضرب لها الأمثال من الحياة ومن التاريخ في أسلوب جزل يألف فيه  
اللفظ مع المعنى .

وللكاتب في غضون كتابه آراء تقدمية معنة في التحرر ، لا نوافقه  
عليها . وكانت أمانة الترجمة تقتضينا أن ننقلها للقارىء كما أورد صاحبها ،  
غير أننا رأينا في بعض المواضع أن نخفف من غلواتها ، دون أن تتحمل  
تبعاتها . وهي على كل حال تثير التفكير وتبعث على التأمل العميق .

محمود محمود

القاهرة — مايو ١٩٥٩

الاهل<sup>٧</sup> دراو

## إلى فرجينيا وولف

عزيزتي فرجينيا :

إذا كرمت هذه الرسالة بإهدائها إليك ، فإنني أفعل ذلك فقط وقبل كل شيء لأنني بسحر اسمك آمل أن أسحر قارئها . ولست أخجل من أن أدين بهذا أو بغير هذا من المنافع لما بيننا من صداقة . ولكن الواقع أن ما دفعني حقاً إلى ذلك باعث أكرم وأشد تشويقاً ، دفعني إليه أنك وحدك من بين رفاقي التي شهدت مولد هذا الابن المتخلف المنكود . وتابعت تقلبات الحظ معه . أنت وحدك التي تعرفين أنه أول ثمرة لكل ما تأملت فيه ، وكل ما عداه (سوى بعض مجموعات من المقالات) تفرح عنه بمعنى من المعاني . إن تاريخ التفكير في هذه الرسالة يرجع إلى عهد طفولتنا . تذكري يا فرجينيا ، أننا كنا في الأغلب اشتراكين في تلك الأيام ، وكنا نهتم بمصير البشرية ، ومن ذلك الاهتمام نبعت الفكرة أولاً ، ثم التخطيط العام ، ولما فكرت — بطبيعة الحال — أن يكون « عملي العظيم » ، وهو كتاب يعالج كل أمر هام من أمور عصرنا ، لا يغفل منها شيئاً ، كتاب أسميه « النهضة الجديدة » .

« وكان خيالاً صيبانياً ، على حد تعبير الشاعر هود في مكان ما كما أظن . وبرغم هذا التفكير الصيباني فقد أدركت حتى في ذلك الحين أن تفسير ما بلغناه يقتضى بيان ما صدرنا عنه . كان مقدرنا « النهضة الجديدة » أن يعرض صورة عن الفن المعاصر ، والفكر ، والتنظيم الاجتماعى ، وذلك بتعقب تاريخ هذه المظاهر للدينية من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر — أى حوالى عام ١٩٠٩ — ولكن ما إن حل عام ١٩١١ حتى كنت قد ازددت حكمة — أوعلى الأقل كبرت سننى قليلاً — فأدركت أن موضوعى لا تمكن معالجته . من أجل هذا ، وبوحى المعرضين الأول والثانى من معارض « ما بعد التأثيرين » اجتزأت من كتابى « النهضة الجديدة » فصلاً نشرته فى ربيع عام ١٩١٤ تحت هذا العنوان البسيط الشامل « الفن » .

ثم اشتعلت نيران الحرب ، فعدلت من آرائى كثيراً بما كان لها من نتائج سياسية واقتصادية — كما سوف يتبين لك بعد قليل — والواقع أن الفرق بين هذه الرسالة وبين الكتاب الذى اعتدت أن أتحدث عنه فى غرفة عملى بميدان قزروى إنما يعزى لهذا الحادث الفاصل . لأن المهزلة وإن تكن ما تزال قائمة ، إلا أن ضوءاً جديداً قد ألقى عليها — وأقصد بالمهزلة منظر ملايين الرجال والنساء وهم يحاولون عن طريق النظام السياسى والاجتماعى أن يحصلوا على ما يعتقدون — بدرجات متفاوتة — إنهم يريدونه ، ويسمون ما يعتقدون أنهم يريدونه خيراً . وما إن حل خريف عام ١٩١٨ حتى بدأت نظرتى إلى الأمور تتغير . وتحورت آرائى ومعتقداتى . إن ما كان يبدو لى قيماً كغايات ما برح كذلك ؛ إلا أن كثيراً

مما كنت أحسبه وسائل ممكنة لهذه الغايات بدلى خلوا من المعنى . نظرت إلى المشكلة القديمة نظرة جديدة . وكانت نظرتى جادة ، وربما كانت شائقة ، فى لحظة من اللحظات . ولذا فى ذلك الحريف أخرجت المخطوط القدر وشرعت أكتب من جديد .

وما برح القدر يتربنى ، أو يترب المخطوط على الأصح . فى مستهل عام ١٩١٩ ألفيت نفسى ناقدا فنيا محترفا وأديبا محترفا — ولم يكن ذلك ذنبى . ومرة أخرى تخليت عن « العمل العظيم » . ولكنى استخرجت منه فصلا آخر ، ونشرته تحت عنوان « الحرية البريطانية » ، وكانت رسالة صغيرة — ولكنها فى رأى تدعو إلى الاعجاب — ولم يلحظها أحد . بيد أنى وددت أن أوصل الحديث . ومن ثم حملت إلى هذا المكان الهادىء مخطوط عام ١٩١٨ واستخلصت منه مقالا من المدينة .

لن تسمى بعد اليوم عن « النهضة الجديدة » فان ما تبقى من المخطوط بعد الذى استخلص منه استعمل منذ بضعة أشهر وقودا للنار . هنا تجدان خلاصة جدلنا المعروف القديم ، بعد أن حورته الحرب ، ولم يحوره شىء آخر ، لأنه منذ الحرب ، والثورة الروسية والانتقال الإيطالى ، لم يحدث شىء ، ولم أقرأ شيئا ، مما يحولنى جديا عن رأى فى المدنية أو عن الوسائل التى تتحقق بها . هنا عصارة خير أيامى وأفكارى ، مجموعة ، وأرجو أن تكون موحدة ، حسنة التغليف والطباعة بالتأكيد ، يضعها عند قدميك يا عزيزتى فرجينيا صديقك المحب .

كلدلف بل

كاسس — ابريل ١٩٢٧

## المقدمة

لما كانت بريطانيا العظمى وحلفاؤها تقاتل فيما بين أغسطس من عام ١٩١٤ ونوفمبر من عام ١٩١٨ من أجل المدينة فلا يمكن — فيما أعتقد — أن يكون البحث فيما عسى أن تكون المدينة غير ذى موضوع . ولقد كان الناس يحسبون أن « الحرية » و « العدالة » من الكلمات التي تكلفنا كثيراً . بيد أن كثيراً من المفكرين من دافعي الضرائب دهشوا عند ما أدركوا أن « المدينة » يمكن أن تكلف في اليوم الواحد من الملايين ما لا أذكره عده ، وأن قصة ظهور هذه الكلمة في قمة أغراض الحرب البريطانية عجيبة جداً ، أجدني مدفوعاً إلى روايتها ، حتى إن كانت أقل صلة بالموضوع . والواقع أنى لا أستطيع أن أشرح كيف اتخذت هذه المقالة شكلها النهائي إلا برواية هذه القصة .

إن أحكم الزعماء الذين قادونا إلى الحرب وخيرهم كانوا ينادون « إنكم تقاتلون من أجل المدينة » وتلقى الجند هذا النداء فقالوا « التحقوا بالجيش من أجل المدينة » وقد أفرغتني هذه الحماسة المبالغتة لمبدأ لم يبد بشأنه السياسة وضباط التجنيد حتى ذلك الحين إلا قليلاً من الاهتمام ، أو لعلمهم لم يهتموا البتة به ، فناديت بدورى « وما المدينة؟ » وأؤكد لكم



إن ندائى لم يكن عالياً ، لأن النداء المرتفع يمثل هذه الأمور فى ذلك  
الحين كان يودى بصاحبه إلى السجون . أما الآن — بعد أن لم يعد  
السؤال جريمة أو خيانة وطنية — فإنى أعتزم البحث فيما عسى أن يكون  
ذلك الأمر الذى من أجله قاتلنا ومن أجله ندفع . وفى نيتى أن أخص  
هدفنا الأساسى من القتال . وسرى إن كان بحتى سوف ينتهى إلى  
اكتشاف ، وإن كان بين هذا الاكتشاف — إذا انتهت إليه —  
وبين معاهدة فرساي أى وجه من وجوه الشبه .

دخلت انجلترا الحرب — إن صح ما أذكر — لأن ألمانيا انتهكت  
إحدى المعاهدات ، والرأى السائد أن حرباً أوروبية أفضل من ترك  
الإساءة بغير قصاص — أو كما يقول المثل : لتأخذ العدالة مجراها حتى  
إن أدت إلى انهيار البيت . وقبول هذا المبدأ المزعج بغير تعديل ربما  
أثار فى العقول المفكرة إحساساً بالقلق ، وهو الإحساس الذى ربما  
دفع المحررين والساسة — الذين كان عليهم أن يبرروا الرواد الكنائس  
وقراء الصحف الأحرار لإعلاننا للحرب — إلى تعزيز الباعث الخلقى  
بالباعث الدينى . وأياً كان الدافع ، فذلك هو ما حدث . فأعلن أحدهم ،  
وربما كان مستر لويد جورج نفسه ، أو على الأرجح مستر هوراشيو  
بوتوملى ، هذا النداء الجرىء :

« الصليب ضد كروپ ، ورحبت الصحف من بداية الأمر بالحرب  
باعتبارها أرماجدون ( أى مسرحاً للنضال العظيم بين الأمم ) ، فبات  
من المعقول أن يكون قيصر ولهم الثانى من أعداء المسيح . وليس من  
شك فى أنه كان يشبه نيرون من بعض الوجوه — ربما كان تذوقه

المزعوم للموسيقى . وكانت هناك إلى جانب ذلك نبوءات ، وشارات ،  
ونذر في السماء ، وملائكة تظهر في مونز ، وكلها تميل إلى الدلالة على  
أن الله في جانبنا ، وأنا على الأرجح تقف في وجه الشيطان . غير أن  
بعضنا لم يقنعه هذا التشبيه ، وقد تذكروا ما اعتاد صاحب الجلالة  
الامبراطورية من وضع كتيب صغير عنوانه « أحاديث مع يسوع » في  
أيدي الفتيات الصغيرات . ثم — فوق هذا — هل كان من حسن المجاملة  
أن نصر على أن هذا الأمر يبلغ مبلغ العقيدة ، في حين أن الجمهورية  
الفرنسية لا تتقيد من الوجهة الرسمية بدين ، والميكادو يتبع العقيدة  
الشتوية ؟ وهل من الحكمة أن نزع يالسه المسيحيين في نزاع يتحد فيه  
الكفار الفرنسيون والجاحدون اليابانيون ، والمسلمون والمجوس  
الهنود ، والمتوحشون السنغاليون ، ضد امبراطور النمسا السابق ،  
وهو تلك الدعامة من دعائم الكنيسة الكاثوليكية ؟ ولذا ، ففي الوقت  
الذي بدأنا نتساءل فيه إن كان من الجائز أن توصف هذه الحرب وصفاً  
دقيقاً بأنها حرب صليبية ، اكتشف رجل حذر مثقف ، أظنه من كتاب  
الملحق الأدبي بجريدة التايمز ، بأن ما يهاجمه الحلفاء حقاً هو نيتشه .

وكان هذا الاكتشاف في أول الأمر نجاحاً عظيماً . وأصبح نيتشه  
هدفاً يصوب إليه كل منا حماسه وثورته البالغة . ويكفي لإداتته من  
جانب رجال الطبقة الحاكمة أنه كان ألمانياً وشاعراً . وقد قيل عنه أنه  
يحترق التوسط ومن ثم كان لدى الطبقتين الوسطى والدنيا ما يبرر كراهيته .  
ليسقط نيتشه ! وما أمتع الضرب في هذا الناقل الدنيء ، هذا الرجل الذي  
زعم أنه يسخر من الأحرار دون أن يعجب بالاتحاد بين الأحرار . فلقد

كان — كما يبدو — كأنه مصاب بالصرع وداء الخنازير ، ولم يكن من الرجال المهذبين . وتحدثنا عنه إلى العمال . قلنا لهم إنه نبي الامبريالية الجرمانية ، وشاعر بروسيا ، وتابع دنيء من أتباع أشرف الشبان الجرمان . وإذا كان منا من درس شيئاً من الأدب الألماني تخفت كراهيته وبلغت به الحياة الوطنية أن يجادل في عقائدنا ، وصمناه بالغدر وأسكتناه . تلك كانت خير أيام عام ١٩١٤ ، حينما كانت فرنسا وانجلترا تدافعان عن باريس ضد نيتشه . في حين كانت الآلات الروسية تدفعه من الخلف .

ومع ذلك فإن هذا التحصين ضد نيتشه لم يكن كذلك باعشاً على تمام الرضى . أولاً لأنه مما يجلب على المرأ الكتابة أن يقف موقف المدافع في كل مكان . وثانياً لأنه كان من العسير أن تحكم على نيتشه . ومن الشذوذ — فوق ذلك — أن تحارب ضد رجل لم يسمع بوجوده منذ ستة أشهر واحد في كل عشرة آلاف . وقد أردنا ألا نحارب ضد أمر من الأمور فحسب . بل أردنا شيئاً نحارب من أجله . من أجل ماذا ؟ كانت بلجيكا دولة صغيرة جداً ، بل بقعة قدرة ، والمسيحية تجافي الحكمة ، وتوازن القوى فكرة عتيقة ، ونحن أنفسنا سلباً بعيد الاحتمال . تطلعنا إلى هدف سام له رنين ، وهو برغم هذا مألوف معروف ، هدف يفخر به الناس أجمعون ويسرهم أن يدفعوا غيرهم إلى الموت في سبيله ، سواء منهم المسيحيون واللادينيون والأحرار ، والمحافظون والاشتراكيون ، من يجب الحرب دائماً ومن يؤمن ببغضها . ومن يفرض منهم بماري كوريلي ومن يؤثر عليها مسترولز ، ومن يحب منهم ظوليسكي ومن يؤثر عليه ليدي آستور ، وبعبارة موجزة ، سواء منهم

من يستمد الرأى من « الدليل تيوز » ومن يستمد من « الدليل أكسبريس » . ثم حدث أن طرأ هذا الكشف النهائى الجميل — وهو أننا نقاتل من أجل المدينة — لذهن أكثر شمولاً ، لذهن رجل لديه حس تاريخى وشعور بأهميته ، لذهن رئيس الوزراء أو البروفسور جلبرت مورى فيما أعتقد . ثم طرأ لذهنى هذا السؤال العاجل « وماهى هذه المدينة التى نقاتل من أجلها ؟ » .

ولست آمل أن أقدم تعريفاً دقيقاً . فلقد كبرت الآن عن سن ذلك الوثوق الجليل الذى مكنتنى من أن أقول للعالم على وجه الدقة ماهو الفن فى ستين ألف كلمة . ومع ذلك ، فكما يستطيع القائد البريطانى أن يشير اعتباطاً بطرف عصاء الغليظ إلى خريطة فرنسا ، ويقول مخادعاً « إن هدفكم يجب أن يكون فى مكان هنا على وجه التقريب » ، فأتى كذلك ربما أستطيع أن ألوث بإشارتى مصوراً للآراء العامة وأقول « أن المدينة تقع هنا على التقريب » .

وانسبداً برأى واضح ملمول . يبدو أنه من المعقول أن نفترض أن المدينة خير . فإنها إن لم تكن كذلك لما كاد أن يتوقع أحد منا أن ندفع كل هذا من أجلها . ومادامت المدينة خيراً ، فلا بد أن تكون كذلك إما كفاية أو كوسيلة . إننا عندما نتحدث عن « مجتمع عظيم المدينة » ، قد نقصد « مثل المدينة الأعلى » ، أو « الكمال المطلق » ، أو « السماء » . وفيما عدا ذلك فإن المدينة ليست غاية من الغايات . ولما كنا عادة نتحدث عن عيوب المدينة ورذائلها ، فإن ذلك يشير إلى أنها عند أكثرنا لاتعدو أن تكون وسيلة من الوسائل . إن السماء تتخطى حدود التمدن ، وقد

يبلغ المجتمع قمة التمدن ، ومع ذلك يقصر عن بلوغ المثل الأعلى . ويترتب على ذلك أن الأمر الذى أنا مقدم على تعريفه ، أو الذى أحاول تعريفه ليس الخير المطلق ، ولكنه وسيلة معينة من وسائل الخير . وسوف أهتم فيما بعد بتقدير قيمته . أما فى الوقت الحاضر فيكفى أن تتفق على أنه مادامت المدنية خيراً ومادامت حالات العقل الخيرة تعد وحدها عادة غايات خيرة ، فالمفروض إذن أن تكون المدنية وسيلة كحالات العقل الخيرة ، وهذا بالطبع سبب آخر يدعونا إلى الابتهاج لأن أولئك الذين كانوا يقاتلون من أجلها هم أولئك الذين فازوا فى المعركة .

وإذا قلنا بأن المدنية وسيلة للخير ، فلنذكر أن ذلك ليس معناه أنها الوسيلة الوحيدة . وأرانى مضطراً إلى ذكر ذلك لأن رأى أخيراً قد ساد بأنه ما لم تكن الوسيلة للخير هى الوسيلة الوحيدة ، فإنها لن تكون البتة وسيلة . ومن أجل هذا لم يظفر العلم برضى جماعة من المفكرين . ولعلى أستطيع أن أقول جماعة من الكتاب ، لغير ما سبب سوى أنه من رأيهم ، بل ومن رأى أكثر الناس ، أن الدنيا التى لا يكون فيها إلا العلم دنيا تنقصها العاطفة وينقصها الجمال . كما أن رأى الذى يقول بأن العاطفة والجمال والعلم قد تكون جميعها خيراً رأى — لسبب لست أدريه — يمتته العقل الخيالى الجديد المفزع ، سواء فى داخل البلاد أو خارجها . فالمدنية إذن ليست بالتأكيد هى الوسيلة الوحيدة للخير . ومادامت الحياة وسيلة ضرورية لحالات العقل بكافة ظروفها ، فهى وسيلة من وسائل الخير ، وحيث أن الشمس والمطر من وسائل الحياة ، فهما كذلك من وسائل الخير ، وليس من شك فى أن الحياة والشمس والمطر هى كذلك

من وسائل المدنية ، ما دامت المدنية بغيرها لا يمكن أن تظهر في حين الوجود . ولكنها ليست هي المدنية ، كما أنها ليست من وسائل الخير بمقدار ما هي من وسائل المدنية فحسب . بل إن الحياة والشمس والمطر والخبز والتبنيذ والجمال والعلم والمدنية هي — في الواقع — جميعا من وسائل الخير . وما ينبغي لنا أن نذكره هو هذا : إن الجمال وسيلة مباشرة للخير ، والمدنية وسيلة وسط ، في حين أن الشمس والمطر والحياة نفسها وسائل بعيدة وإن تكن ضرورية .

وما كنت لأنفق المداد والورق في هذا الغرض لولا أني أدركت أنه يؤدي إلى غيره ، مطابق له ، ومع ذلك كثيرا ما يهمله حتى أولئك الذين يقبلونه في صيغته الأولى الجلية الواضحة ، وبخاصة حينما يستحثوننا على أن نقوم بهذا العمل أو ذاك لصالح المدنية : ذلك أن المدنية لا يمكن أن تكون من وسائل الخير إلا إن كانت وسيلته الوحيدة . وبطبيعة الحال . لو كانت المدنية هي الوسيلة الوحيدة للخير ، لاستتبع ذلك أن يكون كل أمر يؤدي إلى الخير جانبا من جوانب المدنية . وحيث أن المدنية ليست كذلك ، فخرى بنا ألا نخطيء في الاختيار والانتقاء . ليس من شك في أن الجن ( وهو نوع من أنواع الخمر ) والكتاب المقدس من وسائل الخير إذا تناولتهما أيدي ملائمة في الوقت الملائم . ومع ذلك فنحن نتساءل إلى أي مدى يبرر التجار الأوربيون والمبشرون صحة دعواهم من أن ما يحملونه إلى البلدان المتوحشة هو من المدنية . وكثيراً ما كانت العقائد التي لا تتبنى على العقل ولا تتسامح ، والوطنية الغمياء والولاء وسائل لحالات عقلية سامية ، وللخير تبعا لذلك ، بيد أنها ليست بالمدنية ، بل

لقد دلت على أنها في أكثر الأحيان معادية لها . المدنية وسيلة معينة للخير . ويجب أن نحذر من أن نزعم بأن كل ما نحب أو نقدر جانب منها . يجب ألا نزعم أنها تشمل كل الفئات المحببة إلى نفوسنا . فقد تؤثر إيثاراً كبيراً أكل شريحة من لحم الضأن المحمر على دراسة الميتافيزيقا . بيد أنه من حماقة الرأي أن نسلم — على هذا الأساس وحده — بأن أكل اللحم من بين هذين العملين العجيبين أقرب إلى المدنية ، المدنية — وهي ليست الوسيلة الوحيدة للخير ، وليست مجرد وسيلة للخير — وسيلة معينة ، نستطيع أن نعتبرها عظيمة الأهمية ، استناداً إلى رأى ساسة الحلفاء ، وإلى أسباب هي عندي أكثر متانة وأشد صلابة . ولا زلنا — برغم هذا — بعيدين عن اكتشاف ماهيتها .

إن هذه الصفة « متمدن » كما يعلم أولئك الذين قضوا خير سنى حياتهم في دراسة هذه الأمور من الناحية اللغوية ، مشتقة من حالة للمجتمع اسمها باللاتينية *civitas* اشتقاقاً صحيحاً شائعاً . وحتى منتصف القرن الثامن عشر كان الفرنسيون يشقون وصفهم « المتمدن » من الاسم اليوناني « للمدنية » وعندما تتحدث عن عصر متمدن نقصد أن المجتمع النهي يعيش في هذا العصر مجتمع متمدن . « المدنية » — على الأعم والأصح — تنسب إلى جماعة بشرية مؤتلفة منظمة وهي — في استعمال أقل في عمومها وفي صحته — تنسب إلى أشخاص ، أو مواطنين . غير أن العقل الذي لم يتدرب على التصريف والاشتقاق — حتى هذا العقل يستطيع أن يدرك أن المدنية في الواقع لا بد أن تكون من إنتاج الأفراد المتمدنين ، وأن

أى محاولة لفهم طبيعة هذه الظاهرة أو لتعليل وجودها تؤدي حتماً ومباشرة إلى البشر الذين يبدعونها ويحافظون عليها ، والإدراك العام المجرد— فوق هذا — يداننا على أن الفرصة أمامنا للحكم على الأفراد أجدى وأقرب إلى الاحتمال بكثير من أية فرصة نأمل أن تتاح لنا للحكم على هيئة غامضة متعددة الجوانب كالدولة أو المجتمع . الإنسان قريب التناول ، وتستطيع أن تقول شيئاً يقرب من التحديد عن رغبات أو ميول جون سمث أو دى سنج ، ولكن أى شيء دقيق تستطيع أن تقول عن بريطانيا العظمى أو الصين ؟ إذا تحدثنا عن « شرف الصين » أو « مصالح إنجلترا » فن المستحيل أن نعنى شيئاً محددًا ، ومن غير المحتمل أن نعنى البتة شيئاً . فليست لجميع سكان بريطانيا العظمى نفس المصلحة ، وليست لجميع أهل الصين نفس المشاعر . ولكننا نستطيع أن نعنى في وثوق العاطفة التي تتحكم في رجل صيني بعينه ، وأن نتابع في يقين نوعاً من السلوك يكون في مصلحة سمث . ولو أن إنجلترا امتنعت عن إعلان الحرب على ألمانيا لما استطاعت أن ترفع رأسها مرة أخرى كما يعلم كل منا . ولكننى أستطيع أن أقول أن سمث يستطيع أن يشمخ بأنفه .

ولما كان الأمر كذلك ، فربما يتوقع منى القارىء أن أبدأ بجثى في طبيعة المدنية بأن أحاول الكشف عن العناصر التي يتكون منها الرجل المتمدن ، ذلك هو الترتيب المنطقي ، غير أن هناك ما يعوق اتباع هذا الطريق . ذلك أن الرأى العام قد يتفق كل الاتفاق على أن جماعات بعينها كانت متمدنة ، بل وضالعة في المدنية . في حين أن الرأى لا يمكن أن يجمع بهذه الصورة على الأشخاص . ولما كان مرماى البعيد أن



أكشف عن ماهية المدنية ، فإن أولى محاولاتى ستتجه نحو اكتشاف الخصائص التي تتميز بها الوحدات المتمدنة باعتراف الجميع . وإذا كنت سأبحث في « الجماعة المتمدنة » قبل أن أبحث في « الفرد المتمدن » ، ففرد ذلك إلى أن لدينا عن الجماعة المتمدنة « نماذج » يقرها العالم بأسره .

ولكنى لن أبدأ بهذا أو بذلك . بل سوف أبدأ بوحدات يعدها العالم طراً غير متمدنة . إذ لو صدق حكى على خصائص هذه الوحدات لوجب أن أصل إلى نتائج معبرة سلبية لها أهمية أساسية . فسوف أعرف ما ليس بالمدنية ، ولا يمكن أن تكون إحدى خصائص الجماعة المتوحشة مميّزة من مميزات الجماعات المتمدنة . لا يمكن أن تكون إحدى تلك الخصائص المميزة التي أبحث عنها والتي تفرق بين المدنية والوحشية . ولا يمكن أن تكون من روح التمدن . ولن أحاول أن أكتشف ما هي المدنية بالبحث عن روحها في النماذج التي يقرها العالم طراً حتى أكتشف ما ليس بالمدنية . وعندما ألتبس — ان استطعت ذلك — صفات مشتركة في هذه النماذج لا وجود لها في الجماعات المتوحشة أكون قد انتهيت من الجانب الأول من عملى . عندئذ أكون قد اكتشفت الصفات المميزة للمدنية .

سوف أصوغ نظرية محكمة . وإن كنت أريد أن يشاركنى قرائى فيها فلا بد أن أقيمها على فروض تبدو لهم عادلة . أعنى أنه لا بد لى من أن أستخلص الخصائص المميزة للمدنية من النظر فى وحدات يقرها الجميع بالتمدن أو بخدم التمدن . والوحدات الوحيدة — كما ذكرت من قبل —

التي يجمع الرأي فيها حقا على تمدنها أو وحشيتها هي المجتمعات : ومن ثم تحتم على أن أبحث عن الصفات المميزة في المجتمعات لا في الأفراد . فإن وجدت هذه الصفات استطعت أن أوصل البحث في مصدرها الذي لا يمكن أن يكون إلا في عقول الرجال والنساء . وإن جماعة من هؤلاء — كما سيثبتين انما — طهى المنبع الحق . وإذا أرسلنا خيالنا إلى حد البحث فيما إذا كنا بتعزيز الأسباب نأمل أن نضعاف النتائج — أى هل نستطيع أن نزيد من المدنية — فلا شك في أننا سنجد أنفسنا مضطرين إلى البحث عن الوسائل التي يمكننا أن نخرج بها أعدادا وافرة من أناس ذوى مدنية رفيعة . أما في الوقت الحاضر فلا بد لي من الاتجاه إلى المجتمعات أتلس فيها الخصائص التي أبحث عنها ، ففي المجتمعات وحدها توجد النماذج التي يجمع الرأي على توحشها والنماذج التي يجمع على تمدنها . هناك من هذه المجتمعات اثنان أو ثلاثة على الأقل لا يمرض في سمو مدنيته أى فرد أصاب من التعليم قدرا معقولا . وسوف أتخذ هذه المجتمعات نماذج الكمال . وهناك ثلاثة أو أربعة مجتمعات أخرى كثيرا ما عدت من بين المجتمعات ذات المدنية الرفيعة ، غير أن حقا في هذا الوصف محل تنازع خباير يستند إلى دواع قوية . ولذا فلن أتجه إليها .

وكما أن هناك مجتمعات متمدنة باعتراف الجميع ، فهناك أخرى يتفق العالم كله على وصفها بالوحشية ، وقد تعجب بهذه المجتمعات الوحشية . وقد تعشقها — أو تحسب أنك تعشقها — أكثر مما تعشق المجتمعات المتمدنة . غير أن الإجماع ينعقد على نعمتها بالوحشية حتى إن علماء الاثنروبولوجيا يقصدونها ليتلبسوا فيها حال الإنسان البدائي خلال تلك

القرون البعيدة أو العصور السحيقة حينما كان ينتقل من البهيمية أو على الأقل من العصر الباليوليتك إلى العصر النيوليتك . وقد قام هؤلاء الاثروبولوجيون العجيبون بدراسات دقيقة في عادات ومعتقدات أكثر الناس وحشية من بين هذه الأقوام المتوحشة . ومن دراساتهم أمل على الأقل أن أعرف ما ليس بالمدينة ، ولذا ذكر أنه ما من صفة — مهما تكن شريفة — يمكن أن تكون من الخصائص المميزة للمدينة ، إذا كانت مما تتصف به الجماعات المتوحشة . إن المجتمعات المتمدنة قد تشاطر الجماعات المتوحشة مثل هذه الخصائص بطبيعة الحال ، وقد تتصف بها إما كصفات مشتركة بين أفراد البشر جميعاً ، أو كأثر من آثار البربرية . وكذلك قد تكون هذه الصفات ذات قيمة وجاذبية ، وقد يتصف بها كثير من الشعوب ذات المدينة الرفيعة أو أكثرها ولا تقتصر البتة على المتوحشين . ولكن حيث أنها ليست خاصة بالمجتمعات المتمدنة فلن تعيننا على التعريف . ومع أن بعض الخصائص التي تشاطرها الجماعات المتمدنة مع المتوحشين تشيع بين جميع المجتمعات المتمدنة ، إلا أنها ليست من مميزات التي تختص بها . وإنما نبحت عن الصفات المميزة — أو الخصائص . نريد خصائص شائعة بين جميع المجتمعات ذات المدينة الرفيعة تخلو منها الجماعات المتوحشة . ولا نأمل أن نعرف ماهي المدينة إلا بعد أن نستخلص هذه الخصائص

فواجبي الأول إذن هو أن أزيل الموانع من الطريق . يجب أن أستبعد تلك الخصائص التي كان من الممكن اعتبارها من علامات المدينة لولا أن أسفل القبائل المتوحشة وأشدّها تأخرأ تشاطر المجتمعات المتمدنة

فيها . ولهذا الغرض ينبغي أن أكتب فصلا علياً ، يبحث في أسفل صفحاته بعض القراء الذين لهم حق التشكك في علمي عن حشد غزير من الحواشي . بيد أنهم سيبوءون بخيبة الأمل . ففي مقالة خفيفة سطحية كهذه لا تجد الحواشي المستفيضة مكاناً لها . ولا بد أن يوجد منها القليل ، ولكنه القليل لحسب . وقد رجعت في أكثر ما ذكرت في الفصل الأول إلى ذلك المؤلف الثبت الذي وضعه وستر مارك تحت عنوان « أصل الآراء الخلقية وتطورها » . هنا يجد القارئ المتشكك الدليل قائماً على كل حقيقة مذكورة . بل أكثر من هذا ، هنا يجد القارئ سرداً رائعاً لعقائد الشعوب المتوحشة وأخلاقها ، سرداً يستند إلى العلم الرصين . مؤيداً بالمراجع العديدة ، وموضحاً بالطرائف التي تأخذ بالألباب . أما عن الحواشي فإن اعتراضى عليها في الأدب الخفيف هو أنها تصرف العين من جهة ، وهي في أغلب الأحيان — من جهة أخرى — حيلة للتخلص من العمل البغيض الذي يتطلبه تشكيل كتل جامدة من المادة الخام في صورة مقبولة . وإذا تسامحنا في قبول عادة تكرار طبع المقالات وجب أن نتسامح كذلك في هذه الحواشي المطولة الزائدة . فهي تنمى لا مفر منها للصحافة التي تزعم لنفسها الخلود . أما في مقال خفيف ينم عن الصياغة الجملة من أول لفظ إلى آخر لفظ فيه فهي عادة دليل على الضعف وأمر يشق احتماله . ولست أكره التظاهر بالمعرفة . بل إنى على النقيض من ذلك أشعر — كما يشعر غيرى — بالروعة التي يسبغها على الصحيفة الاقتباس الموفق أو الاسم المهيّب . وكذلك لن يفوت على القارئ المستبشر الذي يتحول إلى عقيدتى راحة الضمير وثبات

العقيدة عندما يصادفه خلال النظر بعض هذه الاقتباسات والأسماء  
الجليلة . ولكنى عندما اضطر إلى الإدلاء برأى من تلك الآراء التي  
تنزع من القارئ المعادى صيحة يعبرها عن تكذيبها أذكر —  
عندئذ فقط سأضطر إلى الإشارة في هامش الكتاب كي أرد عن  
نفسى الاتهام .

من أجل هذا حاولت أن أدخل السرور على مثل هذا القارئ  
بوصف مقالتي هذه بالخفيفة السطحية . وأؤكد أنها ستكون خفيفة  
بكل ما في الكلمة من معنى . وربما كانت كذلك سطحية . ولكنى  
عندما استخدمت هذه الكلمة كنت أفكر قبل كل شيء في أحدث  
دلالاتها . قصدت أننى سوف أحاول أن أكون مفهوما . وإنى  
لأعطف على أولئك الكتاب الذين أرغهم الفقر أو مقتضيات  
الخدمة الحربية على الانصراف عن التعليم ، وإنى لأدرك تمام  
الإدراك لماذا يعرضون عن أولئك الذين كان هدفهم التعبير عن الآراء  
في بساطة ووضوح وإيجاز بقدر الإمكان . إن أمثال هذه الأساليب  
اليائسة تختصر أطول الكتب التي ألفها كثير من خيار أنبيائنا إلى  
صفحات قلائل . فإذا لم يكن لديك الزبد الذى تكسو به الخبر فإنك  
لا تستطيع أن تكسو خبزك بطبقة رقيقة منه . وفي مثل هذا القحط ،  
لا يكون بوسعك إلا أن تغوص في الرغيف متعجبا . ويسمى هذا  
في الأدب تعمقا . وبالرغم من أن هناك من القراء من يغوص  
إلى أعماق الأعماق فلا يلاقى هناك أصغر ذرة من الزبد الصناعى  
فيتشجع على وصف هذه الأعماق بالفراغ — برغم هؤلاء نجد أن

الأسلوب العميق يلقي التقدير عادة في أجزاء من أوروبا وأمريكا يتصف أهلها بالنشاط وخفة الحركة . وعلى أية حال فإن صنات الفيران العمياء التي تثقب الأرض وعمال المناجم الذين يفوضون فيها هي عندي من قبيل التظاهر . ثم إن مقالا من هذا النوع — فوق هذا — يختلف عن الشعر الحديث والفلسفة والخيال الفلسفي الحديث في أنه لا يأمل أن يلقي إعجاباً من ذلك الجمهور الضخم الذي يغفل — خلال بحثه عن الحياة — كل الفوارق الدقيقة بين الكلام المعقول والكلام الفارغ . إنني لا أجرؤ أن أكون عميقاً . وأصارحكم القول أن كاتب هذا المقال كان يود أن يدبجه بكل ما أوتى منتسكيو وهيوم وفلثير من وضوح قليل الغور لو أنه عرف سر سطحتهم .

وسوف أحاول أن أكون مفهوماً لأنني أود أن يدرك القارئ ما أقول . ولنفس هذا السبب سأكرر ما أقول ، وكان من الممكن أن أتعلم من لوحات الإعلانات — من زمان بعيد — إن تكرار القول هو وسيلة الإقناع . ولكنني في حدائتي كنت غراً لا أفهم الناس ، فكنت أعتقد أني لكي أقتل إليهم ما أريد ليس عليّ إلا أن أذكره مرة واحدة في وضوح . وكان في دار النشر لأصحابها السادة شاتو ووثدس رجل في مثل سذاجتي ، أطلع علي مسودات كتابي الأول عن « الفن » فأشار في رقة بالغة إلى أنني في نقطة من تقاطع — تعريف العمل الفني — ربما بالفت في التكرار . نعم لقد فعلت : ود القارئ ، كفرد فذ كان مصيباً كل الصواب ، ولكنه كان مخطئاً باعتباره ناشراً ، بل إنني لم أكرر القول بالتقدير الكافي للجمهور . وما برح النقاد والأكفاء في إنجلترا وأمريكا

حتى اليوم يذكرون أنى قصدت « بالعمل الفنى » ما قلت على وجه الدقة  
مراراً أنى لا أعنيه . ومن ثم فإنى أرجو أى قارىء يلاحظ أنى  
فى هذا المقال أكرر القول مراراً أن يتفضل بنسبة ما عند المؤلف  
من إملال إلى خصيصة من خصائص القراء عامة — خصيصة لست بحاجة  
إلى أن أقول أن السيدة أو السيد الذى تسوقه المصادفة إلى مطالعة هذه  
الكلمات لا يتصف بها .

## ما ليس بالمدنية

ليس احترام حقوق الملكية من خصائص المجتمعات المتمدنة وحدها .  
حقاً إن الحيوان ليس لديه هذا الاحترام ، كما أنه ليس لديه آلات من  
حجر الصوان . وعند الإنسان المتوحش هذا وذاك ، وهذا ما يميزه من  
الحيوان ، ولكن لا يجعله إنساناً متمدناً . إن آلات الصوان واحترام  
حقوق الملكية قد تكون من وسائل المدنية ، غير أن الإحساس بهذه  
الحقوق لا يمكن أن يعد خصيصة من خصائص المدنية ، شأنه في ذلك  
شأن آلات الصوان . بل إن كثيراً من الأغنياء والمفكرين اعتنقوا رأياً  
يناقض هذا الرأي . غير أن وستر مارك يقول لنا إن قبائل متوحشة  
عديدة عندها من دقة التفرقة بين « مالى » و « مالك » ما عند قاض  
انجليزى ، وتكاد السرقة أن تكون مجهولة بين هنود أمريكا الشمالية حتى  
جاء الجنس الأبيض الذين من الإنصاف أن نذكر أنهم بذلوا قصارى  
جهدهم فى موازنة أى ضرب من ضروب الانحلال الخلقى ربما أدخلوه  
معهم بإرسال المبشرين يذكرون الأهالى بأن العقوبة الأزلية تنتظر أولئك  
الذين يخالفون الوصية الثامنة . وعلى أية حال يجب ألا ننظر أن الاعتقاد  
فى الله والحياة الآخرة مقصورة على المتمدنين — وليس هذا الاعتقاد



هو خاصيتهم الأولى . بل على تقيض ذلك ، نجد أن لدى معظم الأجناس المتوحشة عقيدة حية في الآلة ، وكثير منها يأكله . وأحط سكان الغابات بإستراليا — وربما كانوا أشد المتوحشين توحشا — يعتقدون في وجود كائن أعلى يضع القوانين الخلقية ويحكم بينهم ، بل إنهم ليسونه « الأب » ، ويعبدونه في صورة سيد عجوز . إن المتوحشين قلبا ينكرون وجود الله . وهم مثلنا يتطلعون إلى مستقبل أعظم .

وفي المجتمعات العامة سمعت السيدات يقلن إن مقياس مدنية الشعوب هو المسكنة التي تخص المرأة بها . ترتفع المدينة أو تنخفض بارتفاع مكاتها أو انخفاضها ، غير أن هذا يخالف الواقع . فإن للمرأة عند سكان جزر اندمان ، وعند البوشمان والفيديا — وليس بين الناس من هم أقرب منهم إلى الحيوانية ، كما يقول وسترمارك — اعتبارا أكبر مما كان لها عند الأثينيين لعهد أرسطو . وبينما نجد أن الذكور في كثير من القبائل المتوحشة — برغم حيوانيتهم يستكينون لزوجاتهم ويضعونهن في مستوى يدنو من مستواهم ، كان الصينيون في عصر تانج وعصر سونج — وهما العصران اللذان اشتهرا بالمدينة — لا يرفعون زوجاتهم فوق قدر الماشية إلا قليلا . ومن الواضح حقا أن كثيرا من أكلة لحوم البشر يمتلكون عددا لا يحصى من الفضائل العائلية ، إذ يتصفون بالرفق والأمانة والجد ، والكرم مع أفراد قبيلتهم ، والجود مع الإغراب . ويترتب على ذلك فيما يبدو أن ما عند عامة البريطانيين من فضائل ليس خاصا بالجماعات المتمدنة . وكثيرا ما أذهل المكتشفين صدق المتوحشين . ويقال إن الفيديا من أهل سيلان تماذج تحتذى في الصدق ، والاندلمان الجزريون والبوشمان « يعتبرون

الكذب إنما كبيراً ، في حين أن سمعة الإغريق وأهل كريت سيئة في هذا الصدد ، وفي حين أن سكان قارة أوروبا يصفون بريطانيا العظمى بصفة خاصة ، إذ يطلقون عليها « الغادرة » . وكثير من المتوحشين لا يتصفون بالصدق فحسب ، بل يتصفون كذلك بالنظافة . فالميجي ، وهم شعب ساحل الذهب البائس ، الذين يخضعون لأولئك المتوحشين المعروفين باسم منبتي « يغتسلون مرتين أو ثلاث مرات في اليوم » ، ويغتسلون اغتسالاً كاملاً . فكم أوروبي من نهاية الإمبراطورية الرومانية حتى اعتلت الملكة فكتوريا العرش اغتسل اغتسالاً كاملاً مرة في كل عام ؟

كما أن عادات كثير من الشعوب المتأخرة فيما يتعلق بذلك الموضوع الهام — موضوع الأخلاق الجنسية — ليثير فينا الحقد إزاءهم . إن شأنهم في ذلك شأن بزول « ينظرون إلى الزنا بعين الفزع » ، فالقبائل التي تقطن غابات البرازيل — على سبيل المثال — تترجم في التزام الزواج من واحدة ، وكذلك يفعل الكثير من قبائل كلفورنيا . ومن المؤلم بل ومن العجيب أن البروفسور وسترمارك — برغم هذا يصف هذه القبائل بقوله « إنها من جنس منحط وضع .. وهي من أخط القبائل على وجه الأرض » ، والكاردوك لا يسمحون بتعدد الزوجات حتى لزعمائهم ، وقد يمتلك الرجل ما يستطيع شراؤه من إماء ، إلا أنه يجلب على نفسه العار لو أنه عاشراً أكثر من واحدة . فإن ذلك يشبه عندهم أن يضاجع الرجل المتزوج طاهيته . واست على ثقة تامة بما يعنى الأستاذ وسترمارك بقوله بأن الزواج من واحدة بين قبائل الفيدا والاندمان الجزيريين قاعدة يصر الرجال على التزامها بصرامة إصرار الرجال في أية بقعة من بقاع أوروبا ،

ولكن الأهلالي في كارنيكوبار — على الأقل — لا يجلبون اللوم على أنفسهم في هذا. فالرجل من هؤلاء المتوحشين المحترمين له زوجة واحدة ، ويعتبر انعدام العفة إثما ممتا ، ويعاقب عندهم — وعند كثير من القبائل المتوحشة الأخرى — من يخالف هذه القاعدة بالنفي أو بالموت . يقول وسترمارك ، بما يستحق الذكر إنه ينتمى إلى هذه المجموعة من الشعوب ( المجموعة ذات الإحساس الرقيق في هذه الأمور ) متوحشون من طراز منحط كالفيديا من أهل سيلان ، والايجوروت من أهل لوزون ، وبعض القبائل الاسترالية . وكان يحق له أن يضيف إلى ذلك أنه بما يستحق الذكر أنه بينما يعتبر أسفل المتوحشين انعدام العفة جريمة شنيعة ، فإنها كانت تعتبر في أزهي عصور التاريخ زلة صغيرة على أسوأ تقدير . وخلافا لما كان عليه أهالي كارنيكوبار كان أعمق الناس فكرا وأشدهم حساسية في ألمع العصور التاريخية بغضون الطرف عن خطيئة الرنا الشنيعة . بل لقد نادى أفلاطون بشيوعية النساء . وكان للعفة وزن خفيف في حلقة القبياديس ، وبلاد هادريان ، وحدائق مديشي ، وفي الصالونات التي صاغ فيها فولتير وهلفيشيس وديدرو نمطا عقليا جديدا بشروا فيه بفلسفة اللذة . ويبدو أن سقراط وشيكسبير ورفائيل وتيتيان وقيصر ونابليون ودوق ولنجتون وجورج اليت ذاتها قد عاشوا حياة تجعلهم غير صالحين لأحسن مجتمعات إيجوردت في لوزن . ولم تكن الحال خيرا من هذا في العصور العظيمة من تاريخ الصين . ولذا ، فحيث أن أهالي كارنيكوبار يعتبرون انعدام العفة إثما ممتا ، فنحن مرغمون على الحكم بأن العفة ليست خصيصة من الخصائص المميزة للبدنية . ودعنا لا ندهن أنفسنا فنحسب أن حب الوطن فضيلة من فضائل

المدنية المميزة لها . فقد عرف بها هنود أمريكا الشمالية ، حتى لقد قال  
 كارفر عن النودواسيس : « إن أول عاطفة وأقواها تملكها لقلوبهم هي  
 الشعور بشرف قبيلتهم ، وسعادة أمتهم ، . وكتب ماك جريجور عن  
 اليوروباس في غربي أفريقيا يقول « ليس بين البشر جنس أشد منهم  
 إخلاصاً لبلده ، ومع ذلك فهذه القبيلة — إن صح ظني — قد آتت  
 بأكل المبشرين ، وكذلك « كثيراً ما يموت السلومون الجزريون من  
 الحنين إلى الوطن وهم في طريقهم إلى مزارع فيجي أو كوينزلاند ، وطبقاً  
 لما يقول مستر وليامز أخذ أحد أهل فيجي عند زيارته للولايات المتحدة  
 — بناء على أمر من سيده — يعدد الأوجه التي تتفوق فيها هذه البلاد  
 على بلده ، فأسكته على الفور المستمعون من أهل وطنه ، وصاحوا  
 قائلين « إنه رجل ثرثار وقبح : اقلوه ، ومهما يكن من الأمر في  
 موضوع العفة ، فإنه من الواضح أن شعلة الوطنية تتأجج ناصعة في جزر  
 فيجي كما تتأجج في أي جزء من أجزاء أوربا . وبالرغم من أنه قل من  
 الأمم الحديثة من يتعلم منهم الكثير ، فإن كثيراً من الشعوب المشهورة  
 من قديم ربما أفادت من مثاهم . فأهل الصين مثلاً سرعان ما تعلموا  
 — بعد عهد كنفوشيوس — من فلاسفتهم أنه يجب علينا أن نحب الناس  
 جميعاً على السواء . « وطبقاً للكتاب الهندي المسمى بانشا تترا أنه لا يعتبر  
 الرجل واحداً منا أو غريباً عنا إلا ذوو العقول الضيقة ، . وقد قال  
 ديموقريطس الأبدري « إن كل بلد مطروق عند الرجل الحكيم ، وأن  
 الأرض بأسرها وطن كل من كان له قلب كريم ، . كما أن القورنيانيين  
 والسكيبين الأواخر عدوا الوطنية سخرية من السخريات ، وتطورت

عقليتهم إلى تلك العالمية الرواقية المتسامحة التي اعتنقها سنيكا وابتكيتس وماركس أوريليس . وكان حكم فلتير النهائي وهو يتكلم عن الحرب ، أنه من الجلي أن بلدا من البلاد لا يكسب إلا إذا خسر الآخر ، ولا يستطيع أن يتنصر دون أن يخلف كثيرا من البائسين ، .

وأعتقد أنه يجب أن نقر أن الإحساس بحقوق الملكية ، والصدق ، والنظافة ، والاعتقاد في الله والحياة الآخرة والعدالة الأبدية ، والشهامة ، والعفة ، بل والوطنية ، ليست جميعاً بين الصفات المميزة للمدنية ، وإن تكن — برغم هذا — من وسائل المدنية ، بل ومن وسائلها القوية الفعالة . ومن الواضح أن روح المدنية شيء لم يحققه المتوحشون ، ومن ثم فلا يمكن أن يتوقف على الفضائل البدائية ، وأن المفارقة بين المتوحش النبيل والرجل المتمدن التي جرت على الألسن في المائتي سنة الماضية لتدل على إجماع الرأي على أن المدنية ليست إنتاجاً طبيعياً . ويجب أن نتوقع أن يكون لها شأن بالصفات التي اكتسبتها الإنسانية أخيراً — الشعور بالذات وروح النقد . يجب أن نتوقع أن تكون نتيجة من نتائج التربية . فالمدنية شيء مصطنع .

غير أن هناك رأياً متخلفاً يستند أساساً على علم ناقص يتمشدد به المدعون وأنصاف المتعلمين . والمدنية بناء على هذا الرأي تتوقف على الخضوع المطلق لقانون الطبيعة (١) . والشعار الذي ينادى به أصحاب

---

(١) يؤكد لي صديقي مستر ريموند مورنر الذي تخرج في أكسفورد من وقت ليس بالبعيد إن أصحاب هذا المذهب لا وجود اليوم لهم . وقد يكون مصيباً . وأرجو أن يكون مصيباً . غير أنني أؤكد أنني حينما كتبت هذا كنت أفكر في جيل سابق كما أفكر في حالة عقلية كانت تسود منذ خمسة وعشرين عاماً .

هذا الرأى هو « خل الطبيعة وشأنها » : إن مملكة الحيوان ومملكة النبات هما مثال التمدن . وهم يقولون بأن الإنسان قد أفسد الأمور لأنه لم يسمح للأصلح بالبقاء : ولن نكون حقاً متمدين حتى نترك الضعيف للنوت . وحتى نقر بصفة رسمية أن القوة هى الحق . عندئذ يرث الأرض الصالحون . وهنا يتبادر إلى الذهن بالطبع هذا السؤال : ومن هم الصالحون ؟ إذا كان الناقصون من الناحية الجسائية قد نجحوا فى تنظيم المجتمع بحيث أصبح طلبة جامعة لندن لا يخشون بأس رجال الشرطة الذين يحدقون بهم ، أفلا يجوز أن يكون ذلك لأن الناقصين من الناحية الجسائية هم المتفوقون فى الناحية العقلية ؟ وإذا وثقنا فيما روته كتب المراجع فقد كان التطور نتيجة للسكر كما كان نتيجة لقوة الأعصاب . ألم يكسب الإنسان ذلك الحيوان الثدى الضعيف فى معركة البقاء ما لم يكسب الماموث الضخم العظيم ، وحتى بين بنى الإنسان ربما لم يبق إلا من كان أصلح للبقاء . يبدو لى أن حجة الطبيعيين متناقضة ، إذا كان بقاء الأصلح من قوانين الطبيعة ، فإننا نستطيع أن نفترض أن الأصلح للبقاء هم الباقون فعلاً . وليس من غير المحتمل أن تصبح الحرب الحالة الطبيعة للبشر ، وإذا كان الأمر كذلك فإن المستقبل سوف يكون مع أولئك الضعفاء الماكرين الذين يكيفون أنفسهم لظروفهم بابتداع الوسائل التى يتحاشون بها الخدمة العسكرية ، كما حدث فى العصر الجليدى أن بقيت تلك الأنواع التى عرفت كيف تحمى نفسها من حدة المناخ . يقول طلاب العلم « لقد تدخلت مع قانون الطبيعة ، ونجيبهم بقولنا « هذه هى طبيعتنا » .

وأخشى أن يطرق أذن العالم البيولوجى المتحمس كلامى هذا كما

لو كان سفسطة وشراً . وإذا ما أدرك أنه ينهزم في الجدل فالأرجح أن يلجأ إلى قواعد الأخلاق . وقل من يستطيع أن يتكلم بنعمة خلقية عالية مثل رجل العلم الذي لم يتم نضوجه . فهو يصم — وضميره مطمئن — بالميوعة والتقلب والحياة والجبن والوضاعة والسخف والاندفاع وراء العاطفة والشر المطلق — يصم بهذا كل من يعتقد أن من واجبنا ألا نهمل الكسيحين من الأطفال حتى الموت ، وألا نخلق الفنانين المصابين بالدرن ، وألا نكل إلى البروفسور راي لانكستر اختيار حياتنا . يقول هؤلاء العلماء ساخطين « ينبغي لنا ، ولكنى أتساءل أليسوا في هذا أيضا متناقضين ؟ ليس في الطبيعة ما « ينبغي ، وإنما فيها ما « يكون » . حينما يقول العالم البيولوجى إنه لا ينبغي لنا ألا نتدخل مع الطبيعة ، فهو يزن الرأى وزنا خلقياً لا طبيعياً . وإذا كانت المعايير الخلقية تتخذ أدلة في صالح قانون الطبيعة ، فهى يمكن أن تتخذ أدلة ضدها بنفس القوة ، فنستطيع أن نقول إنه بما يؤذى حسنا الخلقى أن تقتل الأطفال والشعراء والمصابين وكل من يفقد الأمل في بلوغ المستوى (ب - ١) من الكفاية ، فإن مثل هذا العمل لا يؤدي في حكمنا إلى حالات عقلية طيبة . ويقول طالب العلم عابساً « حسنا . ولكن ثقوا أن الإنسان إذا رفض أن يطيع قاتون الطبيعة لا بد أن يهلك ، فنجيب قائلين : وإذا كانت الغاية والغرض الوحيد من وجود الإنسان ليس إلا أن يحافظ على نوعه ، وإذا لم تكن للفرد قيمة إلا أن يكون وسيلة لهذه الغاية ، فهل يكون ذلك أمراً ذا بال ؟ إنه إذا تحتم على أى نوع من أنواع القرودة أن يفنى فإن ذلك لا يعنى البتة شيئاً ، وإذا كان الإنسان لا يعيش لأى غرض سوى ما يعيش من أجله القرودة فإن استمرار

بقائه يصبح كذلك عديم الأهمية . أما إذا سلطنا بأن الإنسان يعيش من أجل غرض آخر غير الاحتفاظ بنوعه انهار البناء الشاخص كله من أساسه . إذ ربما كانت من أجل هذه الأغراض الأخرى عينها حمايتنا للضعيف واحترامنا للفرد .

إن المشكلة التي أردت أن أجلوها لمصلحة طالب العلم في ساوث كنزنجتن هي هذه : إما أن يكون الحق فيما هو كائن ، أو أن الإنسان أوسع معرفة من الطبيعة ، وليس في الحالة الأولى ما يدعو إلى الاعتراض أما في الحالة الثانية فإن لدى العالم البيولوجي مجالاً أوسع للاعتراض . فالماستدون ( حيوان منقرض يشبه الفيل ) بعد ما فشل في نضاله من أجل البقاء ، تلاشى من الوجود ، وأخذ مكانه نوع آخر يحمل رسالته ، رسالة الاحتفاظ بالجنس ، وهكذا سارت الأمور سيراً حسناً . وكذلك إذا فنى جنس علماء سوث كنزنجتن ، وحل محله جنس آخر أقدر منه كفاية من الناحية البيولوجية ، فاذا يكون الضرر من ذلك؟ إن الأمور هكذا تسير كذلك سيراً حسناً ، ويتحقق غرض الطبيعة . لماذا نأخذ على عواتقنا الاحتفاظ بعلماء سوث كنزنجتن مالم نعتقد أن هدفهم يختلف عن هدف الطبيعة ويدق عنه ؟ هنا يقاطعني القارىء متسائلاً : لماذا تفضح نفسك بهذا الانفعال وتلك الإطالة ؟ لا شك أن عبارتين اثنتين كانتا تكفيان لإقناع أى فرد بأننا لا نعى بالجماعة المتمدينة نوعاً كامل التنظيم لمجرد الاحتفاظ بنفسه ؟ أليست الثمال كذلك ؟ .

بقى أمراً أو أمران آخران يضح أن نشير إلى أنهما ليسا من المدنية .



فهنالك مثلاً الحيل الميكانيكية المعقدة . إنها ليست من روح المدنية كما ظن بعضهم . ومن الغباء والحياة الوطنية أن نحسب أن ألمانيا قبيل الحرب كانت أرقى مدنية من فرنسا برغم أن الألمان في تطبيق العلوم على الصناعة كانوا يفوقون كل الأمم ، ربما باستثناء شعب الولايات المتحدة . ولا يتصور أحد أن ملبورن تبلغ اليوم ما بلغت أئينا في عصر بركليز . ونحن على ثقة من أن آخر من يقع في مثل هذا الخطأ هم أرقى المتعلمين من أهل هذه المدينة العظيمة المضاعة بالكهرباء ، والتي يسير فيها القطار والترام . إن كثيراً من الفرنسيين يقرون مرغمين أن باريس نفسها في الوقت الحاضر أقل مدنية من أئينا لعهد بركليز ، والفرنسيون جميعاً ، بل وكل المتعلمين من الأمريكان ، يتفقون على أن باريس الحديثة أرقى مدنية من نيويورك في حين أن أحداً لا ينكر أن باريس متخلفة في طرق النقل والمواصلات ، وفي الإضاءة والتنظيمات الصحية .

اعتدت بعد الحرب الروسية اليابانية مباشرة أن أتناول عشائى في مطعم بجى سوهو ، حيث اعتادت فئة من صغار الشبان المثقفين أن تجتمع مرة كل أسبوع بأحد الضباط البريطانيين الجذابين المتواضعين الذين عاشوا طويلاً في عالم من واجبه أن يتغابوا فيه حتى ينسوا تماماً مبلغ ما لديهم من ذكاء . وأذكر أننا شرعنا تناقش موضوع هذه المقالة « ما هي المدنية ؟ » وكانت الفأية متقدمة جداً في ذلك الحين ، وأكد بعضنا أنه لا يجوز أن يوصف المجتمع بالمدنية إلا أن عنى بالفقراء والمرضى والمجانين ، ورأى بعضنا ( وكانت الجماعة تضم بعض السيدات ) أنه ينبغي أن يكون في الجماعة المتمدة صوت لكل من يبلغ سن الرشد .

ورأى آخرون أن الشعب المتمدّن حتّماً يجب أن يمنح كل شاعر وفنان خمسمائة جنيه في العام ، وأن ينشء معارض للصور في مدن الأقاليم — ورأى آخرون غير هذا وذاك ، ولكن ربما لم تعد لأرائهم من الأهمية اليوم ما كان لها في ذلك الحين . وأما الضابط فقد قال : « لا أستطيع أن أقول لكم ما هي المدينة ، ولكنني أستطيع أن أقول لكم متى يقال عن الدولة أنها متمدّنة . إن أولئك الذين يتفقهون في هذه الأمور يؤكدون لي أن اليابان كان لها خلال مئات السنين فن رائع وأدب عظيم ، ولكن الصحف لم تذكر البتة أن اليابان متقدمة في المدينة حتى اشتبكت في حرب انتصرت فيها على دولة أوربية كبرى ، . وكان لهذه السخرية موضعها ، ولكن الضابط الهمام نفسه ربما كان آخر من يعتقد أن الكفاية في التسليح هي في الواقع مقياس للمدينة . وإني واثق من أنه يستنكر أشد الاستنكار أن يكون البرابرة الذين اجتاحتوا الامبراطورية الرومانية قوما متمدنين ، أو أن التتر الذين قهروا أسرة سنج وهدموا في أواسط آسيا الثقافة الإسلامية كانوا أكثر من زمرة من الوحوش الضارية . وكنت أستطيع أن أقنعه ببعض الأمثلة . وكنت أستطيع أن أجابه أولئك المحبين للبشرية بهذه الأمثلة التي تحير اليوم — أو ينبغي أن تحير — كل من يقيس التمدن بالتقدم الآلي . أما ذلك الذي ( أو تلك التي ) يعتقد أن المجتمع المتمدّن هو المجتمع الذي يكون لكل بالغ فيه صوت فإنه ( أو فإنها ) إنما يتحدث كلاماً خلوا من المعنى بشكل جلي . إن النظم السياسية قد تكون من وسائل المدينة وقد لا تكون . ولكنها ليست من روحها . وكثير من القبائل المتوحشة يحكمها زعماء مستبدون في حين

أن غيرها يبدو ديمقراطيا ، وقد كانت أثينا في أزهى عصورها أوليجاركية من المواطنين الأحرار يعيشون على كدح عبيد ليس لهم حق التصويت . وكادت فرنسا في القرن الثامن عشر أن تكون ملكية مطلقة . فنحن على ثقة من أن المدنية تتعلق بشيء أبعد غورا من أشكال الحكومات .

لقد نجحت الآن — بدرجة ارتاح إليها — في أن أبين أن بعض الصفات التي يظن في بعض الأحيان خطأ أنها من خصائص المدنية ليست — في الواقع — منها في شيء . وقد حاولت أن أستبعد كل ما ليس بالضروري . ورأينا أن الفضائل البدائية لا تتنافى وحالة الهمجية ، وأن الأسماء الهلامية تطاوع قانون الطبيعة . ورأينا أن المجتمعات المتمدنة — أو المجتمعات الهمجية — لا يسودها نظام معين من النظم السياسية ، كما رأينا أن القبائل المتوحشة قد أحرزت انتصارات عظيمة وتغلبت على دول قوية . ورأينا أن تلك الجماعات التي يقر لها الرأي العام بين المتعلمين في العالم طرا برقي المدنية لم تبلغ فيها جميعا المخترعات الميكانيكية أو النظم التي تؤدي لخير الإنسانية درجة من الكفاية المرموقة — وإن كنت في هذا أمس موضوعا يتعلق بفصل آت من فصول الكتاب . وسأبحث في الفصل الآتي عن الصفات المميزة المشتركة التي تتصف بها الجماعات التي يقر لها الرأي العام المثقف في العالم طرا برقي المدنية . وسوف أعتبر هذه الصفات أسس المدنية . ولذا فإن كل من لا يشاطر الرأي العام المثقف الاعتقاد في المدنية الرفيعة لدى هذه المجتمعات سوف لا يجد ضرورة لما أصل إليه من نتائج ما دام ينكر ما ابتدأت به من مقدمات . وسوف لا تكون لهذه المقالة عنده قيمة أكثر من أهميتها من الناحية العلمية .

ولانى لأزعم — بناء على إجماع الرأى العام المثقف الذى يكاد أن يكون شاملا — رقى المدنية فى مجتمعات ثلاثة مختلفة .

ولست أزعم ، بل ولا أحلم أنى أزعم ، أن هذه المجتمعات وحدها هى المتمدة . إنما اخترت المجتمعات الثلاثة التى يبدو لى أنه ليس على رقى مدنيتهأ أى نزاع ، والتى تصادف لى أعرف عنها بعض الشيء . هناك مجتمعات لها حق قوى فى أن تعد من المجتمعات المتقدمة فى المدنية ، غير أن هناك من يدلى إزاء هذا الحق بحجج قوية تنافيه ، ومن الواضح أنه لا ينبغى لى أن اتجه إلى هذه المجتمعات باحثاً عن مميزات المدنية ، كما أن هناك مجتمعات أخرى ، نسلم جميعاً بتمدنها ، بيد أنه عند البحث يتبين لنا أنا لا نعلم عنها إلا القليل حتى أنا لا نكاد نستطيع أن ننسب إليها صفات معينة ونحن واثقون . ولانى لأشعر — رغم هذا — أن كثيراً من الناس يصرون على الإضافة إلى القائمة التى تخيرتها . ولانى لأرجو هؤلاء الناس ألا يعارضونى فيما وصلت إليه من نتائج حتى يتثبتوا من أن الصفات المشتركة بين المدنيات الثلاث النموذجية التى تخيرتها لا تشاطرها المدنيات التى يودون إضافتها . ولست أرى داعياً لأن نعتبر ما بيننا خلافاً أساسياً ، حتى إن هم رأوا من الضرورى أن يدخلوا بالإضافة أو بالتقصان تعديلاً فى القائمة التى قدمتها عن صفات المدنية . فسوف يظل بيننا ميدان مشترك يكفى للتدعيم تعريفى . وسوف نرى .

## نماذج السكال

اعتاد المؤرخون الذين ينهجون النهج القديم ، والذين يتميزون بأسلوب منمق تمتع في معالجة الماضي أن يحددوا في بيداء التاريخ أربعة عصور من المدنية الرفيعة : العصر الأثيني ( بل يجب أن أقول العصر الأيوني، إذا أردت الدقة ، ولكني لا أعتزم أن أكون دقيقاً) من موقعة ماراثون في عام ٤٨٠ ق.م حتى وفاة الإسكندر في عام ٣٢٣، والقرنين الأول والثاني من الامبراطورية الرومانية، وإيطاليا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وفرنسا من نهاية الفرونند (١٦٥٣) حتى عصر الكاتب، إن كان الكاتب - مثل فلتير - يكتب في القرن الثامن عشر ، وحتى الثورة إن كان يكتب في القرن التاسع عشر . ولا أحسب أن شخصاً متعلماً من الأحياء - رجلاً كان أو امرأة - ينكر رقي المدنية في ثلاثة من هذه العصور الأربعة . ولكن كثيرين يترددون عند ذكر اسم روما، وآخرون يحبون أن يضيفوا تانج وسنج ، وما يعرف معرفة غامضة ، أو يُستحدث عنه باسم المدنية الفارسية . ويكاد الكل أن يجمع على أن يضع المدنية الأثينية على رأس القائمة ، غير أن بعضهم يحدد هذه التحفة الاجتماعية بذلك المدى الضيق الذي يمتد خلال ستين عاماً مشرقاً ما بين ٤٨٠ وعام ٤٢٠ ،

ويطلق عليه عصر بركليز ، في حين أن بعضهم الآخر يطيل المدى حتى أرسطو والاسكندر ، ويمدده إلى الورا حتى سولون . إننى لا أَرْضُخ لأحد في إعجابى بالقرن السادس فيما بلغ من فن النحت الذى أعده أعلى مظهر من مظاهر عبقرية الفنون التشكيلية عند الإغريق ، وإعجابى بالحركة العقلية القوية التى منها ينحدر كل تفكير حديث جدى ، وبرغم هذا فإنى أشاطر الرأى العام عزوفه عن وصف القرن السادس بالمدينة الرفيعة . فى حين أنى أخلع هذه الصفة دون تردد على القرن الخامس ، وبغير تردد شديد على القرن الرابع . وينطوى هذا الاحساس — الذى أعتقد أن أكثر المتعلمين يشاطروننى إياه — على أهمية كبيرة : ذلك أننا نحس أن مدينة عصر من العصور لا تقاس كلية بجمال فنها أو بروعة فكرها . إنا نشعر — أو أننا على الأقل أشعر — أن عصر المدينة الأثينية الرفيعة لا يبدأ قبل ماراثون ، فى حين أنى لا أستطيع أن أقر بأن هذا العصر ينتهى قبل موت أرسطو فى عام ٣٢٢ ، وإن كان يؤلمنى أن أعرف انحطاط الفترة التى تلت الحرب فى يمتظتها العامة ، وفى المذاهب الخاصة وأن يكن ذلك بدرجة أقل . أما الفترة التى تقع بين سولون واندحار الفرس نهائياً فهى تبدو لى — كما تبدو لأكثر الناس — فترة عظيمة ، ولكنها ليست كاملة التمدن . فى حين أن الفترة التى تقع بين سقوط الديمقراطية الأثينية وغزوات الإسكندر فهى أقل عظمة ولكنها أرقى فى سلم المدنية . ومهما يكن من أمر ، فإنه لا يحتتمل الآن أن ينكر أحد ذلك الشرف الذى قد تخلعه هذه العبارة « المدينة الرفيعة » على عصر أفلاطون ، وما تلاه من عصر أرسطوفان وبراكسيثيلس وأرسطو . وقل من ينكر أن هذه الفترة جزء لا يتجزأ من المدنية الأثينية العظيمة التى سوف أعود إليها

بين الحين والحين ، والتي لا بد بحق أن يدرسها في تعمق وبعقل متفتح كل من يأمل أن يكتشف طبيعة المدينة .

ومن المؤكد أن حق أى فترة من فترات التاريخ الرومانى فى احتلال مكانة بين عصور المدينة الكبرى — من المؤكد أن هذا الحق يلقى اليوم اعتراضا حارا ذا أثر بالغ . وإن تجد بين النماذج الكاملة للمدينة التى أقدمها فترة رومانية . ولو أنى لخصت هنا الحجج التى أقنعتنى أنه لا يجوز قبول إحدى هذه الفترات ، فمن الواضح أنى أتعجل بذلك فى ذكر نتائج أرجو أن أبلغها بعد قليل . وما دمنا لم نقرر بعد ما هى صفات المدينة فلا أستطيع أن أزعم أن روما كانت تخلو من هذه الصفات ، وكل ما أستطيعه أن أشير إلى الدليل الذى حدا بى إلى إسائة الظن بالعقل الرومانى والإحساس الرومانى . ولتذكر أن ذلك كله لا يقوم دليلا — ولا ينبغى حقا أن يكون — ضد حق روما فى المدينة الرفيعة . ولا يصرفنى عن النظر فى تاريخها إلا أن كثيرين ممن لا يمكن أن نفعل إنكارهم للمدينة فى روما ينازعون نزاعا جديدا حتى الرومان فيها . وعلى أية حال فإن تبلغ بى قلة الصراحة أن أزعم أنى لا أشاطرهم سوء الظن بتاريخ الرومان . وسوف أبادر إلى ذكر الأسباب وبعضها التى تدعونى إلى ذلك . أما لماذا — على وجه الدقة — أحسب أن روما لم تكن قط رفيعة المدينة فسوف لا يتضح تماما إلا خلال مقالتى .

يعتقد فنتير أن الثقافة الرومانية بلغت أوجها فى القرن الأول من الامبراطورية . غير أن المعجبين بالرومان اليوم يؤثرون فيما أحسب أن يقفوا عند القرن الثانى . وقد اتضحت للورخين منذ زمان بعيد

البربرية والهمجية والوحشية التي اتصفت بها الجمهورية ، وبلغ من وضوحها أن بدأ الطلاب الأذكياء يرتابون في العصور المتأخرة . وما إن بدأ الباحثون يتساءلون إن كان من المحتمل أن تكون مغامرات قيصر أو مروءات كاتوق قد غيرت نوع الحياة تغيراً أساسياً ، ما إن بدأوا يتساءلون في هذا حتى اكتشفوا أن المجتمع الروماني بقي — إلى حد كبير — تحت حكم الأباطرة الرومان الأوائل على ما كان عليه في أيام الجمهورية . من أجل هذا تعتقد الأقلية الصغرى — التي مازالت تؤمن بعظمة روما — أن القرن الثاني ، في السنوات التي تقع بين اعتلاء نرفا العرش وموت ماركس أورينيس ، كان عصر نور وعضوبة . وهناك مدرسة أكبر وأحدث ، أزعج لنفسى فيها مكانة متواضعة على مقعد التليذ ، تعتقد أن روما في كل تقلباتها السياسية بقيت همجية تافهة في أساسها . لا نجد في آدابها وفنونها وفكرها وثقافتها العامة شيئاً ذا قيمة ليس صدق بملا للإغريق ، ويبدو لنا أن الغالبية العظمى من الكتاب اللاتينيين لم تعتقد قط أن لغتها تصلح وسيلة للتعبير الذاتي ، وإنما استخدموها كما يستخدمها طلاب الصف السادس في المدارس إلى حد كبير ، يترجمون إليها بدلا من أن يعبروا بها عن أنفسهم . إنك تلس في أكثر الأدب اللاتيني طابع التمرين الذي لا يخطئ . وقد كان الكتاب الرومان في أكثر الأحيان يأملون أن يصدروا كتباً تشبه الكتب . أما أن يكتب المرء ليعبر عن رأيه أو لإحساسه الخاص فقد كان بالنسبة إليهم أمراً غير طبيعي . ومن ثم كان الانتقال من هو من إلى فرجيل ، أو من سوفوكليز إلى سنكا ، كالاتقال من كتاب



« رحلة الحاج ، إلى موعظة من مواظب الكنائس الصغرى ، فقد كتب هومر وسوفوكليز لأن لديهما ما يقولان ، أما فيرجيل وسنكا فقد كتبوا لأنه بدالهما من الصواب أن يقولوا شيئاً ما ، وإذا استثنينا كاتلس ولوكريشس ، فن من المؤلفين اللاتينيين حمل إلينا معنى يدل على خبرة حقة ؟ هناك — ولا شك — واحد أو اثنان ، وهل هناك نحات روماني واحد عبر عن أى معنى من المعاني ؟ ليس هناك من أعرفه ، وأن الفلسفة الرومانية لتذكر المرء بنقاش مرتفع المستوى بدرجة استثنائية في مجلس العموم . مثل هذا النقاش — بصفة عامة — يتجه وجهة طيبة ، ولكنه لن يقرب المرء من قلب الموضوع — والفلسفة التي لا تحاول حتى أن تبلغ اللب قيمة بأن تكون تافهة ، وإذا كانت فلسفة الرومان ( مثل دى اميكاتيا ، أودى بروفد نشيا لسنكا ) تذكر المرء بالمناقشات البرلمانية ، فإن رسائلهم الخاصة تذكر بأحاديث شيوخ عهد فيكتوريا في حجرات التدخين ، فهي ودية ، معقولة ، طريفة ، ولكنها ليست البتة قلبية ، أو فظنة ، أو خيالية ، ومن أن تاستس كانت له أمثال ، ومع أن هجاء جوفنال صادر من صميم القلب ، وفيه فظنه وخيال ، إلا أن الرومانيين عامة كانوا لا يدرون شيئاً . كانوا يستطيعون أن يتكلموا كلاماً معقولاً عن الأمور العملية ، ولكنه ككلام العرفاء في المدارس الخاصة . كانت لهم نكات ، وآراء ، وضروب من السخط ، وكانت لهم شهوات ، وكانوا يحترمون — كما يفعل خيار رجال الأعمال من الانجليز — تلك الواجبات الودية النديلة التي تربط الإنسان بالإنسان في المكاتب والمحاكم وفي عربات القطارات وفي الملاعب ، ولكنهم لم

يقتربوا البتة من أى أمر ذى بال ، ومن أجل هذا كانت رائحة روما  
النفاذة تذكرنى — وهى تخترق العصور — فى أحسن حالاتها بمجلس  
العموم وحفلات العشاء السياسية . وفى أسوأ حالاتها بالبترول وبرائحة  
النبات والنسيج والجلد الجديد .

كان الرومانيون فيما أرى عاجزون عن الحب العنيف لأى شىء ،  
وعن الإحساس العميق بالجمال ، وعن التفكير الدقيق ، والحديث  
الساحر ، أو الرذائل الجذابة . لم يكن لديهم إحساس بحقيقة عالم الفكر  
والشعور ، وما استطاعوا أن يحصلوا من ثقافة حصوله فى القرن الثانى ،  
وكان إغريقياً خالصاً . وأن حفنة من الكتاب والمفكرين الإغريق  
تمثل هذا العصر تمثيلاً غامضاً . ونستطيع أن ندرك كيف أن هذا  
التفكير لم يتغلغل فى كتلة الشعب الرومانى لو علمنا أن الخرافة بلغت  
فى ذلك الحين مبلغاً عظيماً حتى إن خير العقول — كما يقول رينان —  
مالت قبل كل شىء إلى المسيحية نظراً للأساس العقلى الذى تقوم عليه  
نسبياً . ولم يتخذ القانون الرومانى — وهو أعظم وأنفع ما أخرجته  
الامبراطورية — صبغته المألوفة إلا فى القرن الثانى — وهو لم ينسق  
فى شكل قانون بطبيعة الحال إلا بعد أكثر من ثلثائة عام . والقانون  
الرومانى — كما نعرفه — إغريقى أساساً ، ذلك أن الفقهاء البارزين ،  
لم يكونوا سوى رواقين ، يعدلون ويطورون النظريات الرومانية القديمة  
على الأسس التى يشير إليها مذهبهم الفلسفى ، ويستبدلون قانون الشعوب  
بالقانون الجمهورى .

أما من ناحية الذوق الرومانى ، فإن مما يعمله كل إنسان عابر أن

هادريان — وهو من أكثر الحكام الرومانيين تهديباً وتشبعا بالروح  
 الهلينية — شيد لنفسه في ثولي فلا من عجب تذكر المرء بوصفها بأسوأ  
 ما شيد لنفسه مليونير حديث من مأوى ، وقد كان ذلك مما يدعو إلى  
 تحمس جريجور فيس ، ذلك الرجل الطيب ، فهو يقول « . . . إن هذه  
 القلا التي بناها هادريان وفقا لتصميمه ، ليست سوى صورة وانعكاس  
 لأجل ما أعجب به في هذه الدنيا ، وقد أطلق على أجزاء معينة من  
 القلا أسماء بعض المباني في أثينا . فاشتملت على ليسيوم ، وأكادمي ،  
 وبريتانيم . وبوسيل ، بل وعلى وادي تمي يتدفق في ثناياه بينيس ،  
 وكذلك اليزيم وترتارس . كما خصص جزءاً لعجائب النيل وأطلق عليه  
 اسم كانوبس وهو اسم ملاعب اللهو الساحرة للاسكندريين . . . وبإشارة  
 من الإمبراطور كانت هذه الكهوف والأودية والقاعات تنبض بميثولوجيا  
 أولمبس ، وتحجج مواكب الكهان إلى كانوبس ، وتسكن تارتارس واليزيم  
 صور من هومر ، وقد تتجول زرافات من المعربدين خلال وادي تمي ،  
 وربما سمعت جوقات من يورپدين في المسرح الإغريقي . وقد تعيد  
 الأساطيل معركة زركيس في قتال صوري . ولو أن الكهراء سرت  
 في كل الأرجاء لبلغت حد الكمال .

ولا ينكر أحد أن تأثير روما على العالم كان بالغا . ولا ينكر  
 أحد أيضا أنه كان كذلك تأثيرا نافعا من وجوه كثيرة . غير أن هذا  
 لا يدل على أن الرومانيين كانوا على مستوى عال من المدنية ، إذا أدركنا  
 أننا نستطيع أن نحكم على البرابرة الجرمان الذين اجتاحوا الإمبراطورية  
 وخربوها حركمنا عليهم . إن ما ندين به لروما على وجه الدقة لا يزال

موضع نزاع . غير أنه مما لاجدال فيه أن كثيراً من ذوى الرأي الأكفاء ينكرون عليها رقيها في المدنية . ومن ثم فإنى لا أستطيع — إن أردت — أن أستخلص من تاريخها حقائق يقبلها الجميع .

وفيما بين وفاة بوكاشيو في عام ١٣٧٥ وغزو روما في عام ١٥٢٧ يقر الباحثون عامة أن الإيطاليين بلغوا قمة عالية من قن المدنية ، وإنى لا أجد في هذا الرأي بالتأكيد أى مأخذ . نعم هناك من يشكو أساليب السياسة في هذا العصر . ولكنى أقول لهؤلاء أولاً أننا لسنا على ثقة بعد بأن الأخلاق السياسية ظاهرة ضرورية من ظواهر المدنية الرفيعة . وأقول لهم ثانياً أن الاغتياال السياسى قد يحل محل الحرية ، وإن قتل الفرد أفضل عادة من قتل الألوف . وليس من شك فى أن الأذكاء والمثقفين من الإيطاليين لعهد النهضة كانوا أشد من الإيطاليين لعهدنا الحاضر ازدياء للقوة الوحشية ، وهى مقارنة لا تمت فيما أحسب إلى موضوعنا بسبب كبير .

ولا تنكر أن الكتابة الإيطالية فى القرن الخامس عشر — ولا يزال جانب كبير منها باللاتينية — كانت تعاني من تلك العيوب عينها التى أخذناها على الرومان . فبدلاً من أن تكون وسيلة للتعبير أمضت عملاً ثقافياً ، وأداءً علياً ، بينها وبين الأدب نفس العلاقة تقريباً التى بين قراءة الصلوات فى الأسرة وبين الدين ويقول العارفون « القرن الثالث عشر يتكلم والرابع عشر يهذر » ومن المؤكد أن من كتاب القرن الخامس عشر من قصد نفس المعنى من أمثال بيداردو ، وبوتشى ، وساشتى ، بل ولورنزو نفسه .

أما الفنون البصرية لعهد النهضة فأظن أنها لا تحتاج إلى تبرير .  
 غير أن الناس ينسون في سهولة جدية محاولة العصر أن يعطى العلوم  
 أساسا في الواقع . وقد عاد الأوربيون إلى دراسة الطبيعة والطب والتشريح ،  
 وعندما قارب العصر الانتهاء كادت العلوم أن تبلغ الحد الذي أوصلها  
 الإغريق إليه . درس العلماء الطبيعة والهندسة إلى الحد الذي بلغه هذان  
 العلمان ، ثم تابعا تقدمهما . وقد فهمت كذلك أن علم الحيوان وعلم  
 النبات أخذوا مرة أخرى مأخذا جديا . وإذا وازنا بين النهضة والعصور  
 الوسطى رجحت الأولى رجحانا كبيرا . ولكنك إذا امتلكت الشجاعة  
 لكي تدرس محاولة الأفلاطونيين الميديشين التوفيق بين مختلف المذاهب  
 الفلسفية وجدت أنهم — برغم سخافاتهم — يخفون تحت الحجب  
 الكثيفة من دخان الميتافيزيقا تشبها صيبانيا بالحق يميزهم عن مجهودات  
 الفلاسفة الرومانيين الذين يكتبون بتكرار المغالطات المألوفة بروح  
 الرجل الذي يؤدي واجبا خلقيا يجد في أدائه مشقة كبرى وراحة للضمير .  
 ولم يكن لو كريكش نفسه مبتكرا ، غير أنه كان رجلا استثنائيا . ومن  
 الحق إجمالا أن رجال النهضة ونساءها كانوا يهتمون اهتماما كبيرا  
 بالأمور التي لها وجود حقيق في عالم الفكر والشعور السامى الذى  
 نسميه عالم الروح . في حين أن كل ما كان ذا أهمية في الفكر الرومانى  
 يكاد أن يكون جميعه متعلقا بالأمور العملية . وإذا استبعدنا الاستثناءات  
 النادرة ، فإن مغامرات العقل الرومانى فى الآفاق البعيدة كانت فى امتاعها  
 تشبه ما يشعر به السائحون عند زيارتهم لمعارض الصور من نشوة  
 روحية .

وقد يعترض معترض فيقول إن عصر النهضة كان عصر خرافة ،  
يؤمن بالنتجيم وبكلام لا معنى له من هذا القبيل . وفي هذا من  
الحق ما في القول بأن الروح العلية كانت في ذلك الحين أشد يقظة  
ما كانت عليه في أوروبا منذ القرن الرابع قبل الميلاد . وقد وقف  
أصحاب العقول الممتازة — فوق هذا — موقف المقاومة . ففي القرن  
الرابع عشر وقف بترارك موقفا له أثره ، وفي القرن الخامس عشر  
حمل بيكودلا ميراندولا الرأي العام على متابعته في هجومه المشهور  
على مروجي الأباطيل . أما الروائيون ، وفي مقدمتهم الأمير  
فرانكو شاستي ، فقد سخروا من العرافين والدجالين . يقول جيوفاني  
فلاني « لا تستطيع مجموعة من النجوم أن تخضع حرية الإرادة عند  
الإنسان أو ما يقضى به الله » . ويقول جوكسبارديني « ما أسعد المنجمين  
الذين يُصدّقون إذا هم قالوا صدقا واحدا إزاء مائة أ كذوبة ،  
في حين أن غيرهم من الناس يفقدون كل تقدير إذا هم قالوا أ كذوبة  
واحدا إزاء مائة خبر صادق » . واضح إذن أن أثر النهضة بوجه عام  
كان إثارة « الشك » ، والصعوبة هي تحديد مبلغ هذا « الشك » على وجه  
الدقة . وكانت محاكم التفتيش تسميه « إلحادا » . وقد استبعدته بغير مبالاة  
بعد عام ١٥٢٧ بمساعدة الأسبانيين السود . ولو أمكنني أن أصدر حكما  
عاما من الحوادث الفردية التي أعرف عنها شيئا ما ( غير أنها حوادث  
جميعها فرنسية بطريق المصادفة ) قلت إن هناك ضربين من التشكك في  
عصر النهضة . مذهب فواتيري وهمي لا يتعارض وقدر من الخرافة  
الخفيفة التي يصلح بوناقتير دي برييه أن يكون مثالا له ، ومذهب  
الحادى جاف جامد ، يملو خلوا تاما من الاعتقاد في كل ما ليس بالأمر

الطبيعى ، وإن يكن لا يخلو من الخرافة التى تحث على حب البشر . ويصلح  
أيتين دولية — وهو من شهداء الحق ، لو كان للحق شهداء — أن  
يكون نموذجا لهذا المذهب . وكان دولية — طبقا لما يقول كالفن —  
يعلن احتقاره للانجيل « وقد صرح بأن « حياة الروح لا تختلف  
فى شئ عن حياة الكلب أو الخنزير » . ولكن برغم الخرافة أو الرذائل  
الأخرى فإن حق النهضة الإيطالية فى الحضارة الرفيعة ليس عليه — فى  
الواقع — اعتراض جدى . ويستطيع مسيو دى جوبينو — الذى  
لم يفهم أحد الحياة العقلية لهذه النهضة مثله — أن يضع على لسان  
لوكريزيا بورجيا الحكم التالى : « ليس فى هذه الدنيا ما هو أعظم من  
حب الفنون ، ومن حب ما يتعلق بالروح ، حب هؤلاء الذين نجبهم »  
وكانت لوكريزيا فى هذا تعبر عن عصرها .

والمثل الآخر الذى أستطيع أن أسوقه دون أن أخشى كثيرا أن  
يُعترض علىّ هو المدنية التى انتعشت فى فرنسا خلال « القرن العظيم »  
والقرن الثامن عشر . إن الفترة التى تقع بين عام ١٦٦٠ وعام ١٧٨٩  
عصر من التاريخ أقل مجداً من عصر بركليز ، ولكنه لا يكاد يقل عنه  
شهرة . ويجمع الرأى — ولهذا الإجماع دلالاته — أن النصف الثانى  
من القرن السابع عشر وطلائع القرن الثامن عشر أعظم من بقية العصر ،  
فإن النصف الثانى من القرن الثامن عشر ( الذى ينتهى فى عام ١٧٨٩ )  
أرقى مدنية . وهنا نجد دليلا آخر أن المتعلمين يميزون بين عصر عظيم  
وعصر متمدن ، أو يدركون — على الأقل — أن العظمة والمدنية  
ليس مترادفين ، وإن لم يكن بينها تعارض . وفوق هذا ، فمن المحتمل

أن تكون إنجلترا قد لعبت في العالم دوراً عظيماً كما لعبت فرنسا خلال النصف الأول من هذه الفترة — ما بين عودة الملكية و وفاة جورج الأول — ولكن برغم هذا ، وبرغم أنه من المؤكد أن انتصاراتها العقلية وإنتاجها الأدبي كانت على الأقل في مستوى واحد مع ما كان يتحقق في أى مكان آخر ، وبرغم أن ما حققته من الوجة الحربية كان جليلاً ، فإن أحدا لا يحلم بحسبان إنجلترا في ذلك الحين قد بلغت من رقى المدنية ما بلغته جارتها . ويمكننى أن أذكر عرضاً حقيقة لا تمس الموضوع ، ولكنها لا تخلو من الطرافة ، وهى أن إنجلترا لم تكن مثلما كانت فرنسا قوة استعمارية كبرى ، خلال الجزء الأول من هذه الفترة ، حينما كانت إنجلترا من ناحية الابتكار والتفكير أكثر من صنو لمنافستها فرنسا . إن فرنسا لم تتفوق فكرياً إلا بعد صلح باريس في عام ١٧٦٣ ، بالرغم من أن امبراطوريتها قد سقطت في أيدي الانجليز الذين استولوا على الهند وأمريكا فكانتا لهم عوضاً عن فقدان ملتن ودريدن وكنجريرف ومارفل وبرير وبوب وسوفت ونيوتن وبوبل وبنتل ولوك .

وهناك قترتان أو ثلاث عرفت بالمدينة الرفيعة ، لم يذكر عنها المؤرخون الأوروبيون إلا قليلاً لأنهم لا يعرفون شيئاً عنها . فالظاهر أن الصينيين قد بلغوا مستوى رقيقاً من التهذيب تحت حكم أسرة تانج ( فيما بين عامى ٦٠٠ — ٩٠٠ تقريباً ) بل وأكثر من ذلك تحت حكم سنج ( ٩٦٠ — ١٢٧٩ ) . غير أن علمنا بهذين العهدين ضعيف ، يخلو من التفصيل خلواً شنيعاً ، فلايحاول أن يستنبط منهما الخصائص المميزة للمدينة إلا صحافى نصف متعلم يزعم أنه مؤرخ فيجرؤ على ذلك . فلدينا



الفن الصيني — التصوير والنحت وصناعة الخزف — وفي الحق أنه من الإنصاف أن نفرض أن الرجال الذين أبدعوا هذا الفن — بل وأكثـ منهم الرجال والنساء الذين قدروه — بلغوا أقصى درجات المدنية . لأن الفن الصيني ، وبخاصة في عهد سنج ، لم يكن فنا راعيا لحسب ، بل كان كذلك متمدنا — وهي تفرقة سوف تنال جانبا من اهتمامي بعد حين . ولدينا نصوص مترجمة من الشعر الصيني وشيء من النثر . بيد أني — من ناحيتي — لا أود أن أبني أحكاما على مترجمات ، لأن أحدا لا يستطيع أن يعرف مقدار ما أدخله المترجم الحديث من نفسه على النص القديم بطريق لا شعوري . والواقع أن تاريخ الصين الاجتماعي والسياسي قد أهمله العلماء الأوربيون . ومن ثم فإننا لا نستطيع أن نؤمل في تكوين فكرة واضحة من تتف المعارف التي تلاقينا عن الأسلوب الذي كان يفكر به الرجل الصيني أو السيدة الصينية لعهد تانج أو سنج . أو كيف كان — أو كانت — يحس إزاء الأمور التي لها مساس أو اهتمام . وذلك لأن زواج أهل الصين ونظرتهم التي لا نألفها البتة تحيرنا وتضللنا . ومن الطفولة أن نزعم أننا نستطيع من قليل من الأواني الخزفية والصور والقصائد وقصص الرحالة والكتابات التاريخية (وهي أيضا مترجمة) أن نكون رأيا صحيحا عن أسلوب الحياة وعن العادات العقلية عند الرجل الصيني أو المرأة الصينية . أما عن حياة المواطنين في أثينا لعهد بركليس ، وحياة أهل فلورنسة لعهد النهضة ، وأهل باريس في القرن الثامن عشر ، أما عن هؤلاء فمعرفة تمكنتنا — مع بذل الجهد في التصور — من أن نكون لأنفسنا صورة . بل إنا لنستطيع أن نكون فكرة عامة كيف

كانت تكون حياتنا لو عشنا بين ظهرانيهم. نستطيع أن نتصور بيئتنا. وربما استطعنا أن نتصور كيف يتحدث أصدقاؤنا وكيف يسلكون ، وكيف كنا نستجيب لما يفعلون وما يقولون . إن مثل هذا الخيال ليس بالمستحيل برغم مشقته . ولكنى أميل إلى الاعتقاد بأن الرجل من أهل الغرب في العصر الحديث يكلف خياله ما لا يطيق لكي يتصور نفسه — في دقة وفي ثقة — وهو يحتمى الشأى ويتبادل الحديث مع جماعة من الموظفين الصينيين وزوجاتهم الشابات في نحو عام ١١٥٠ في مدينة هانجشوا المقدسة .

ومثل هذه الاعتبارات تحول بينى وبين البحث عن أمثلة في تاريخ الفرس . ومن الجائز بل ومن المحتمل أن يكون فيما نسميه على وجه التقريب بالفرس عصر أو عصران من المدنية الرفيعة . غير أن تكوين صورة محددة عن الحياة في أصفهان أو الري أو بغداد ( وأود أن أذكر عرضاً أنها ليست في بلاد فارس ) أبعد من محيط معرفتي وفوق قوة خيالي . وقد لاحظت أيضاً أن أولئك الذين يستخفون بهذا العمل ليست لديهم أحياناً فكرة دقيقة عن المكان الذي تقع فيه أو الزمان الذي عاشت خلاله بلاد فارس هذه التي يحلمون بها . إن الدولة العباسية كانت في أوج مجدها تمتد من بخارى إلى البحر الأبيض ومن القوقاز إلى أقصى حدود البلاد العربية . وهذه الدولة التي كانت تتركز في بغداد والتي حكمها هارون الرشيد حوالى عام ٨٠٠ قامت بها مدينة لها شأنها . وهذا أمر واضح جداً عند المدرسة التي تؤمن بمجد الشرق ، وربما لا يكون أقل وضوحاً عند أولئك المدققين الذين يميزون بينها وبين مدينة أخرى

تختلف عنها كل الاختلاف انتعشت في القرنين الحادى عشر والثانى عشر وعملت على ازدهارها مدرسة الفردوسى وعمر الخيام . وماذا نعرف عن هذه أو تلك ؟ هناك أدب عزيز ، ترجم بعض منه . بيد أنى أعتقد أن الترجمات التى اطلعت عليها لا يمكن أن تطابق النص ، مادامت سمعة الشعر الفارسى عظيمة عند أولئك الذين يعرفون الفارسية . وقد وضع جونز — ذلك الرجل الذى يستحق الإعجاب — فى القرن الثامن عشر أساسا يمكن أن يستند إليه التاريخ الفارسى ، واسكنى لا أعرف كاتباً حديثاً كتب فى تاريخ الفرس الوسيط ونجح فى جعل الموضوع حقيقة واقعة حتى لنفسه . وأستطيع أن أقول إن المرء يكون فكرة عن سير الأمور فى القرنين العاشر والحادى عشر فى بغداد أو أصفهان من كتاب « تاريخ المسلمين فى أسبانيا » مؤلفه مسيو دويزى أصبح من الفكرة التى يخرج بها من أى كتاب حديث يزعم أنه يعالج شؤون آسيا . هل كان هناك فن عظيم ؟ أجل ، ولكنه لسوء الحظ إنتاج عصور وثقافات مختلفة . هنالك الفن الساسانى فى القرنين الخامس والسادس ، الذى استمر فى منسوجاته الرائعة بعد الغزو العربى فى القرن العاشر بزمان طويل . وهناك صور قليلة رائعة من القرن الثالث عشر — عصر جنكيزخان — يبدو فيها أثر سنج وسانان وكذلك كانت طلائع القرن الثامن عشر عصر الخزف الخزف الرى المعروف ، وفى القرن الرابع عشر نجد فنون تيمور وحافظ وسلطان أباد . غير أن الفن الفارسى العادى الذى يعرفه حق المعرفة أكثر الناس هو الفن الصفوى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولهذا الفن ولبلاط شاه عباس فى القرن السابع عشر

يتجه أولاً مؤلفونا الفينيون ومصوروننا ومدبرو المسارح لتصوير الحياة الفارسية . ويخلط هؤلاء بين فارس والخلافة ، ويمزجون بين منسوجات ساسان في القرن السادس عشر وشعر سامان في القرن الحادى عشر ، ويزجون بصناع الخزف من الرى وحافظ فى بلاط شاه عباس ، ويخلطون بين الشاه والمغولى الكبير . ومن هذا الخليط يحصلون على مركب حلومائع يسعدهم أن يطلقوا عليه المدنية الفارسة . ويودون لو استطاعوا أن يعودوا إلى ديارهم من الليفانت ببعض الملاءات التركية والسراويل يرتديها زوجاتهم فى حفلات العشاء ، كأنهن أميرات من فارس . ولكنى لجهلى بالفارسية ، ولعلمى بهذه الأشياء ، يتعذر على بل استحيل أن أكون فكرة عن المدنية الفارسية . ومن ثم فإنى خلال بحثى عن صفات المدنية المميزة لن أذكر شيئاً عن شجر اللوز فى سمرقند أو عن البلابل التى لا تفتأ تترنم فوقها .

وبناء على ما قدمنا سنتخذ أثينا فى القرنين الخامس والرابع ، وإيطاليا لعهد النهضة ، وفرنسا من الفرونند حتى الثورة نماذج للكمال ، فإن حقا فى المدنية الرفيعة غير منازع ، كما أنا نعرف عنها لحسن الخطب بعض الشيء . وما أهداف إليه أولاً هو اكتشاف الصفات المشتركة بينها والتى لاتتصف بها القبائل التى عرفت بالهمجية والتوحش . وإن كنت لا أبوء فى بحثى هذا بالفشل فذلك لأنى مهدت لرأى تمهيداً كافياً . وقد ذكرت عند مناقشة مميزات المتوحشين الأدياء — ولم يعترض على أحد فيما أحسب — أن الخطوة الأولى التى يتخذها الهمجى نحو المدنية — وكنت بطبيعة الحال أتحدث عن المميزات الخلقية — هى اكتساب الشعور بالذات وعادة التأمل . وليست هاتان

المميزتان هما الصفتان المميزتان للمدينة الرفيعة بطبيعة الحال. فقد شاعتنا شيوعاً كبيراً. ومن الحق أن نقول إن انعدام الشعور بالذات انعداماً يكاد يكون تاماً — ولا أقصد ذلك الشعور بالذات الحيواني الذي يديه الكلب أحياناً حيناً يدرك أنك تحملق فيه — بل وانعدام روح النقد الساذجة هو ما يميز أسفل البرابرة عن بقية الجنس البشرى. وهو تمييز اثروبولوجي عريض الخطوط يوازي ذلك التمييز الذي يقيمه علماء الحياة بين النبات والحيوان، ولا يعنيننا إلا كمنقطة ابتداء، ولكننا لو هذبنا هذه الصفات وجدنا أن الشعور بالذات — الذي يؤدي إلى فحص الحالات العقلية والموازنة بينها — ينتقل بنا إلى الإحساس بالقيم، في حين أن روح النقد إذا طبقت في كافة الميادين تؤدي إلى تحكيم العقل باعتباره الحكم النهائي في المسائل التي تمس الواقع. هاتان صفتان لا يتصف بهما المتوحشون، بل ولا تتصف بهما جميع المجتمعات المختلفة، وعند بحثي في نماذج كمال المدنية التي تخيرتها للشعور على صفات مشتركة خاصة أتوقع أن أجدّها جميعاً منبثقة من هذه الصفة أو تلك.

ومن رأيي أن « الإحساس بالقيم، و « تحكيم العقل، هما الصفتان الأساسيتان للمدينة الرفيعة، والبحث عن المميزات التي أنا مقدم عليه سوف ينتهي بي إلى البحث عما تتمخض عنه هاتان الصفتان. ومن المحتمل جداً أن يكتشف أحد من الناس أني — رغم الترامي الطريق القويم فيما سرت إليه — لم أتابع المسير بعيداً، فهناك صفات أساسية أخرى تتولد عنها صفات ثانوية جديدة. بيد أن ذلك لا يدحض حتماً ما بلغت من نتائج. إن المعترض يبرهن بذلك على أن مقالتي ناقصة ولكنه لا يبرهن حتماً على

خطأ ما فيها . ولو أن أحدا من الناس — بعد دراسته لما قدمت من  
ميزات — يكتشف غيرها من مميزات تشترك فيها المدنيات الراقية  
وتتخصص بها ، فمن الواضح أن يكون من واجبي ضمها إلى قائمتي . ولن  
يدفعني إلى تغيير موقفي إلا البرهان على أن بعض ما تشتمل عليه قائمتي  
من مميزات تشترك فيها الشعوب المتبررة .

إن الإحساس بالقيم — كما أفهم هذا التعبير — لا يكون إلا عند  
أولئك الذين يستطيعون أن يضحوا بالخير الواضح العاجل في سبيل  
الخير الخفي الآجل . فالأفراد الذين ضحوا بالراحة قصدا في سبيل الجمال  
— دون أن تكون أمامهم غاية عملية أو خرافية — يبدو لي أن لديهم  
إحساسا بالقيم . وإيثار التربية الحرة على التربية الفنية العملية ، إيثار  
التربية التي تعلمنا كيف نعيش على التربية التي تعلمنا كيف نكسب ، هذا  
الإيثار ظاهرة أخرى من ظواهر هذا الحس المتمدن الرفيع ، والعقل  
عندى تكون له السيادة إذا شاع الرأي بأن كل أمر يتطلب تفسيرا  
وتبريرا من العقل ، ولا بد في النهاية أن يسمح بهذا التفسير وذلك التبرير .  
ولكن يجب ألا نفترض أني حينما أصف بالعقل مجتمعا من المجتمعات ،  
أو حينما أقول أن لديه إحساسا بالقيم ، أقصد أن كل الأفراد الذين  
يتألف منهم هذا المجتمع يعملون ويفكرون عادة على أساس من العقل ،  
أو يحسون إحساسا دقيقاً . فقد يسود العقل في مجتمع تؤمن فيه مئات  
الألوف بأشنع الخرافات . إن وصف شعب من الشعوب بالعقل أو القدرة  
على التمييز حكم عام لا يزيد دقة على وصفه بالبياض أو بالسواد . كما  
أن سيادة العقل تؤدي إلى نتائج تختلف باختلاف الظروف . فقد أدت

في أئينا إلى تأمل مبدئي في معنى الخير وطبيعة المادة ، وأدت في القرن  
الثامن عشر إلى الشك الديني وإلى تذوق الاقتصاد السياسي . وإن ما نحن  
مقدمون على الخوض فيه هو ما تتصف به بعض الوحدات — أو المجتمعات  
— غير المحدودة من ميول واتجاهات . ولذا فإننا لا نأمل أن نصدر  
أحكاما عامة لا تسمح بالاستثناء .

ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه لم تنشأ في التاريخ مدينة كاملة .  
وإذا تصورنا أن الإحساس بالقيم وتحكيم العقل هما الصفتان الأساسيتان  
اللتان انبثقت منهما مميزات المدينة ، وجب علينا أن نشبه هذه المميزات  
بسلة مليئة بالكور المرمرية الزلقة الصغيرة تغترف منها كل مدينة  
ما استطاعت . وقد تولدت عن الإحساس بالقيم وروح النقد إمكانيات  
كثيرة : بعضها لم يمكن قط أن هيئنا وبعضها نالته كل جماعة ارتفعت  
بنفسها قليلا فوق مستوى الهمجية المجردة . وقليل منها — وهي في أكثر  
الأحيان تهذيب للصفات التي تشبثت بها كل المجتمعات المتمددة —  
مصقول مراوغ إلى حد يجعلها تنزلق بين أكثر الأصابع ، ولو أن أياد  
قليلة ممتازة قد أمسكت بها على درجات متفاوتة من الثبات . هذه الأيدي  
الممتازة القابضة هي الجماعات ، أو المجتمعات ، التي اتفقنا على أن نصفها  
« بالمدينة الرفيعة » . وأنا مقبل على التحدث عن الكشف عن الصفات  
النادرة المراوغة التي تمسكوا بها ، وتمسكوها لفترة من الزمن ، وتحليل  
هذه الصفات ، ولذا ذكر هنا أن القبائل الممعنة في الهمجية لم تتمسك بأية  
صفة من هذه الصفات .

إن إعلاء العقل حتى يصبح الحكيم الأول في الحياة أمر مستحيل في

الجماعات الهمجية لأسباب عدة ، لعل من أوضحها أن الظروف في الجماعات الهمجية شديدة الثقل ، وتنازع البقاء — على وجه العموم — جاد جدا لا يسمح بصورة إخضاع غريزتي الاحتفاظ بالذات والاحتفاظ بالأسرة . والواقع أن الرجل الذي يحمل البندقية أحسن إعدادا — إلى درجة كبيرة — لحفظ الذات من الرجل الذي يحمل الهراوة . غير أن الرجل الهمجي لم يعيش قط في تلك الظروف التي تشجع على ذلك التأمل المتواصل النافذ الذي يستطيع وحده أن يؤدي إلى محترعات ميكانيكية معقدة كالبنندقية . والهمجي الذي يقف لكي يفكر يتعرض بدرجة قصوى إلى خطر الوقوف الأبدى . ولذا فإن شأنه شأن الطيور وشأن سيرجون فولستاف ، يعمل بإملاء الغريزة . وهو يعتمد على الغريزة إلى حد لا يجعل للعقل سوى فرصة يسيرة جدا لكي يكون ذا أثر فعال . إن إعلاء الغرائز قاتل للعقل . وكذلك لا يمكن للتوحشين أن يتصفوا باحساس رقيق للقيم . فإنك لن تجد رجلا من الإسكيمو يمكنه أن يدرك أن القيمة البعيدة للأنشودة أكبر من قيمة البيضة المحمرة ، لأن القيمة المباشرة عنده للبيضة المحمرة محسوسة جدا وضرورة ماسة . ومن العيب أن تبين لرجل يعيش معرّضا في حاضره للهوت جوعا أو من برد الصقيع أن التربية الحرة أرقى من التربية العملية البحت ، إذ لا بد له قبل أن يقدر لبعض الحالات العقلية قدرها أن يكون على درجة من الأمان لشخصه . ومن ثم كانت أحكام المتوحشين غريزية جدا ، وعقائدهم تقليدية ، وأذواقهم تستند إلى تجارب معدودة لا تسمح بدقة التمييز . والرجل الهمجي الذي يبدأ في نقد عادات قبيلته وتقاليدها نقدا عقليا



سرعان ما يقضى على وجوده ويقضى على همجيته ، فقد خطا نحو المدنية  
خطوة كبيرة . وكذلك يخطو نحو المدنية خطوة كبيرة من يبدأ في إدراك  
أن قيمة الأشياء الحقيقية في قيمتها كوسائل لحالات معينة من العقل ،  
حتى إن كان إدراكه هذا على كثير من الغموض . ولكن طالما بقي  
الإنسان على الطبيعة ، يسير وراء غرائزه ، فلن يتقدم نحو المدنية .  
إن المدنية وليدة التأمل والتربية . إنها مصنعة .

## مميزاتهم : الإحساس بالقيم

لو سألت إثني عشر رجلاً متعلماً تعليماً كافياً ( ولعلّي أصبحت بملا بعض الشيء في استعمال هذه الصفة « متعلم » ، ولكنني إن تخلّيت عنها أضعفت حجتي ) لو سألتهم أن يعينوا لك أبرز صفة في العقل الأثيني ، فمن المحتمل أن يجيبك منهم أحد عشر بأنها « حب المعرفة » ، أو « الحق » ، أو « الاستطلاع » ، أو « الإيمان بالعقل » ، أو المعقولة أو ما يشبه ذلك . أما الثاني عشر فبروح المدقق المتعالى ربما أكد لك أن ما يجعل الأثيني أثينياً ( من اتكا ) هو إحساسه بالقيم إحساساً دقيقاً . بل إن الأحد عشر رجلاً — بعد أن تهدأ غضبتهم التي نلتهمس لهم فيها المعذرة — يكادون أن يتفقوا قطعاً أنهم جميعاً محقون ، وأن التعقل والإحساس بالقيم صفتان توأمان لأثينا في مجدها . والكلمتان اليونانيتان اللتان تعنيان « التعقل الحلو » و « الجد الملائم » كانتا هما الصفتين اللتين تميزتا بهما الحياة والفكر والفن الإغريقي — كما يتعلم ذلك كل صبي يبدأ في تعلم المواد الكلاسيكية . والصفة الأولى هي العقل يحلّيه الإحساس بالقيم ، والثانية هي الإحساس بالقيم يثبته العقل ويحدده ، بل إن كلمة كلاسيكي ذاتها ومعناها الأول في قاموسى « ما يتعلق باليونان القديمة أو روما ( التي تحاكيها ) » ، هذه الكلمة تؤدى معنى التعقل والتذوق ، وهاتان الصفتان ، وما تولد عنهما ،

اللذان كاتتا الصفتين المميزتين لأثينا ، سوف نجد أنهما كذلك — ما لم  
أكن مخطئا — ميزتا كل عصر من عصور المدينة الراقية .

إننا جميعا نتحدث عن تقدير أثينا للفن والفكر . وقصة النحات الذى  
اتهم بتعذيب شاب — والتعذيب فى أعين الأثينيين كان جريمة شنيعة —  
وأقر على نفسه الاتهام ، ولكنه قدم دفاعا عن نفسه التمثال الرائع  
الذى عاونه فى إخراجه ما عاناه نموذجه الحى ، لحكم عليه بالبراءة  
— أقول إن هذه القصة — وإن تكن خرافية — توضح الأثر الذى تركه  
على كالعصور حب الأثينيين للجمال . وفى لزيس كانت صورة سافو  
— وهو الاسم الذى يذكر بالاشتمزاز فى أرفع البيوت الانجليزية —  
تزين قطع العملة . لأن أهل لزيس كانوا يعدون « أعلى رأس فى الغناء »  
أسمى أمجاد الدولة . وأذكر عرضا أن رأس سلفاتور روزا — المصور  
الوحيد ، لا أقل الذى كان ممتازا بل أقول الذى كان معروفا ، بمن أنجبتهم  
نابلي ، لا يزال يزين العملة الورقية التى يصدرها بنك نابلي ، وهذا أثر  
جميل للمدينة الإيطالية تدبينه فى جلاء . وتقدير أثينا للأمور العقلية  
ظاهرة معروفة ساءت سمعتها . فقد كان من أعمالهم الرئيسية أن يناقشوا  
أية مشكلة تدور برؤوسهم نقاشا عقليا غنيا حرا . يقول ميشليه :  
« إن هذا الشعب الضاحك المتطلع يقدر السخرية السقراطية أكثر مما  
يقدر أى لعبة رياضية . ومن ذا الذى يستطيع أن ينسى ذلك الأمر  
العجيب الذى وقع فى أثينا عام ٤٠٤ ق. م . وهو تمثيل لستراتا على  
مسرح الدولة وعلى حساب الشعب ؟ لم تكن أثينا فى ألم بما يمكن  
وصفه الآن وصفا صادقا بالنضال فى سبيل الحياة أو الموت فحسب ،

بل كانت كذلك تعاني الكارثة الساحقة التي لحقتها من سرقة مما أدى إلى انهيارها فيما بعد نهائيا . وكانت حمى الحرب على أشدها . ورغم ذلك قدمت الدولة في أثنائها على مسرح الشعب وعلى حساب الشعب هذه المسرحية المتطرفة في معارضتها للروح الحربية والروح الوطنية . ولم يكثر أحد بالسخرية من الجيش والاستهتار بالعواطف الوطنية والاستهزاء بمن يتعقبون الجواسيس ويلتهمون الأسبرطيين ، وتقذ زعماء الديمقراطية نقدا لا هوادة فيه . وإنما كان الناس يتساءلون : هل لستراتا أفضل كوميديا في هذا العام ؟ إن كانت كذلك فينبغي أن تظفر بالجائزة وأن يشهد الجمهور تمثيلها ، وقد مثلت . ولأستطيع أن أذكر حادثا في التاريخ يدل على الإحساس العام بالقيم أكثر من هذا جلاء .

وفي أثنائها كانت الأموال التي تخصص للمسرح مقدسة لا يجوز المساس بها . وربما لم يكن من غير الطبيعي لشعب يستطيع أن يقدر أعظم المآسى وأدق الملامح أن يجعل للفن النصيب الأول من خزانة الدولة . ولم يبخل المواطن الذي كان يعيش في بيئة ساذجة ، يعتبرها عامل المناجم في إنجلترا محطة بكرامته الإنسانية ، لم يبخل بشيء ينفق على إخراج المسرحيات ، وإقامة التماثيل ، أو إنشاء المعابد . ويذكرني هذا بشيء كان ينبغي لي أن أذكره في الفصل الأول . وذلك أن الراحة من بين الأشياء الكثيرة التي ليست بالمدينة . إن عيشة المتوحشين حياة لا راحة فيها لا تدل على شيء . ولست أقول إن انعدام الراحة دليل على المدينة ولكنني أقول إن الراحة ليست من مميزاتنا ، فقد كانت حياة الإثني — ورغم غزارتها وتعقيدها في الفكر والشعور — في أكثر

النعم المادية — ناقصة بدرجة مشينة . إن المدنية — كما يفهمها رجل  
 السوق — لم يحقق الاثنيون منها شيئا . ويسرنى أن أعرف أن المستر  
 ولز بلغ به الصدق أن يقر باحتقاره لهذا الشعب الذى لم يتهدب . إن  
 أغنى المواطنين كثيرا ما كانوا ينامون فوق مقاعد حجرة الطعام —  
 وكانت فى الكثير الغالب مقاعد خشبية — لا يتلفعون إلا فى معاطفهم  
 كالكثيرين من ركاب الدرجة الثالثة . وكانت بيوت الاثنيين صغيرة ،  
 مبسطة ، تخلو من أدوات توفير العمل اليدوى . ولم تكن هناك أسباب  
 للراحة المنزلية . والأثاث والأدوات المنزلية شحيحة ساذجة ، تثير  
 الإشفاق وحب الرعاية والحنق عند جامع القمامات الذى يحس إحساسا  
 طبقيًا . ولم يكن عدم الاكتراث بالراحة هذا خاصا بالمواطنين أصحاب  
 المدنية الرفيعة فى أئينا . فن ذا الذى لم يسمع السائحىن الانجليز والأمريكان  
 يعيرون على القصور الإيطالية ما فيها من أسباب انعدام الراحة ووجود  
 التيارات الهوائية فى الحجرات وقلة وسائل التستر ؟ كانت النهضة تتميز  
 بالترف والفخار ، ولكنها لا تعنى إلا قليلا بالراحة . ولم تصبح للراحة  
 أهميتها إلا بظهور الطبقة المتوسطة . وفى القرن الثامن عشر احتفظت  
 الارستقراطية الفرنسية بتقليد العناية بالطراز مع إهمال ما كانوا يسمونه  
 « بالراحة الانجليزية » . وقد عمّت الشكوى منذ ثلاثين عاما من أن  
 السياحة فى فرنسا كان يفسد متعتها انعدام أسباب الراحة المنزلية . أنهم  
 يغيرون كل ذلك الآن ، وليس هذا — على أية حال — من شأنى فى  
 الوقت الحاضر . وما يهمنى أن أذكره هو أن عدم الرغبة عند المتحضرين  
 فى تضحية الطراز فى سبيل الراحة نتيجة لا مفر منها للإحساس بالقيم .

وليس ما كان يضيفه الإيطاليون لعهد النهضة من شرف زائد  
 على الشعراء والمصورين والفلاسفة والعلماء بأقل اشتهاها من حب  
 الاثنينين للجمال وللتعقل . وكان أهل فلورنسة — وهم في ذلك الوقت أشد  
 الأوربيين تحمسا للسياسة — يحسون أن فنهم هو أعظم مجد من أجداد  
 دولتهم . وفي تسكانيا كان القوم يتجادلون في مزايا المصورين والنحاتين  
 كما يفعل أهل يوركشير بالنسبة للاعب الكرة وراكبي الخيول . ولا تستطيع  
 إيطاليا بأسرها أن تقدم لبترايك وبوكاشيو وبرونيلشي وماتتجنا وبمبو  
 وبديينا وبوليتان وأريستو وفائيل وميشيل انجلو وتيتان ما يستحقون  
 من تقدير . وليس من المبالغة — حقاً — أن تقول إن الإيطاليين في  
 أوائل القرن السادس عشر — على الأقل في روما وفلورنسة — قد  
 اعتبروا رفائيل وميشيل انجلو أرقى مظهر من مظاهر العبقرية في بلادهم ،  
 وذلك برغم معرفتهم وتقديرهم لشخصيات ممتازة مثل لورنزو العظيم ،  
 وسافونارولا ، وقيصر بورجيا ، ويوليوس الثاني ، وليو العاشر . كان  
 الرجال من أمثال رفائيل وميشيل انجلو يفوقون الملوك والأمراء في  
 تقديرهم . وأهم من ذلك أن الفن — وأقول للفن ولا أقول للفنانين —  
 كان يتفوق على التجارة والسياسة والحرب في التقدير ، ودعنى أقرر توأ  
 أن الولاء للأفراد كان مفرطاً ، في حين أن تقدير الفن والفكر كان  
 عادلاً كما كان عظيماً . فكيف لا يمكن لعصر كان من إحدى خصائصه  
 المبالغة في تقدير الفرد أن يؤله عظماء رجاله ؟ ولم تكن المبالغة في تقدير  
 الشخصية كذلك أمراً لا محل له بين قوم لم ينقض عليهم طویل  
 وقت منذ تخلصهم من ظلم العصور الوسطى ومعرفتهم — في عبارة  
 ليون باتستا البرتي — أن « الناس يستطيعون القيام بأي عمل إن

أرادوا ، . وقد رزحت أوروبا خلال ألف عام ثقيلة تحت عقيدة تحتم على الإنسان أن يعتبر نفسه مخلوقا مردولا بائسا يعجز بطبيعته عن التفكير أو الإحساس أو العمل السليم . كان الإنسان يلقن في غضون ألف عام أن إنسانيته ممقوتة ، وتقرير شخصيته جريمة كبرى . أما الآن فبعد اكتشاف الفن والفكر الإغريقي بغتة فقد أدرك أن الإنسان هو مقياس كل شيء ، وأنه يستطيع — بل ينبغي — أن يفكر وأن يشعر وأن يعمل لنفسه ، وأن عليه أن يخلق لنفسه ، ظروفه ، وأن يتسلط على الطبيعة بابتداع التجارب الواسعة والأخذ بها . فأى عجب إذن إذا كان المرء بعد أن أدرك بغتة أن الإنسان في العالم القديم كان سيد مصيره ، وأن بوسعه أن يكون كذلك في العالم الجديد ، وأن العقل البشرى هو وحده الفيصل فيما هو حق ، وأن إرادة الإنسان تستطيع أن تصنع القوانين والتقاليد كما تستطيع أن تتحلل منها ، وأن تغير ما كان يبدو أنه نظام الكون الذى سبق تقديره — أقول أى عجب إذا كان الإيطاليون لعهد النهضة ، بعد أن أملمهم ما كشفوا من أن الإنسان هو سيد كل شيء ومعيار كل شيء ، يكرمون إلى حد يقرب من التقديس تلك المثل الرائعة من بنى جلدتهم الذين تقع عليهم أعينهم ، وهم يخلقون الجمال ، ويشبتون الجهالة ، وتفيض بهم القوة ، فيغيروا ظروف الحياة نفسها ويزيدون من خصب مشتملاتها .

إن إيطاليا لعهد النهضة — فى إحساسها بالأهمية القصوى للفن والفكر ، وهى أولى النتائج وأصدقها للإحساس بالقيم — تكاد لا تقل فى ذلك عن أثينا شأنا . وسبقى شعارها أبدأ « أن ليس فى هذه الدنيا

ما هو أعظم من حب الفنون ، ومن حب ما يتعلق بالروح ، ومن حب هؤلاء الذين نحبهم . ومع أن الاتجاه العقلي في القرن الثامن عشر لم يختلف عن هذا الاتجاه في أساسه ، إلا أن هذا العصر كان على خلاف مع النهضة أو عصر بركليز في ناحية واحدة هامة . لم يكن القرن الثامن عشر عصر ابتكار إلى درجة كبيرة . وإنما جاء الدافع إلى الخلق قبل ذلك — في القرن السابع عشر . أما الفترة المتأخرة حينما بنفت المدنية أوجها فقد كانت أميل في اتجاهها إلى ناحية التأمل والتدبر . وهنا دليل آخر على أن الصفة الأساسية للمجتمع المتمدن مدنية رفيعة ليست في القدرة على الابتكار ، وإنما هي حسن التقدير . فالشعوب الهمجية تبتكر في عنف شديد . ولقد كان القرن الثامن عشر يدرك أهمية الفن . وكان ذوقه نقياً ، وإن يكن محدوداً . وكان يستطيع دقة التمييز في الفنون الصغرى والفنون المنزلية . والأغنياء يقبلون على أداء ما يكلفه الجمال لا بالمال فحسب ولكن بالوقت وتحمل المشقات كذلك . وكان الموسرون من الرجال والنساء في القرن الثامن عشر يهذبون أذواقهم . أما الفقراء — كما سوف أبين فيما بعد — فيسهمون لإيجابا في بناء صرح المدنية بما يؤدون من عمل ، ويسهمون فيها سلباً بمقدار ما تتلون آدابهم وعاداتهم وآراؤهم وعواطفهم بآثارها — وذلك لأن الفقر معناه عدم التحرر وعدم التعلم . ولو أردنا أن نتلص الصفات الإيجابية الأكيدة للبدنية فن العبت أن نبجث عنها عند العبيد الآثنيين أو الفلاحين الفرنسيين . وإلى أى حد يمكن في المستقبل لمجموع السكان أن يتمدحوا موضوع لا بد لي أن أستبقيه للفصل الأخير .



والآن أعالج القرن الثامن عشر ، وهو عصر ومضت فيه النار في الطبقات العليا وأرسلت أشعتها إلى المتقدمين من الطبقة الوسطى وربما ألفت شيئا من دقتها على من دونهم من تلك الطبقة ، ولا أحسب أنها سرت إلى أبعد من ذلك وإن كان بكلل — الذي يمكن أن نعده حكما عدلا لم يتحيز لعصر غير عصره — يرى « أن إحدى الصفات الأساسية للقرن الثامن عشر ، وهي صفة ميزته قبل كل شيء عن كل ما سبقه ، تعطش للمعرفة من جانب تلك الطبقات التي حبست عنها المعرفة حتى ذلك الحين (١) . كانت المعرفة هي أكبر الأمانى : كان القرن الثامن عشر يقدر الفن ، يبد أنه — برغم هذا — توجه بأقصى حماسه نحو ما يتصل بالعقل من أمور . لقد تفوقت أئتنا في الأدب ، وفي الفنون التشكيلية ، والعلوم ، والفلسفة . وكانت حماسها لكل ذلك لا تحدد . أما النهضة التي تفوقت في الفن المنظور وفي الدراسات فقد وجهت أشد إعجابها إليهما . في حين أن قلب القرن الثامن عشر السمع خضع لنفس الغريزة ، وكان أشد ما اهتز له ما حققه العقل المتأمل . فبرزت في الصدارة البحوث الرياضية والفلسفية والعلمية . وفي عصر كان يفخر بحب البشرية تعمق هذا القرن بطبيعة الحال في علوم السياسة والاقتصاد — وهي دراسات ما عتمت في طفولتها الفضة الجذابة — إذ اعتقدوا — وربما لم يكن ذلك على غير أساس من العقل — إن في ثنايا هذه العلوم تكمن المفاتيح التي سوف تفتح أبواب العالم المثالي في يوم من الأيام . إن قصة شهرة دافيد هيوم في باريس تعطينا فكرة عن تهذيب المجتمع ، فإن تعيينه سكرتيرا للسفارة البريطانية كان حدثا دوليا . باريس بأسرها كانت

(١) تاريخ المدينة ، الجزء الأول ، صفحة ٤٣٠ .

عند قدميه ، وربما أغضب ذلك مستر والبول قليلا ، الذى يبدو أنه أحس أن هذا المجتمع الرفيع المدنية ربما لم يقدر جودة النطق والعلاقات الارستقراطية حق قدرها . ولن أؤكد هنا التكريم الذى ناله فلتير وبفون أو ذكرى نيوتن . غير أنى لا أتردد فى أن أذكر قرأتى بأن هؤلاء السيدات والسادة الفرنسيين كانوا بالفعل يقرأون للمؤلفين الذين يعجبون بهم .

ومن هذا الإحساس بالقيم ، ومن التطلع العقلى عند الطبقة الراقية ، نجمت نتيجة حبيت الشعوب المتمدنة دائما فى القرن الثامن عشر . ذلك أن هؤلاء السيدات والسادة المهذبين لم يخضعوا لتهديد أو إملال . لم يكونوا من ذلك النوع الذى يحتمل الأساليب التى يسلكها خفاف العقول أو الثرثارون المتشدقون بالعلم . وأصروا على أن يعبر أساتذتهم عن أنفسهم فى لغة واضحة شائقة — وكانت كاترين العظمى تغرم بتلقيب نفسها بتليذة فلتير . وكان الناس يتوقعون أن ينقاد العلم للجمال ، أو على الأقل للذوق السائد . كان للقرن الثامن عشر مقاييس يود أن تنال حقها من التقدير . ولم تكن هذه المقاييس قاصرة على كتابة النثر . وإنما كانت للقرن الثامن عشر مقاييس فى الحياة . وفى الحق أن مما يميز العصور المتمدنة أنها تتمسك بمقاييس لا ينبغى أن تهبط عن مستواها الأمور . ويرجع ذلك إلى وجود الإحساس بالقيم (١) .

ألم تستمع قط إلى رجل فكه عظيم ، وقد امتلأت معدته بعشاء باهظ التكاليف فى مطعم يسترعى النظر بسوء تأنيثه وشدة إضاءته وقد

---

(١) بحث هذا الموضوع فى مزيد من الاستفاضة فى مجموعة «منذ سيران» فى مقال أسقيح لنفسى أن أقتبس منه .

أتمله التنبذ (الذى اشتهر باسم برييه جويه فى عام ١٩١١) ، وحدث  
تافه طويل لا يقرع سمك إلا بعض كلبا ته وقد أغرقته موسيقى أعلى منه  
فى وضائها ، ألم تستمع إلى مثل هذا الرجل يقول وقد سمح للناول  
المشعث أن يختار له أطول سيجار « هذه تناسبنى يا بنى ، وإنى ليرضىنى  
دائماً أغلى السجائر »؟ إن مثل هذا يحدث حينما يفقد الناس مقاييسهم ، وليس  
فى لندن - كذلك - سوى مطعم أو مطعمين العشاء فىهما متعة غير مشوبة .  
إن الرجل الذى يحمل ميزان المقاييس لا يرضيه دائماً أحسن الموجود .  
إن هذا الرجل يعرف تماماً ما يريد ويصر على الحصول عليه . والظاهر  
أن الرجل الانجليزى الحديث ليست لديه معايير . وكل ما يستطيع عمله  
هو أن يتوجه إلى أحسن المحلات مظهراً ليشتري منه أغلى ما فيه . أما منذ  
خمسین عاماً فقد كانت ربة البيت الرقيقة تفخر بأنها تعرف المكان الصحيح  
لسكل شىء . فى شارع خلقى رجل صغير يستورد صنف البن الذى تجبه  
وهناك آخر يحنط الشاى خلطاً هو أكمل ما يكون ، وثالث يعرف سر  
لحم الخنزير المدخن . كل ذلك اختفى اليوم . ولا تفعل ربة البيت سوى  
أن تذهب إلى المخازن . ولم يعد لغز « مارش هير » لغزاً غامضاً . ولم تعد  
نصر على الحصول على ما نحب ، وإنما نحن نحب ما نحصل عليه . وربما كان من  
توافه الأمور أنك قد تتناول عشاءك فى أحد المطاعم الستة الأنيقة فى لندن ،  
وأن تدفع جنبيين ثمناً لوجبتك ، وأنت تعلم عن يقين أن وكيلا من وكلاء  
التجار المتجولين الفرنسيين نشأ على المعايير القديمة لما ألف فى الريف ، ربما  
أرسل فى طلب الطاهى ووجه إليه قارص الكلام . ولكن فكر فى الدوافع .  
لإنها لا ترجع إلى أن أغلى المطاعم الانجليزية تقصر فى استخدام أعلى  
الطهاة الفرنسيين أجوراً . إنهم يستخدمونهم ولكنهم سرعان ما يهبطون

عن المستوى لأن المطعم لا يتردد عليه أحد ممن يرفعهم دائماً إلى هذا المستوى . إن الزبائن ليست لهم معايير . تقول هذا أمر تافه ، وأقول ذلك ما يؤدي إلى الهمجية .

لإن حينما أقول إن المدنية تحتم قيام المقاييس لا أقع في ذلك الخطأ القديم الذي يفرض أن المدنية شيء يفرض على الفرد التشابه البغيض . كان النقاد والعلماء لعهد فكتوريا من الخشونة وانعدام الحس بحيث لا يقدرون راسين وبوسان ، ويعلمون انحطاط شأن هذين الفنانين عن تمييزهم وتيرنر بأنهما من ثمرات المبالغة في المدنية التي جعلت التعبير الشخصي الحر أمراً مستحيلاً وعارضت معارضة مطلقة في التجريب والتطوير . ويزعم الزاعمون أن العصور ذات المدنية الرفيعة تحتم التشابه المطلق ، فتصبح جافة جامدة ، والواقع أن الفنانين كانوا أحراراً في تجاربهم في العصور المتمدة كما كانوا في غيرها من العصور . وتستطيع أن تجد الأمثلة أنسى شئت ، ففي أثينا فيما يزيد قليلاً عن مائة عام حدث انقلاب من الأسلوب العتيق في النحت إلى الأسلوب الفديائي ، ومن الفديائي إلى البراكسيتيلي . وفي الأدب من إيسكس إلى سوفوكليس ، ومن سوفوكليس إلى الكوميديا الجديدة . وفي إيطاليا شهد مطلع القرن الخامس عشر ثورة في التصوير — نهاية حركة جيرتو واكتشافات ماساشيو وجاستانيو وماتتيا ، في حين أن رفائيل وميشيل انجلو كانا قد أدخلتا تعديلاً على تقاليد الفن وأساساً مدرسة جديدة قبل نهج روما ، وكل طالب للأدب الفرنسي يعلم أن المعجبين بكورني قدأدهشهم ، بل أغضبهم ، أسلوب راسين ، كما يعلم أن تطور النشر من القرن السابع عشر إلى

القرن الثامن عشر أمر لا يرضى المحاضر ( لغير طلاب الجامعة ) الذي يستعرض تاريخ الأدب أن يجمله ضحايا الطلاب . كما أن ظهور مدرسة عاطفية طبيعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر موضوع يستفيض فيه عادة — بدافع من الغرور الوطني فيما أظن — أولئك النقاد أنفسهم الذين يعيبون على ذلك العصر ما فيه من تشابه ثابت . أنهم ربما لم يكونوا على علم أن جلجك ( Gluck ) وأتباعه كانوا في نفس الوقت يطورون التقاليد الموسيقية تطورا بالغا مثلما فعل فاجنر بعد ذلك بمائة عام .

إن العصور المتمددة تميل من غير شك إلى احترام التقاليد في الفن وفي غيره من الأمور . وهناك ما ينذر بالخطر من أن يتدهور احترام التقاليد إلى عبادة العرف ، وهو لا يعدو أن يكون الحيل والعادات لماض قريب توحدت لتعميم استعمالها — مخالفة في ذلك التقاليد ، وهي التعبير عن التجارب المتجمعة . وهناك من ناحية أخرى في العصور المتمددة جمهور حساس مثقف ، يعطف على الفنان ، ويميل إلى أن يهيب له أن يعرف على خير وجه خير الأمور بالنسبة إليه . ومثل هذا الجمهور لا يمتدح في سهولة فيظن خطأ أن الصيغة المقبولة هي التقليد العظيم . إن ماساشيو وأتباعه ، وكذلك مدرسة الكتاب الثائرين في مطلع القرن الثامن عشر ، والرومانتيكيين الأوائل في أخريات هذا القرن ، إن هؤلاء لم يضطروا إلى الاشتباك في معارك حامية كالتى نشبت حول أسماء هوجو وفاجنر وروزتي وما لرمي وسيزان . ذلك لأن الجمهور في العصور المتمددة يتفوق في حسه كثيرا عن الجمهور في القرن التاسع عشر ، لأن الظروف كانت أشد موثاة وأقل ضيقا ، وقلما كان الفنان يندفع في احتجاج

على الضجيج أو مضيق الوقت والجهد . أن الفنان الحق لا يكون بطبعه محتجا ، ولا يلعب هذا الدور إلا بضغط من حقد معاصريه . والاحتجاج آفة الفن ، لأن من يشرع فيه يتعرض لخطر الوقوع في الهاوية . المدنية تميل إلى أن تجعل الاحتجاج أمراً لا ضرورة منه .

والتشابه كما هو في العصور ذات المدنية الرفيعة ربما كانت له مثالبه التي لا بد لي أن أتعرض لها بعد قليل ، ولكنه ليس تهلكة للفن . وهو من ناحية — ولا ريب — نتيجة لرأى عام متطور له خطره ولا يقبل أن يستخف به . وهو ينتج — إلى حد كبير — من أن الفنانين بعد ما وجدوا أنفسهم في عالم متزن قد تخلصوا من ضرورة القيام باحتجاجات يتظاهرون بها — وبين الفنان والجمهور في المجتمع ذى الحضارة الرفيعة مجال مشترك لا يجد الفنان لديه مبرراً لأن يرتاب في حياته أو لأن يحقره لاحتمال عقمه . بل على العكس من ذلك نراه يفترض العطف وحسن الإدراك . ولأن الجمهور المتمدن أقل من غيره احتمالاً لأن يحسب بقايا حركة تحضر تقليداً من التقاليد ، نراه لا يحس بالخوف الشديد الذي لا يحتمل من أن يغفل العرف يديه . ففي العصر ذى الحضارة الرفيعة لا يعادى الفنان التقاليد ولا يعدم الثقة فيها ، وإنما يتناول منها في حرية كل ما يستطيع أن تقدمه . ومن أسباب التشابه الظاهرة في العصور ذات المدنية الرفيعة خصيصة أخرى من خصائص المجتمع ذى الحضارة الرفيعة ، وهي خصيصة تنشأ من ناحية عن الإحساس بالقيم — ومن ناحية أخرى ، تنشأ عن التعقل ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً

ياصرار المدنية على المعايير: وتلك هي أن المجتمعات ذات المدنية الرفيعة  
مجتمعات مهذبة .

إن آداب السلوك نعمة لا يغض من قيمتها قوم عندهم إحساس  
بالقيم . غير أن آداب السلوك تترتب كذلك على التعقل ، وهو الصفة  
الأولية الأخرى من صفات المدنية ، لأن التعقل يؤدي إلى تفتح الذهن ،  
وإلى الرغبة في الاستماع إلى ما يقوله الآخرون ، وإلى النفور من الوسائل  
الدكتاتورية . وحيث أني الآن أحاول أن أصف العوامل التي تنفرع  
من الإحساس بالقيم فلن أعتدى على الموضوع الذي أعزم أن أتعرض  
له في فصل آخر . وإن شئتم تركنا التعقل وما يتولد عنه وشأنه . ومن  
الواضح أن الإحساس بالقيم الذي يسعى لأن يستخلص من الحياة خير  
ما تعطيه — هذا وحده يكفل أدب المعاشرة أو التهذيب — والخير  
هنا ما لا يتخلى عنه الفرد لما هو دونه<sup>(١)</sup> . وكذلك تجد أن من يملك  
الإحساس بالقيم لا يقصر في تقدير التفوق الجوهري المجرد الذي تتميز  
به المجاملة في السلوك على الوقاحة السليطة . أما كيف يؤثر هذا الذوق  
المتمدن الذي يؤثر دماثة الأخلاق في الفنانين الناشئين المستكرين  
المبتدعين فتوقوف إلى حدما على أمرجتهم . غير أن هنالك دائما طريقتين

---

(١) يشير بركايز في رثائه بصفة خاصة إلى رقى آداب السلوك عند الاثنيين .  
يقول نيو سيديد في ص ٣٧ من الجزء الثاني « الأدب في الحياة الخاصة هو ما يضمن  
لنا الانسجام » .

ولكى نعرف الأهمية التي كانت تعلقها النهضة على آداب السلوك انظر كتاب  
كورتيجيانو باسم Cortigiano Passim ( أى رجل البلاط ) واذكر أن هذا هو  
الكتاب الذي تداولته الطبقات المتعلمة .

لإحداث أى تغيير ، إحداهما فطنة لبقة ، والأخرى سافلة صخّابة .  
والمتمدنون يؤثرون الطريقة الأولى .

ولم يبلغ بي السخف بطبيعة الحال أن أزعّم أن الفنانين فى العصور  
المتمدنة يتفوقون على الفنانين فى العصور غير المتمدنة . فالفن قد يزدهر  
فى هذه العصور أو تلك . وقد يستفيد من هذه أو من تلك . وإنا لنشعر  
أن بعض الفنانين متقدمون فى المدنية ، مثل فدياس وسوفوكليس ،  
وأريستوفان ، ورفائيل ، وراسين ، وموليير ، وبوسان ، وملتن ، ورن ،  
وجين أوستن ، وموزار ، وإنا لنشعر أن غير هؤلاء لم يضربوا فى  
المدنية بسهم وافر ، مثل مشيّدى الكاتدرائيات الغوطية ، وفيلون ،  
وشيكسبير ، ورمبرانت ، وبليك ، ووردزورث ، وأميلي بروتني ،  
وهويتان ، وتيرنر ، وفاجر ، وصانعى الأوتان فى الكنفغو . إننا  
لا نستطيع أن نقول إن إحدى المجموعتين أرقى من الأخرى . والواقع  
أن الفرق بينهما ليس أساسيا . إنه فرق فى الوسائل وليس فى الغايات .  
إن غاية الفن هى بعينها فى كل مكان وزمان — هى التعبير الكامل عن  
حالة معينة من الإحساس الجمالى ، أو لعل أستطيع أن أقول إنها خلق  
صورة لها دلالتها . ولا يختلف الفنانون المتمدنون عن الفنانين غير  
المتمدنين إلا فى الوسيلة التى يحققون بها هذه الغاية ، أو فى موقفهم من  
المشكلة أو معالجتهم لها . الفن أحد أمرين فى هذه الدنيا لها صفة ذاتية  
جدا . ومن ثم فإنه لسكى تقدر خصائص الفن المتحضر قدرا كاملا ، يجب  
أن ننظر فى خصائص الفرد المتحضر . وحيث أنا سنفردهذا الفرد فصلا  
بأسره بعد قليل أرى أن نسمح للفنان المتحضر بانتظار دوره . ويكفينى



الآن أن أذكر أنه من الحماقة أن نفترض أن الفنانين المتحضرين أرقى أو أخط من الفنانين غير المتحضرين . وليس أحكم من ذلك أن تقرر أن المدنية تلائم أو لا تلائم نهوض الفنون . ومن المجتمعات الثلاثة المثالية اخترناها ، اثنان مبدعان لإبداعا استثنائيا ، وثالث مبدع لإبداعا عاديا . المدنية لا تشجع ولا تثبط ، ولكن ، لما كانت الأمزجة المختلفة تنتعش في الأجواء المختلفة ، فيبدو أن المدنية — على الأرجح — إما مشجعة أو مشبطة لبعض الفنانين المعينين . كم من أمثال ملتن ورفائيل وموزار ، ممن لم يرتفع لهم صوت ، ولم يجر على اللسان لهم ذكر ، ما كانوا ليفقدوا الأمل أو يهملون في جو الفزع والهمجية الذى ساد العصور المظلمة ؟ وهل لم يكن من الجائز أن يسحق القرن الثامن عشر — الذى قص جناحى بليك — الأمل المرفرف لعدد من العباقرة ذوى العقول الغوطية ، وأن يسخر من فنان مثل فاجنر أو وبستر ولا يقدر البتة فكرة تنادى بالتعبير الذاتى ؟

إن النظرية الشائعة التى تقول بأن المدنيات الرفيعة تفرض على الأفراد بالضرورة التشابه والمساواة ، هذه النظرية هى ما تقول به عادة النظريات الشائعة : وانظر إلى عهد النهضة تجد الدليل ، ومن الواضح — برغم هذا — أن الشخص الشاذ يكون فى الوسط الذى يرتقى فيه معيار الثقافة والذكاء أقل ميلا وأبعد احتمالا لتمييز نفسه عن الجوع منه فى الوسط الذى ينحط فيه هذا المعيار . ومن ثم فربما ظهر الميل إلى التشابه . وهذا خطر من أخطار المدنية . غير أن مجرد نظرة إلى التاريخ تكفى لأن تبين لنا أن هذا الميل إلى التشابه ليس خصيصة من خصائص المدنية .

ولكن الخطر قائم على كل حال . وحيث أنى أحب الإنصاف ، وحيث أنى قد أكدت منذ البداية أن المدنية ليست هى المثل الأعلى ، فإنى أستسيحكم العذر فى أن أخصص بضع صفحات أحاول فيها أن أبين بالمثال مبلغ هذا الخطر على وجه الدقة . ولنبحث فى حالة فرنسا وانجلترا .

إن الرجل الانجليزى إذا كان على جانب من الاستعلاء يجب أن يقف على قدميه ، إذ أنه لا يجد حوله ما يستطيع أن يتفضل بالاستناد إليه (١) . لا بد له أن يشق طريقه الخاص ، لأن الطرق العامة جميعا تسير خلال أرض كثيفة لا تطاق وتؤدى إلى مناطق مقفرة من الحياة العقلية وإلى قرى الضواحي . إن حياة الرجل الانجليزى أو المرأة الانجليزية من ذوى المواهب تأكيد مستمر متواصل لشخصيته أو شخصيتها فى وجه ظروف لا تعطف عليه بل تعاديه معاداة إيجابية . الطفل الانجليزى الذى يولد بشعور رقيق ، أو إحساس خاص بالفنون ، أو ذكاء خارق مطلق ، يجد نفسه منذ البداية فى خصومة مع العالم الذى ينبغى له أن يعيش فيه . فهو لا يفكر فى قبول تلك المواضع القومية التى تعبر عن أحقر ما فى مجتمع كرهه . وهو منذ البداية لا يتوجه أيام الآحاد إلى الكنائس أو المعابد . وربما اختلف الأمر لو كان التوجه إلى القديس الكاثوليكي . كما أن المواضع القومية التى تحدد الحياة العائلية والتي تكاد أن تجعل من المستحيل قيام علاقة وثيقة أو دقيقة ،

---

(١) إنى أكرر هنا ثانية ما ذكرت من قبل فى مقال لى عن « النقد » .

هذه المواضع لا تثير فيه سوى التشوق إلى الفرار . إنه ربما ينشأ في جو تزدري فيه كل فكرة لا تؤدي إلى غاية عملية ، أو لا تظفر على أحسن تقدير بأكثر من اطراء متكلف . وذلك حينما يشتهر عظيم من العظماء في أوروبا بأسرها برغم المعارضة الشديدة التي يلاقها ، فيكافأ بحق بلقب من الألقاب أو بعمود من أعمدة النعى في صحيفة «التيمس» . أما الفنانون فما لم ينججوا نجاحاً تجارياً أو يظفروا باعتراف معرض عام من معارض الصور ، فن المؤكد أن يصبخوا سخرية أسراتهم . وهكذا يثار دائماً كل ما لديه من إحساس رقيق ، فيحيا حياة شاذة مستوحشة خجلة ، و «جون بول» تحت أنفه و «پنش» في زاوية غرقته ، حتى يلتحق بمدرسة خاصة ، وعندئذ إما أن تحطم روحه الألعاب الإيجابية وتقايد أرنولد أو أن تجعل منه نائراً مدى الحياة .

إن أى شاب انجليزي موهوب جداً ، صلب الرأى في معارضته العنيفة لأكثر ما يحيط به ، يحتمل أن يزداد تنبهه إلى نفسه وإلى عزلته . في حين أن زميله الفرنسي يمحو شذوذه برفق عن طريق اتصال ميسر ، وهو يزداد إحساساً يوماً بعد يوم بتناسكه مع شركائه في سر عجيب جليل . إن فرنسا — في الواقع — ما زالت لها مدينة . أما الفتى الانجليزي فهو يزداد إحساساً بفرديته . يزداد شذوذاً يوماً بعد يوم ، كما يزداد حباً في المغامرة ، ويزداد شخصيته وضوحاً إنه يقصم كل روابط العرف فييسر وسهولة ، ويتعلم أن يعتمد على نفسه اعتماداً كلياً ، فلا يثق إلا في تقديره الخاص لما هو خير وما هو حق أو جميل . هذا التقدير الشخصي هو كل ما يتعقبه . وفي غضون تعقبه لا يلتقي بعقبة من العرف يحتاج لحظة واحدة إلى التردد

في هدمها . المدنية الانجليزية ، أو ما يسمى بالمدنية الانجليزية ، متكلفة  
مناقمة ، أبعد ما تكون عن التهذيب ، وهي في أعماقها وحشية ، حتى  
إن كل انجليزي من ذوى المواهب يصبح حتما من الخارجين على العرف  
والقانون . إنه ينمو برفض ما يحيط به ، وترعرع شخصيته ، لا يراعى  
عرفاً ولا يتمسك به ، ولا يعوقه كثيراً — وهذه نقطة هامة أيضا —  
عسف الحكومة وتعقبها له . لأن الرجل الانجليزي — حتى بداية  
الحرب على الأقل — الذى كان يجرؤ على تحدى العرف كان أقل من  
الفرنسى خشية من القوانين . من أجل هذا كله ، كانت إنجلترا بلدأ  
لا يسر العيش فيه رجلا لديه إحساس بالجمال أو بالفسحة ، أو يتذوق  
الملذات الاجتماعية ، أو ذو حس رقيق . ومن ناحية أخرى لدينا تلك  
الفردية العظيمة التى لاتحد ، وذلك الاستقلال ، الذى مكّن لبعض أفراد  
من الانجليز ذوى العبقريات أن يبدعوا أعظم أدب فى التاريخ بأسره ،  
وينشئوا أكثر الأفكار الحديثة ابتكارا وعمقا وجرأة .

وإذا كان التشاجر لا يتم إلا بين اثنين ، فكذلك التبادل لا يتم  
إلا بين اثنين . وحتى إذا كان خير الفرنسيين يرغب فى الاتفاق مع  
المجتمع ، فلا بد أن يكون ذلك لأن المجتمع لديه ما يقدمه لهم مما يستحق  
القبول . وما عند المجتمع الفرنسى للتقديم هو المدنية الفرنسية . العرف  
قيد للفكر والشعور والعمل . ولما كان كذلك ، فهو عدو الابتكار  
والشخصية ، ومن ثم كان مقبلا عند الرجال ذوى المواهب الممتازة فى  
الابتكار أو الشخصية . غير أن العرف الفرنسى يسوده جو بهيج من  
التحرر ، وتقدم فرنسا لأولئك الذين يتقيدون به المشاركة فى أقرب

المدنيات الحديثة إلى الكمال. وهي رشوة مغرية. كما أن جرعة الدواء نفسها مشوبة بالحلاوة بدرجة مقبولة. تقول التقاليد الفرنسية : هكذا تشعر ، وهكذا تفكر ، وهكذا تعمل ، وليس ذلك لأسباب خلقية ، وأبعد من ذلك أن يكون لأسباب نفعية ، إنما هو لأسباب جمالية. ألزم القاعدة ، لا لأنها صواب أو لأنها نافعة ، ولكن لأنها لائقة — بل جميلة . إننا لا نقول لك كن محترماً ، وإنما ندعوك ألا تكون فظعاً غليظاً . إننا نقدم لك بغير مقابل علامة لها قدرها في أنحاء العالم بأسره . كم من أجنبي يود لو يقدم عينيه لقاء أن يقال له أو لها **دكم أنت** — أو أنت — فرنسية ! .

وعند ذكر ما ينجم عن احترام الفرنسيين هذا للقاعدة ، يجب علينا أن نسجل ما له من مزايا وما عليه من مثالب . إن ما فقدته فرنسا في اللون ربحتَه في الخصوبة . وإذا سجلنا قائمة عالمية للشرف للتفوق العقلي والفني وجدنا عدد الأسماء الفرنسية يزيد كثيراً عما يتناسب مع مساحة البلاد ومقدار ثروتها . ثم إن هذا الأساس من التقاليد هو الذي رفع الثقافة الفرنسية إلى مستوى الامتياز . إن فرنسا لم تكن قط بغير معايير . ومن ثم تطلعت بقية القارة الأوربية إلى فرنسا دائماً تلتمس مقياساً للتفكير الدقيق ، والحس الرقيق ، وما يستمتع به الناس كافة من ملذات . ولولا العرف الفرنسي لكان بقاء فرنسا هذا الأمد الطويل مركزاً للبدنية أمراً مشكوكاً فيه . بيد أنه من الحق — من ناحية أخرى — أن الصورة التي يعرضها التاريخ الفرنسي لا يظهر فيها نسبياً إلا القليل من الأعمال الضخمة أو الشخصيات الهائلة . وليس من شك في أن فرنسا كانت شحيحة في هذه الشخصيات . وقد كان أكثر العظماء — وكثير من

الطبقة الثانية — من الكتاب والمفكرين والفنانين الانجليز «شخصيات» عظيمة ، في حين أن الحياة الأدبية والفنية في فرنسا كانت تنسم بإدراك صحيح وتهذيب مشوب بشيء من الملل الخفيف ، ولا يثذ عن ذلك سوى القليل من الشخصيات الضخمة المدهشة . ولست أشك في أن بعض الفرنسيين يولدون بموهبة تبشر بالقدرة على الابتكار العظيم ، ولكنهم لا ينجحون البتة في أن يحيوا حياتهم أو يعبروا عن أنفسهم تعبيرا كاملا ، لأن التقاليد الفرنسية تستميلهم إلى قبول العرف واتباع القاعدة. وسرعان ما تقفز إلى ألسنة الفرنسيين من ذوى المواهب العقلية والمتفوقين في الثقافة عبارات مثل هذه « ذلك هو العرف » أو « هذا غير مقبول » ، وذلك لأنهم لم يرغبوا قط ، كزملائهم الانجليز ، على أن يفكروا ويشعروا ويشقوا لأنفسهم طريقاً محتملين في سبيل ذلك أن يقضوا حياتهم محبوسين — كالمذنبين من أهل الصين — في صندوق لا يستطيعون فيه أن يرقدوا أو يجلسوا أو يقفوا أو يميلوا أو يرتعوا أو يفعلوا أى شيء آخر سوى أن يتمرغوا ، ولذا فإنى أقرب بأن الموهوبين من الشبان الفرنسيين يقبلون العرف وقواعد الحياة ، لأن هذا العرف وتلك القواعد ليست — في فرنسا — مخيفة أو فظيمة بدرجة كبرى ، وهى ليست كذلك — فى يقينى — لأنها بقايا تقاليد متمدنة ، أما ما لست أقره فهو أن يكون ذلك من عيوب المدنية الكبرى .

وإذا انتقلنا من فرنسا الحديثة وتدبرنا عصر اليونان العظيم وجدنا أنه لا يقل فى خصوبته عن انجلترا فى القرن السابع عشر فى الشخصيات الحية المبتكرة . وكذلك لم تكن إيطاليا لعهد النهضة مثلاً واضحاً لتباعد

القواعد الختية والعقيلة . وإذا كانت فرنسا - التي كانت خلال  
الثلاثمائة سنة الأخيرة - أرقى أقطار أوروبا مدنية - تبهرنا بالوفرة  
في العقول الممتازة وانتشار الثقافة أكثر مما تبهرنا بالعقول النابتة  
والشخصيات الباهرة ، فربما كان مرد ذلك إلى مزاج الجنس وإلى غير  
ذلك من الأسباب . ومن المحتمل ألا تكون زيادة المدنية في فرنسا سببا  
في تخلفها في هذا الاتجاه أقوى من أن نقص المدنية في إنجلترا كان سببا  
في تفوقها فيه . فالهمجية لا تحث من تلقاء نفسها على ظهور العبقرية  
وقوة الشخصية والاتجاه نحو التعبير الذاتي في اللغة . ولكن إنجلترا  
- حتى ذلك الحين - شجعت صفة من الصفات ربما كانت هي أقوى  
الأسباب في ذلك ، وتلك هي احترام الحياة الخاصة احتراماً يفوق كثيراً  
ما كان يتمتع به الناس في أقطار القارة الأوروبية . إن الرجل الإنجليزي  
الشاذ ، أو النابغ ، أو العبقري ، الذي يقذف به الجو السائد إلى الكهوف  
والأركان المنزوية ، كان في تلك الكهوف والأركان يجد مجالاً للبقاء والتطور  
إلى أي حد يريد . ومن هنا كان أشتهار إنجلترا كدار لاحتضان روح  
الابتكار والشخصيات الفذة ، ومن هنا كان حقها في أن تكون بعيدة الصيت  
في هذا الاتجاه . ولا تزال إنجلترا تشتهر بذلك ، ولكنها ربما لا تكتسب  
هذه الشهرة بعد هذا ، فهناك حركة تميل إلى الغرض منها . لأن الاعتراف  
بالشذوذ خاصية أرستقراطية . وعلى الإنجليزي أن يتعلموا اتباع القواعد ،  
وعليهم وجوب التطور بحكمة في أخايد مرسومة . وقد باتت  
الطاعة والخضوع والانصياع أكثر قبولا في إنجلترا منذ أن قبلت الخدمة  
الاجبارية مستخفة في ذلك بتقاليدها القديمة . ومن المحتمل - إذا ما بلغ

حاملو تذاكر الاشتراك من ناحية ، وتقابات العمال من ناحية أخرى ،  
أقصى آثارهم السيئة — أن تفقد إنجلترا — خلال بضعة عقود من  
السنين — من فوق هامتها العباقره ، والشخصيات ، وروح الابتكار ،  
فتبدو عارية في همجيتها المعهودة ، وأن تصبح موضع السخرية والازدراء  
في العالم طرا . إنها بذلك تستبعد فرديتها ، دون أن ترتفع في سلم  
المدنية .

إن من يملك الإحساس بالقيم لا يمكن أن يكون من السوقه . إنه  
يقدر الفن والفكر والمعرفة من أجل ذاتها ، لا من أجل احتمال نفعها .  
وحينا أقول من أجل ذاتها أقصد بطبيعة الحال أن تكون وسائل مباشرة  
لحالات عقلية طيبة هي وحدها الغايات الطيبة . فإن أحدا لا يتصور  
اليوم أن قطعة فنية ملقاة في جزيرة غير مأهولة لها قيمة مطلقة ، أو يشك  
في أن قيمتها الحقيقية تنحصر في أنها تستطيع في أية لحظة أن تصبح وسيلة  
لحالة عقلية تتفوق في امتيازها . ولما كانت الأعمال الفنية ووسائل مباشرة  
لمتعة جمالية فهي وسائل مباشرة للخير . والبحث وراء الحقائق العلمية  
والفلسفية وإدراكها ، بحثا وإدراكا مجردا عن الغرض ، هذا البحث  
وذلك الإدراك يمكن اعتبارهما كذلك وسائل مباشرة للخير ، لأنهما  
يثيران حالات عقلية مشابهة تتصف بعمق الشعور . بيد أن قيمة المعرفة  
تختلف عن ذلك . فالمعرفة ليست وسيلة مباشرة للخير ، وعملها بعيد عن  
هذا المحيط . فالمعرفة الدقيقة بتواريخ ملوك إنجلترا وملكاتهن لا تستثير  
النشوة في أحد . المعرفة غذاء له قيمة كامنة لاحد لها ، ويجب أن يتمثلها  
العقل والخيال قبل أن تكون لها قيمة إيجابية . ولن تصبح المعرفة وسيلة



مباشرة لحالات عقلية طيبة إلا بعد تمثلها . إلا أنه بغير هذا الغذاء يميل العقل والخيال كلاهما إلى الضمور والالتواء ، بل يتعرضان لخطر القفط الميت .

ليس في المعرفة عند أصحاب الإحساس بالقيم ما يستحق التقدير إلا مسامتها . وإن يكن من الواضح أن لها كذلك أهمية عملية . المعرفة تمكننا من صنع السيارات وإصلاح السيقان . وإنما يميز الشعوب المتقدمة أولاً أنها قادرة على أن تدرك قيمة المعرفة كوسيلة لبلوغ حالات نفسية رائعة ، وأنها تقدر هذه القيمة ثانياً قدرًا يفوق أية فائدة بعيدة نفعية أخرى . والجمال بطبيعة الحال ليست له البتة قيمة عملية . والصورة الحسنة قد تحث على سلوك نافع ، ولكن الصورة السيئة كذلك — بل وأكثر من ذلك — تؤدي إلى نفس هذه النتيجة . ومن علامات الرجل الهمجي — أو السوقي — أنه لا يملك الإحساس بالقيم ، ولا يستطيع أن يميز بين الغايات والوسائل ، وبين الوسائل المباشرة والوسائل البعيدة ، فهو لذلك يريد أن يعرف ما للفن والتأمل والعلم البحث من فائدة . فإن أجبته أنها وسائل مباشرة — أو تكاد أن تكون كذلك — لحالات وجدانية لها أكبر القيمة وأعرق الغور لأسباب واضحة جلية ، لم تقنعه ولم تبعث في نفسه رضى ، ما لم تقل له أنها المفاتيح التي يفتح بها أبواب الجنة ، وما لم تستطع بطريقة ما أن تقدم له ثمار الفردوس . وكيف تستطيع أن تقدم له هذه الثمار ؟ إن ذلك لا يكون — فيما أحسب — إلا بتمكينه من مشاهدة الفردوس . وأؤكد لكم أنني لا أعرف كيف تستطيع أن تتمكنه من هذه المشاهدة ، بين أنى أتصور أن هذا ما ينبغي

أن تقوم به التربية . إذا استطاع المعلوم بطريقة ما أن يجعلوا البنين والبنات العاديين يدركون هذه الحقيقة البسيطة : وهي أن الدنيا ربما لا تقدم له ( أوها ) شيئاً أفضل من المال اليسير والعمل الكثير ، إلا كلا منهم يستطيع إن أراد أن يحيا حياة مليئة بالملذات المستساغة . إذا استطاع المعلوم أن يجعلوهم يدركون أن المتعة التي يظفر بها المرء وهو وحيد في غرفة متواضعة ، هي غرفة نومه وغرفة جلوسه في آن واحد ، بعقل مثنبه مدرب مزود بالمعرفة ومعه كتاب ، أكبر من متعته بامتلاك اليخوت وجياد السباق ، وأن النشوة التي يحسها من صورة عظيمة أو رباعية من رباعيات موزار أشد من نشوته من الجرعة الأولى من زجاجة الشبانيا ( وأن يصدر ذلك عن ذواقة مخلص ) . إذا استطاع المعلوم هذا ، لحوا — فيما أظن — عقدة المشكلة الإنسانية . أنا لا أستطيع أن أحل هذه العقدة . ولا أستطيع إلا القول بأن الشعب الوحيد الذي يملك مفتاح قصر الملذات هذا هو الشعب الذي يعرف كيف يقدر الفن والفكر لذاتهما والمعرفة كأداة للثقافة .

إن السوقه يعيبون على الإغريق في بحثهم وراء الحقيقة خلوهم من الغرض . لقد دفع الإغريق التأمل الرياضي ودراسة الهندسة إلى حد لا يزال يدهش له أوائلك الذين يقدرون على قياس الأرض المحسوسة . وهم أساتذتنا في التفكير المتأفريقي والخلقي والسياسي . في حين أنهم بلغوا في النظريات الميكانيكية حداً مكنهم من أن يخرجوا بطريقة غير مباشرة نموذجاً للآلة البخارية . ولكنهم لم يكفوا أنفسهم مشقة استغلال هذا الاختراع ، مما أذهل العصور التالية . إنهم لم يصنعوا إطلاقاً قاطرة ،

أو بارودا ، أو حتى دولا بالفلز . إنهم كانوا يبحثون عن الحقيقة لذاتها ، وكوسيلة للثقافة ، لا كوسيلة للسلطان والراحة . وأهم من ذلك أنهم كانوا يزدرون أولئك الذين يبحثون عنها لفائدة مادية أو لكسب شخصي ، لاعتقادهم أن هذه البواعث الدنيئة أحط من كرامة الأحرار ولا تتفق والحياة المهذبة . بل ربما أدهش بعض العلماء أن يعرفوا أن الأثينيين كانوا يحسبون الاشتغال بالتجارة مخلا بالشرف . ومع ذلك فإن أفلاطون وأرسطو كليهما يؤكدان ذلك . كان الاثيني يؤثر أن يحيا حياة غنية على أن يكون غنيا . ومن أجل هذا نعد الأثينيين أرقى الشعوب حضارة في التاريخ .

كان يمر بخاطر الأثينيين أحيانا أن الشيء الجميل يحتاج إلى مبرر آخر غير جماله ، وربما يرجع السبب في ذلك أولا إلى أنه قل من الأفكار ما لم يخطر للعقل الأثيني .

أما الإيطاليون لعهد النهضة فكانوا أقل من الأثينيين تفكيراً في الأمر . بيد أنه ينبغي لنا أن نعترف أن الفرنسيين في أخريات القرن الثامن عشر أساءوا استخدام فن التصوير بغير خجل . فكانت صور جروز مثلا توصف دون حياء لإنهاض الروح المعنوية ، فهى تنبه الحس ، وتثير الشفقة . وترتب على ذلك أنك تجد حتى اليوم بعض ذوى الأذواق ممن لا يستطيع أن يدرك أى مصور بارع كان جروز حقا . إن القرن الثامن عشر — كما قررت آنفا — كان أصح موقفا فيما يتعلق بالحق منه فيما يتعلق بالجمال ، كما كانت النهضة أصح موقفا فيما يعلتق بالجمال منها فيما يتعلق بالحق . ومع هذا فإن تقدير النهضة للدراسة الخالصة التي

لا تهدف إلى غرض كان تقديراً صادقاً ، وقد جعل ذلك براوننج حقيقة  
مسلمة بها في شعره الخيالي الذي قال فيه :

هذا الرجل الوضيح يبحث عن عمل قليل يؤديه  
فيلقاه وينهيه

وهذا الرجل الرفيع ، يتابع أمراً جليلاً  
فيموت قبل إدراكه

هذا الرجل الوضيع يجمع واحداً إلى واحد  
فسرعان ما يبلغ المائة

وهذا الرجل الرفيع يهدف إلى المليون  
فلا يبلغ غايته

هذا عالمه هنا — فهل يحتاج إلى العالم الآخر ؟  
إن هذه الدنيا ترعى شئونه

وذاك يتوجه إلى الله ، ودون أن يساوره قلق  
يبحث عنه حتى يلقاه

وفي نضاله ، تهبط عليه أيدي الموت الخائفة

وتزهقه وهو وراء قواعد النحو يعدو .

ووسط الضجيج ، يبحث في أنواع الكلام

إنه يضع قواعد النحو وهو في نطقه يتعثر

بعد ما يصيبه في نصفه الأسفل الشلل المميت .

ومهما يكن من الأمر فذلك اتجاه لا يسير فيه السوقة . إنها حياة  
ينفقها صاحبها في متابعة « العلم الذى لا ينفج » . إن النحوى يروعنا  
ويثير فينا قليلا من السخرية فى آن واحد . وهو لا يثير سخريةتنا لإهماله  
للقيم العامة ، وإنما يثيرها فينا تركيزه الجنونى على موضوع واحد قيم مع  
إهمال كل موضوع آخر . إن المتخصص لن يكون إنسانا كامل المدنية .  
وربما كان القرن الثامن عشر عصرا غير عملى كعصر النهضة . ولا يزال  
من المألوف بين أبناء الطبقة الدنيا من أصحاب الاتجاهات العقلية أن  
يعتبروا على ذلك العصر الساحر انكبا به كله على علوم تأملية بحت مثل  
الرياضيات والهندسة واهتمامه بها أكثر من اهتمامه بعلوم نافعة كعلم الحياة  
والكيمياء . لقد تمت فى عصر العقل مكتشفات ميكانيكية هامة ، غير  
أن أحسن العقول لم تهتم بها إلا قليلا . والعلوم « النافعة » ، التى حظيت  
باهتمام شديد هى علوم السياسة وعلم الاقتصاد وحدها . ولازلت من  
الطراز القديم الذى يعدها نافعة . وقل من المؤرخين من لا يعزوا إلى  
اشتغال هذا القرن بالمحنويات ما اتصفت به الثورة الفرنسية من الاهتمام  
بالأمور النظرية . وهم يرون أن جيلا نشأ على آراء دارون وسبنسر  
لا يمكن أن يطمئن إلى التحيز العلمى أو إلى الدراسات النظرية البحت .  
ولست أدرى ماذا عسى أن تقول البقية الباقية من الطبقة البروجوازية  
الروسية فى هذا الصدد .

وعن الإحساس بالقيم تنشأ تلك الرغبة وذلك الاعتقاد فى التربية  
الحررة التى لم يخل منها عصر من العصور المتمدنة . إن غاية ما يشتهي كل  
إنسان متمسك أن يظفر بأعز وأوفى حياة ممكنة ، حياة تضم أقصى

ما يمكن من التجارب الحية الرائعة . ولما كانت تلك هي رغبة الإنسان المتمدن فإنه يهدف إلى تطوير نفسه تطورا كاملا وإلى التعبير عن ذاته تعبيرا تاما : ولا يستطيع تحقيق ذلك إلا من تعلم التفكير ، والشعور ، والتمييز ، ومن تعلم أن يترك العقل حرا في معالجة كل موضوع ، وأن يجعل مشاعره تستجيب استجابة صحيحة لكل باعث . والمعرفة مطلوبة فوق هذا ، لأن العقل بغير معرفة يبقى عبدا للهوى والخرافة ، في حين أن المشاعر لا تتغذى عندئذ إلا بطعام وحشي رتيب . إن الرجل المتمدن يتطلب تعليما يكون بقدر الإمكان وسيلة مباشرة لما هو وحده خير كغاية من الغايات . إنه ينمى قواه في التفكير والشعور ، ويتابع الحقيقة ، ويكتسب المعرفة ، لا لأية قيمة عملية قد تنطوي عليها هذه القوى ، ولكن لذاتها ، أو لقدرتها على كشف إمكانيات الحياة الغزيرة المعقدة — وهو في ذلك يتميز تميزا واضحا عن يابه بتوافه الأمور والفائز في المسابقات . أما الرجل من السوق ، الذي ينقصه الإحساس بالقيم ، فهو يتطلب من التربية أن تنير له الطريق إلى الثراء والسلطان ، وهما هدفان ليست لهما قيمة إلا باعتبارهما وسائل بعيدة لذلك الخير النهائي الذي تقودنا إليه مباشرة التربية الحرة . إن التربية الحرة تعلنا الاستمتاع بالحياة ، أما التربية العملية فتعلنا اكتساب الأشياء التي قد تمكننا أو تمكن غيرنا من الاستمتاع بها .

قل من الأمور ما اهتم به الاثنى اهتمامه بتربية ابنه . ولما أصبح أهل ميثيلينا سادة البحار لفترة ما كانوا يعدون أكبر عقوبة يوقعونها على الذين لا يدعون لهم من حلفائهم حرمانهم من المدارس . وإذا

استثنينا البلاغة واستخدام السلاح فإن منهج التعليم في أثينا لم يهدف مباشرة إلى نتائج عملية . وكانت إيطاليا وريثة لليونان . وليس هناك ما هو أدل على قوة النهضة وذوقها من أنها فرضت زهاء أربعائة عام على الطبقات الحاكمة في أوروبا تربية حرة كما كانت في ذلك الحين . ونحن نعرف تمام المعرفة ما كانت تراه خير العقول في إيطاليا في هذه المشكلة الأساسية للتربية . لأن بولدا ساركاستجليوني عالج الموضوع في شمول يدعو إلى الإعجاب ، ولخص حججه وأمثله في قوله إن الآداب هي التي تزين النفس الحقبة الكبرى . وكان هناك بطبيعة الحال في المنهج الجديد كثير من الغبار والرماد . إلا أن التقليد الذي ورثته النهضة عن الإغريق كان على كل حال يقوم على أساس اللغة اليونانية ، وهو في هذا يختلف اختلافاً كلياً عن عبث العصور الوسطى وحذقتها . وبدراسة الأدب والفلسفة الإغريقية أتاحت الفرصة على الأقل لصفوة الشباب في جميع الأمم لاكتساب خير ما يستحق التحصيل . لقد كانت لأوروبا تربية تقليدية حرة في أساسها . وبقي هذا التقليد دون أن يعارضه أحد خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وإن كان المنهج خلال القرن الثامن عشر قد تطور مع تقدم الزمن ، دون أن يسف ، فأدخل عليه تعليم الرياضيات والهندسة بدرجة أعم وأنظم . أما في القرن التاسع عشر فقد هوجمت هذه التربية هجوماً عنيفاً وبدأت تتلاشى بصورة محسوسة . وذلك من أثر الثورة الصناعية ، وظهور الطبقات الوسطى ، وعبادة كسب المال التي كانت تسمى أحياناً « إنجيل العمل » ، والحماسة لمسيرة الزمن . وقضى عليها نهائياً خلال ما يسميه مستر هـ . جـ . ولز « الحوادث

الحزبة في السنوات الأخيرة القلائل (١) « وما يسميه « بالحرب » من  
نشأ على التربية الحرة .

إن الإحساس بالقيم والقدرة على التمييز بين الغايات والوسائل ،  
تكفي لأن يؤمن المرء بالفردية . ومن المؤكد أن صفة أساسية أخرى  
— وهى تنويج العقل — تتولد عنها كذلك الأهمية القصوى للفرد .  
ولكن لما كنا أثناء نظرنا في رغبة الرجل المتمدن في تقدمه الذاتى اقتربنا  
من هذه الخصيصة من خصائص المدنية الرفيعة ، فيجدد بنا أن نعالجها  
كذلك فوراً . إن كل من يدرك أن حالة العقل الطيبة هى الغاية الوحيدة  
الطيبة ، ومن يدرك أن ليس هناك ما يبرر افتراض وجود عقل جماعى ،  
كل من يدرك ذلك سيرفع بطبيعة الحال من شأن الفرد الذى لا يوجد  
الخير المطلق إلا فيه وحده . إن مثل هذا الشخص إذا تجاهل أن كل  
تعميم يجب أن يقاس فى النهاية بتجربة الفرد لا يمكن العفو عنه . لأن  
الحديث عن خير القطيع كأنه شئ يختلف عن خير الأفراد الذين يتألف  
منهم القطيع أمر وحشى سخيف حتى عند السياسيين حينما يخدم ذلك  
أغراضهم . ومن ثم فإن السياسة البريطانيين — برغم استعدادهم للحديث  
عن المصالح البريطانية كأنها تختلف عن مصالح الشعب الذى يسكن فى  
بريطانيا — صعقوا ضعفاً شديداً لمغالاة الصحفيين الألمان الذين قدسوا  
الدولة الألمانية فوق الفرد الألمانى . إن الدولة لا يمكن أن تكون غاية

---

(١) من مقدمة « موجز التاريخ » .



لذاتها . إنها لا تعدو أن تكون وسيلة لتلك الحالات العقلية الطيبة التي هي وحدها غايات طيبة ، ولا تتوفر إلا للأفراد .

وكثيراً ما اضطر الاثينيون إلى التوفيق بين حقوق المواطن وحاجات المدينة . وقد أفلحوا عامة في الاحتفاظ بالجمال حراً للشخصية — وذلك على الأقل حتى بدأت سنوات الحرب تبدل إحساسهم بالقيم — فمكنوا بذلك لظهور تلك المدينة التي ما برحت عجب العالم الغربي ونخاره . وسوف أتحدث طويلاً عن الحرية الاثينية في الفصل المقبل ، عندما أتعرض للكلام عن مولود العقل الأول — التسامح . ويكفيني في الوقت الحاضر أن أطلب إلى القارئ أن يسلم بها . ولن أذكر هنا سوى أن الإغريق كانوا محترعين للفردية بصورة ما . وفي عالم يسوده الرق والخرافات الشرقية ، كانوا أول من هب لإثبات القيمة الشخصية للمواطن المتعلم الذكي . كانوا أول من فكر في أن المرء بحواسه وعواطفه وذهنه هو سيد العالم ، وأن الدنيا قوقعته التي يستطيع أن يفتحها بالذكاء والشجاعة ، وأن عقل الفرد يقابل قوى الطبيعة ، وأن كل إنسان يستطيع أن يشعر وأن يفكر هو ملك حقاً .

وكذلك الإيطاليون لعهد النهضة أحسوا إحساساً قوياً بأهمية الفرد باعتباره المصدر الأساسي لكل ما هو مثير فاخر له دلالة . بل ربما غالوا — كما ذكرت من قبل — في تمجيدهم للشخصية . ولم يكفهم أن يزعموا للفرد تمام الحرية في التعبير والتجربة ، بل أخذوا يغذون الشخصية حتى باتت استكباراً وأنانية . وأسوأ من ذلك أنهم كانوا يظنون هذه الصفات البربرية في أساسها امتيازاً شخصياً . ولم تقع في هذا الخطأ

العصور التي ارتفعت في أوج المدنية عن عصر النهضة مثل عصر پر كلين  
 وقلتير : فإن حسن السلوك ، والمعاشرة ، وغير ذلك من المميزات التي  
 تتقدم كلها أصبحت المجتمعات المتقدمة أكثر تقديرا للذة الحديث ،  
 كل ذلك خفف في أمثال هذه العصور الميل الفردي لتقرير الذات بالاعتداء .  
 ولكن لا جدال في أن هذه العصور الثلاثة كانت ممعنة في الفردية .  
 وربما كان خير ما تظهر فيه فردية الإغريق فلسفتهم ، وخير ما تظهر  
 فيه فردية النهضة إسرائفها . وليست في حاجة - فيما أحسب - للتدليل  
 على أن القرن الثامن عشر كان فردياً بأن أبين كيف أن كل تلك الآراء  
 السياسية التي بلغت أوجها في الثورة الفرنسية كانت تقوم على أساس  
 حقوق الإنسان وأهميته الخاصة باعتباره بشراً .

وربما كان لا بد لي من ذكر كلمة عن شيء يترتب بالضرورة على  
 الفردية - الفردية التي تتولد من العقل ، والفردية التي تصدر عن  
 الإحساس بالقيم - وأعني بذلك « العالمية » . إن المرء الذكي الذي يحس  
 بفرديته لا يحتفل أن يحس بالحب الشديد للدولة ، التي يعدها - حقاً -  
 على أحسن تقدير ضرورة خطيرة . إن الميل نحو العالمية القائمة على أساس  
 الفردية ، وهو حركة تحرر من غريزة القطيع أمر لا بد أن يلازم تقدم  
 المدنية . بل إن هذا الميل يكاد أن يكون بحق معيار الحضارة . إن  
 السلطان المطلق يتحكم في غريزة القطيع الهمجية . وعند الرجل الهمجي  
 فكرة غامضة جدا عن القيم التي تتخطى حدود القبيلة ، وهو لا يعطف  
 على شيء يخرج عن نطاقها . ولكن الرجل المتمدن يعطف على غيره  
 من المتمدنين بغض النظر عن محل ميلادهم أو إلى أي عنصر ينتمون ،

ويشعر بالقلق مع المتوحشين والسوقة — حتى إن كانت له بهم صلة من  
صلات الرحم — يقطنون في كنف المنطقة التي يعيش فيها . ولن أورد  
هنا الأمثلة التي تدل على عالمية القرن الثامن عشر ، غير أني سوف أقدم  
اقتباساً واحداً من رجل بارز حجة في الموضوع لكي أخفف من القلق  
الذي يساور رجلاً جاهلاً قد يضطره عمله إلى مطالعة هذا الكتاب .

« بقي علينا أن نشير إلى إحدى مميزات فلسفة القرن الثامن عشر ،  
وهي تعتمد على جميع المميزات الأخرى أو تتصل بها : إنها عالمية ،  
يتمخض عنها أدب عالمي . . . إن جيوش الملك قد هزمت على يد رجل  
بروسي ، ولكن هذا البروسي كان يتكلم الفرنسية ، وكان بنا أشبه من  
جندي يموت من أجل الملك . . . ومن ثم فإن هازم روزباخ كان  
موالياً للمدنية الفرنسية . فوطنيتنا تتركز في هذا الانتصار الروحي . . .  
ذلك أن تحرره العقلي ( وهو من صفات الفرنسي في القرن الثامن عشر )  
كان يحول دون تمييزه ضد العنصر أو اللون . . . والرجل الذي يستحق  
هذا الاسم هو الذي لا يخضع إلا للعقل : غير أن هذا الرجل لم يكن  
فرنسياً أكثر مما كان ألمانياً : إنه أوروبي ، إنه صيني ، أنه من كل مكان  
يقطنه الإنسان ، وجميع الحقائق التي يحتويها العقل البشري إنما وجدت  
لمثل هذا الرجل العالمي (١) . »

وقد اقتبست من قبل من كتابات المفكرين الإغريق مقتطفات تدل  
على عالمية كاملة التطور وازدراء جرىء لقيود الوطنية : وتذكرون

---

(١) من تاريخ « الأدب الفرنسي » تأليف لانسون .

ماقال ديوموقريطس الأبيديرى من أن « كل بلد تحت منال الرجل الحكيم ،  
وأن الأرض بأسرها موطن الروح الطيبة » وقد سارت النهضة على هذا  
النهج . لأن الإنسان حينما يشرع فى تحرير الفكر تخف عنه وطأة الوطنية .  
ومن ثم فلا عجب أن تجد كوروس أوركيس — وهو اسم نختارة  
اعتباطا — الرجل الانجليزى الذى يهتم بالجمال أو الحق أو المعرفة أشد  
عطفاً على الفرنسى أو الألمانى أو الصينى الذى يشاركه ذوقه منه على ابن  
موطنه الذى يشارك فى ذوقه مجلة « بنش » أو « جون بول » .

غير أن الوطنية هوى يشق أبعاده عن الدولة أو المجتمع . والعالمية  
— وهى النتيجة المنطقية للفردية — بطبيعتها صفة من صفات الفرد  
أكثر منها من صفات الجماعة ، وليس من شك فى أن الاثنيين كانوا  
وطنيين ، إلا أن وطنيتهم تخلو من بعض مساوئها لأنهم كانوا صادقين  
فى حبهم أئينا لما كانت عليه ، لا لفكرة وحشية ساذجة وهى أنها  
مدينتهم . كانوا يحسون هذا الإحساس عن تفكير ، لما فى المدينة من  
صفات معينة محبة ، لا عن غباء لعلماها أو اسمها . وكذلك كان الاثنيين  
عذرهم ، فقد كانت دولتهم محاطة بدول أخرى تهددهم وتعاديهم . وكان  
لا مناص لهم من الإحساس بأنهم يقفون موقف الدفاع . ولما انتصف  
القرن الخامس عشر هبطت هبوطا كبيرا الحماسة الوطنية للندن الإيطالية ،  
واستأجر الطغاة جيوش المرتزقة لأغراضهم السياسية . ولم يسهم  
المواطنون إلا قليلا — أو لم يسهموا قط — فى الحروب التى نشبت  
بين الأسرات . ولو أن الإيطاليين أدركوا أن المدنية الإيطالية فى جملتها  
مهدة — كما كانت — من جانب البرابرة الجرمان أو الأسبان ، ولو أنهم

سأحوا أنفسهم للدفاع، لهبطوا ولا شك بمستوى هديتهم، ولكن لهم في ذلك ما يبرهم كما كان للاثينيين. وتكاد أن تكون جميع حروب القرن الثامن عشر منازعات بين جيوش من الجند المحترفين المدربين على القتال أحسن تدريب. فاشتهر المدنيون المتفوقون في تعليمهم باتقاء العاطفة الوطنية والبغض بينهم.

إن جميع الشعوب المتمدنة عندها إحساس بالقيم. ويختلف هذا الحكم في معناه عن قولنا إنه كان لديهم ناموس الأخلاق. ففي الأخلاق ربما كانوا متشككين كل التشكك، وربما قبلوا نظرية ثابتة مسلما بها، أو نظرية تقوم على الإلهام الشخصي، أو ربما أخذوا بمبدأ النفعية وأقروا أنهم يسعون لتحقيق أكبر قسط من السعادة لأ أكبر عدد من الناس. ولكنك إن تجد شخصا متمدنا من جميع نواحيه يقبل قانونا للأخلاق يهدف إلى توفير أكبر قسط من السعادة لأ كثيرة مجموعة محتارة اعتبارا وبغير تمييز. إن الفرد إذا تقدم في المدنية لا يمكن أن يقبل الوطنية كقاعدة خلقية بغير تردد. أنه يميل بحق إلى الإقلال من التفكير في حدود المجموعة. كما أن اعتبار «بلده» وحدة لها مصالح تتميز عن مصالح بقية العالم فكرة تفقد وضوحها تدريجا في نظره، حتى يشعر في النهاية — بعد ما يدرك أن الفرد وحدة لها مصالحها المتميزة وهذا الكوكب وحدة أخرى — إن حدود جميع الوحدات المعروفة الأخرى وتخومها غامضة اعتبارية. هناك أفراد وهناك الجنس البشري؛ وحينما تتدبر العقول القوية المدربة في حرية وانطلاق تنهار العقيدة في وجود الحواجز المأمونة بين هاتين الحقيقتين الثابتتين. وقد يكون من

أسباب التيسير أحياناً — لأغراض تنظيمية أو بيولوجية مثلاً — أن ننظر إلى الأفراد أعضاء في جماعات : الرجال ، والنساء ، والأطفال ، أصحاب الساق الواحدة أو الرثة الواحدة ، قصار الناس ، وطوالهم ، وأصحاب الشعر الأحمر ، والمتعلبون ، ومدمنو الخمر ، وحمالو السكك الحديدية ، والحلاقون ، والألمان ، والإنجليز والأتراك . إلا أن مثل هذه المجموعات لا يمكن أن تكون لها ما للأفراد من واقع أو من صفة أكيدة أو وجود لا نزاع فيه ، أو ما لهم — في الحقيقة — من فردية . وأهم من ذلك أن الجماعات التي تقوم على أساس الوضع الجغرافي أو الفروض الجنسية تبدو في اعتبار المدنية أقل من غيرها واقعية وأقل منها في الصفات المشتركة وأشد غموضاً .

العالمية سلاح تميل المدنية إلى الدفاع عن نفسها به حينما يشتد تهديد العصية الوطنية ، لأن الوطنية خصم لدود لل المدنية . هي مرض قوض في النهاية صرح أئينا ، وهدد أكثر من مرة سلامة كيان القرن الثامن عشر . وإنا نشك في أن التعصب الديني نفسه قد تولدت عنه من الولايات البربرية ما يفوق هذه الظاهرة الحديثة من مظاهر غريزة القطيع . كم من ملايين البشر انهار أو أفقر من جراء هذه الظاهرة التي هي من بقايا عصر ما قبل الإنسان ؟ كم من إمكانيات الخير العام ما ضُحى به في سبيل هذه الزائدة سريعة التهييج ؟ والعصية الوطنية — برغم هذا — غول لا يمكن الاقتراب منه : ولا يستطيع أحد أن يحدثك على وجه الدقة عن ماهية الأمة . إن وجود ألمانيا وإنجلترا يشبه وجود ناديين من نوادي كرة القدم . تستطيع اللجنة التنفيذية في كل منهما أن تختار أحد عشر لاعبا

يتبارون مع أحد عشر لاعبا آخرين ، يهتف مؤيدوهم من الجانبين ويهللون . ومع ذلك فإن أحد أ لايشك في أن العامل من عمال السكة الحديدية في كرو وبينه وبين زميله في شفيدل قدر مشترك أكبر مما بينه وبين رئيس الغرفة التجارية في كرو الذي قد يكون بالمصادفة رئيس نادى كرة القدم . إن الناس جميعا يستطيعون الانحياز ، وأكثرهم يستطيع أن ينحاز إلى أى جانب . من أجل هذا كان من اليسير الإبقاء على روح التعصب الوطنى حيا . ولكن إذا كان هناك معنى حقيقى فى تقسيم الناس إلى قوميات مختلفة ، لابد بالتأ كيد أن تكون هناك صفات مشتركة يختص بها كل من ينتمى إلى قسم معين . فما هى هذه الصفات ؟ ما هى الصفات الخاصة التى يشترك فيها ملتن مع بوتملى وشلى ومستر لويدي جورج ودارون وسر أولفر لودج ودوق ولنجن ونفستاتلى ، وأسف لندن ، والأسقف باركلى ، وبليك وكولردج وسروليم جوينسن هكس ؟ ولما كنا قد بلغنا هذا ، فما هى الصفات الخاصة التى اشترك فيها معك أو مع الرجل الذى جلب لنا النصر فى الحرب ؟ إنه يتكلم الانجليزية ، وكذلك يتكلمها الرئيس ولسن ، وكذلك يتكلمها القيصر وللم : إن المستر جورج يتكلم لغة ويلز كذلك ، التى لا أتكلمها أنا على الأقل . وهناك لغات أخرى قديمة وحديثة أعتقد أننا تتفوق عليه فيها . ومن ثم فإن اللغة ، بدلا من أن تضم بعضنا إلى بعض ، توحى بتقسيم ربما باعد بيننا . إن ثلاثتنا ولد فى الجزر البريطانية ، وربما ولد فيها كذلك كارل شيدنز ، وماريوس بيرفت ، وديمتري بروتو بوبوف ، وسقراط كسبيرفت ، والحاج بابا ، وعبد اللطيف ، وبوشى لنج ، وأرنست روئشيلد وشيوزا موفى ( وهم

أجانب من جنسيات مختلفة) . فهل أفرض أن التعصب الوطني ، ذلك الشيء الذى من أجله يتحمل المرء كثيرا من المشاق ، ويتجاوز عن كثير من المزايا ، هو نفس الشيء الذى يشترك فيه هؤلاء الرجال معا ومع مستر لويد جورج ومعى ؟ إن كان الأمر كذلك ، استطعت أن تفهم فى يسر لماذا يرى المتمدون باطلا معيننا فى تقسيم الناس إلى أمم ، ومن الصفات التى يتميز بها تميزا واضحا الرجل المتمدن من الرجل الهمجى روح الفكاهة . وليست روح الفكاهة — عند التحليل الدقيق — سوى إحساس بالقيم ارتفع كثيرا فى سلم التقدم . ولست أقصد بروح الفكاهة استنساخه الجون والتهريج . وأستطيع أن أتصور ، مثلا ، ما يقوم به القذا فى سيلان من وضع الأشواك فى حصير الآخرين ، أو اليوروبات فى غرب أفريقيا من تبادل التسلية بالحكايات الماجنة . وإنما أقصد بروح الفكاهة القدرة على إدراك الجانب المضحك من أخذ الأمور مأخذاً جدياً أكثر مما تستحق ، وإعطائها أهمية ليست جديرة بها . ولا يتمتع بهذه القدرة إلا أولئك الذين يستطيعون أن يفرقوا بين الوسائل والغايات . فما يثير الضحك أن تعزوا إلى الوسيلة الأهمية التى تستحقها الغاية . ولما كانت كل أعمال البشر لا تبلغ المثل الأعلى ، فإن جميع المحاولات البشرية تبدو أحيانا فى عين الرجل المتمدن من جميع نواحيه أمورا تثير الضحك ولو إلى حد ضئيل . غير أن الحماسة فى البحث وراء الحب والجمال والحق أمور لا يعلو فيها الضحك ولا يطول إلا من الحق الذين لا يستطيعون أن يدركوا هذه الحماسة أو يقدروا الهدف منها . إن الحالة العقلية التى تسيطر على الحب ، أو على من يبذل أو يتأمل الجمال ، أو



على من يتطلع إلى قم الحق العالية ، حالة طيبة في حد ذاتها ، ومهما تكن الوسيلة التي تستخدم في بلوغها شاقة أو بغضنة ، فإنه يجب ألا نحكم عليها بعدم الملائمة — وإن كنا في الواقع كثيراً ما نفضل ذلك . إن هذه الأمور غايات طيبة ، ومن ثم يشق أخذها مأخذ الجد أكثر مما ينبغي . وإذا ما خرجنا عن هذا النطاق المقدس للغايات وطرقنا باب الوسائل ، وشرعنا ننظر إلى الناس الذين يشغلون أنفسهم بالسياسة والتجارة والكرامة والراحة والسمعة والشرف وما إليها ، فسرعان ما يتبين لنا أنهم يعالجون هذه الوسائل بالجد الصارم الشديد الذي لا يجوز إلا للغايات . إنهم يأخذون هذه الأمور مأخذاً جدياً أكثر مما ينبغي . يدلك على ذلك إحساسك بالقيم ، وترد عليه روحك الفكاكية بومضة من السرور لها لون معين لا يراه إلا المتمدون .

هذا السرور الذي لا يستطيع أن يدركه الرجل الهمجي بما لديه من إحساس بدائي بالقيم ، وعجز عن التمييز بين الوسائل والغايات ، هذا السرور يستمتع به كل رجل تمدن بدرجات مختلفة . إن روح الفكاكية مميز من مميزات الفرد الضالع في المدنية . إلا أنه لأسباب أرجو أن أوضحها حالاً لا يترتب على ذلك أن يعيش أرقى الأفراد مدنية في أرقى العصور مدنية . بل على العكس من ذلك يبدو أن أرقى الأفراد مدنية في أي قرن له نصيب من المدنية يجب أن يكونوا أرقى مدنية من نظرائهم في القرن السابق بشرط أن يكون تراث الماضي دائماً في مناهم وأن تتوفر لهم وسائل الاستمتاع به . فقد كان أكثر الرجال تمدنا في القرن الثالث عشر أخط في المدنية إلى درجة لا تقاس من الآثني أو حتى من

الرومانى المثقف ، وذلك لأن العصور الوسطى كان يشق عليها أن تستمد أى شىء من الماضى أو أن تفتيد كثيراً من القليل الذى تحدر إليها . وحتى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لم يكن الطريق بعد معبداً ، ولا أتصور أن أشد رجال النهضة تهذيباً كان يظهر بمظهر الشخصية التى لها قيمتها فى دائرة أسبسيا Aspasia ولكن إذا كانت النهضة ما برحت تتجه إلى أعلى ، فمن المؤكد — فيما أظن — أنه عندما انتصف القرن الثامن عشر كان هناك من الرجال والنساء من سموا فى المدنية على سا بقيهم . ويرجع السبب أولاً فى ذلك — من غير شك — إلى أنهم تعلموا منهم الكثير . إلا أن الرجال والنساء الضالعين فى المدنية فى القرن الثامن عشر لم يؤثروا برغم هذا فى عصرهم تأثيراً قوياً عميقاً كما فعل المتمدون فى أئتنا . وربما يعود ذلك إلى أنهم كانوا نسبة ضئيلة من السكان . كانت مدنية القرن الثامن عشر أخط درجة من مدينة پر كليز . ولكنى برغم هذا أستطيع أن أقول إنه لم يوجد بين الأئنيين من يبلغ فى مدنيته مبلغ فلتير . وعلى أية حال فإن الرجل الكامل المدنية فى القرن الثامن عشر كان أرهف حساً فى فكاھتة من الأئنيين بدرجته واضحة . لم يبلغ أرسطوفان نفسه مبلغ لافوتتين ( منذ البداية ) فى رقة الحس ، أو مبلغ جرسيه ، أو منتسكيو ، أو مارينفو ، أو فلتير ، أو بومارشيه ، أو — فى هذا الشأن — مبلغ كنجريف ، أو بوب ، أو جولد سمث ، أو ستيرن ، أو جببن ، بل إن أرقى المتمدنين فى العصر الحاضر ربما فاقوا كل من عداهم فى دقة الحس ، من حيث الفكاھة ، أو فى تقديرها على الأقل . وإن كان الأمر كذلك فلست فى حاجة إلى أن أعزز رأيى بأن أذكر أن ظهور عصفور واحد من عصفير اللجنة لاينبيء بقدم الصيف .

وأراني في هذه الفقرات الأخيرة كنت أبحث في الموضوع من نهايته إلى بدايته ، في حين أنه كان ينبغي أن أرجىء معالجته إلى بعد ذلك وأن أعالجه في جو خاص به . إن روح الفكاكة ، والعالمية كذلك ، من صفات الشخص المتمدن أكثر من أن تكون من صفات المجتمع المتمدن . ومع لاني أرمي إلى التدليل على أن المجتمع المتمدن ليس إلا مجتمعاً لوثته حفنة من الأشخاص المتمدنين ، إلا أنني لم أثبت ذلك بعد . وليس غرضي المباشر أن أصف الرجال والنساء المتمدنين ، وإنما غرضي أن أكتشف الصفات التي تشترك فيها وتختص بها تلك المجتمعات الثلاثة التي عدتها نماذج الكمال . ولما كنت الآن قد انتهيت من ذكر هذه الصفات التي تنشأ عن الإحساس بالقيم ، فلا بد لي أن أتجه نحو تلك الصفات التي تغري إلى تنوير العقل .

## مميزاتهم: تتويج العقل

يرى المؤرخون إن خطاب پرکلیز — الذی واسی فیہ الثکلی من مواظنیہ بذکر فضائلہم الی یتمیزون بہا — یتضمن لب المدنیة الاثنیة . غیر أن المؤرخین یخطئون التفکیر أحياناً . إن خطبة پرکلیز أداء جمیل یوحی بجو جمیل . ولم یکن لیستطیع إلقاءها إلا رجل عظیم یخاطب بہا رجالات یعلون کثیراً فوق متوسط الفکر والشعور فی العصر الحدیث . وإنہا لتنبو فی مجلس العموم کما تنبو فی مؤتمر اتحادات العمال . ولکنی لن أتوجه إلی أی خطاب أو إلی أی رجل سیاسی باحثاً عن أمر دقیق کلب المدنیة . أن الخطب السیاسیة قد تكون مظاهر للمدنیة . وكذلك قد تكون القوانین ، والقبعات ، وفنون الطهو ، ولکنہا لن تكون معبراً عن روحہا . وأدنی إلی صواب الرأی أن نکشف عن سر أئیننا خلال ما کتبه أرسطوفان ، ویورپدیز ، وأفلاطون ، وتقالید السفسطائین ، لاخلال خطب پرکلیز ، وایسوقراط ، وفوکیون . وإن کنا نأمل فی العثور علی ذلک الزعفران الذی یخضع علی الثقافة الہلینیة طعمہا ولونہا ، فسجدہ عند الشعراء والفلاسفة والمؤرخین . ولست أقول إنا لانجدہ إلا عند هؤلاء ، بل ولست أقول إنہم كانوا أهم الناشرین لهذا اللون . بل علی

العكس من ذلك أتعشم بعد قليل أن أبين أن ينبوع المدنية يتفجر عن مصادر ومستودعات غير معروفة — من نوع معين — ولو أنها تصب في مسالك معروفة ، وأن أبين أن ناشري الثقافة جماعة من الرجال والنساء أكثرهم لا ينشئ عملاً محسوساً ولا يترك أثراً ملموساً ، وإن كانوا ينشرون الأثر الذي يتبدى في روح العصر . وعلى أية حال فن السخف أن نجعل من السياسى ممثلاً للحركة الروحية أو العقلية . إننا لانحكم على مبدأ النفعية ، وهو من إنتاج تفكير آدم سمث وريكارد وبنتام وملز ، من خطب ههاوس ومستر رويك ، ومن خطب مستر كوربدن ومستر برايت . كما أن ترجو ونكر — برغم عظمتها — لا يعطينا إلا فكرة ناقصة عاجزة عن الحركة « الفلسفية » . إن إحياء العلوم وحرية الفكر في شمالي أوروبا كان شيئاً يختلف كل الاختلاف عن دعاية لوثر الصاخبة واتهائية فردريك السكونى وهنرى الثامن . إن رجال السياسة — في أوقاتهم — يلعبون في الأفق كما يلعب الممثلون وراكبو الخيول ، ثم يتوارون عن أعين الجمهور كما يفعل هؤلاء ، ولا يعرفهم بعدئذ إلا الباحث المنقب المتطلع وحده .

« سخرية في حياتهم ، منسيون بعد مماتهم » .

وإذا صدق الشق الثاني من هذا الاقتباس ، فلا بد أن يصدق الشق الأول : إذ ليس أدعى إلى السخرية من رجل محكوم عليه بهذا النسيان السريع ، يَحْتال اختيال الوزراء ؟ ثم خبرني ، كم صديق لك يستطع أن ينيبك من كان رئيس وزراء إنجلترا في وقت واترلو ، ومن كان وزير الحرب ، ومن كان قائد الأسطول . وكم من أسماء الساسة الأحياء العاملين

في عام ١٨١٥ معروف عند جمهور القراء؟ ربما عرفوا كاتنج ، وكاسلري  
 (وبخاصة لأنه كان موضع سخرية بيرن وشلي) وربما كذلك عرفوا  
 جراى . ولكن هل يعرف أكثر من اثنين من قادة ولنجن غير طالب  
 متخصص في التاريخ الحربى ؟ ومن كان على رأس الأسطول البريطانى  
 حينما اعتلى نابليون متن بلفون . ولكن إذا كان المثقفون والمثقفات  
 من الانجليز لا يعرفون اسم رئيس الوزراء الذى انتصر فى حروب  
 نابليون فيما يظن ، ولا يعرفون أسماء زملائه الوزراء ، ولا أكثر من  
 اثنين من قواده العسكريين ، ولا يعرفون أحداً من قواده البحريين ،  
 فان كل طالب جامعى متوسط يستطيع أن يقول لك إن شلي وبيرون  
 وكيثس وورد زورث وكولردج وسذى ولام وهازلت وسكت ومور  
 ورجرزوجين أوستن كانوا يكتبون فى ذلك الحين . وتفسير ذلك يسير:  
 لأنهم يذكرون هؤلاء لأنه كان لهم — ولا يزال لهم — أثر حقيقى مباشر  
 على عقول الناس ، ولأنهم لا يزالون يخلقون الأفكار والمشاعر الجديدة  
 ويستثيرونها ، وما برحوا يوحون إلينا بوجهات نظر جديدة ، أو  
 يغيرون وجهات قديمة ، بل ولأنهم ما فتئوا يضيفون الآن جديدا إلى  
 مستودع الخير فى هذه الدنيا . أما رجال السياسة فهم — فى أحسن  
 الظروف — لا يقومون إلا باستخدام وسائل الخير التى أنتجها غيرهم  
 وتوزيعها بين البشر . ولكنهم لا يخلقون قط جديدا . وهم لا يُذكرون  
 قبل كل شيء إلا بسبب الحوادث الجليلة المسرحية التى ارتبطت بها  
 أسماءهم ، ولكنهم لم يكونوا باعثها . بل إن هذه الحوادث الجليلة  
 — كما رأينا — لا تنجيهم دائما . إنهم يتمتعون — بوجه عام — إلى تلك

الطبقة الثالثة أو الرابعة التي لا يمكن أن تلعب دورا رئيسيا في تاريخ الجنس البشرى ، وإن تكن ربما لعبت دورا مرموقا . إن رجال السياسة يتكون في الاسطوانة خدوشا وندوبا ، ولكنهم لا يبدعون النغم . إنهم لا يبتكرون ولا يستميطون ولا يعدلون كثيرا من تلك الدوافع المحسوسة المنبعثة عن العقل البشرى والتي يتشكل بها تاريخ الإنسان . ومن الخطأ إذن أن تتوقع منهم أن يكونوا من بين أولئك الذين يبدعون المدنية ، وإن كنا كثيرا ما نجدهم مظاهر لها دلالتها لتلك المدنيات التي هم جزء منها .

ومن أجل هذا فلن أتوجه إلى بركايز ألتس عنده سر المدنية الاثينية ، وإن كان يسرنى أن أعده مثلا لما يمكن أن تنتجه المدنية الاثينية . وفي خطابه جزء واحد أود أن أركز عليه اهتمامى لأن الظاهر أنه يعبر على وجه الدقة عما كان يحسه الاثينيون إزاء أولى وأهم صفة من صفات المدنية التي تنبع من تنوير العقل — وأقصد بها «التسامح» . يقول بركايز : « إن روح الحرية تسود شئوننا العامة كما تسود شئوننا الخاصة . إننا دون أدنى غيرة نتسامح في الاتجاهات الخاصة بجميع ضروبها في حياة كل منا : ولا يعارض أحدنا في أن يسير جاره وفق مزاجه : ولا ينظر أحدنا شزرا ، نظرات تضايق وربما لا تؤذى<sup>(١)</sup> . إن هذا النوع من التسامح ، وهو من أقوى الدلائل على رقى المدنية ، لا يتأتى إلا من الثقة في العقل ، فإن حسن الذوق لا يكفي . إن الإحساس بالقيم قد يؤدي

(١) نيو سيديد — الجزء الثانى ، صفحة ٣٧ .

بظرق ملتوية إلى الإحساس بضرورة الحرية الشخصية . إلا أن الأساس الثابت الوحيد للتسامح هو الإدراك الذهني الواضح لأن العقل وحده هو الذى يحق له أن يحد من الحرية . العقل وحده هو الذى يستطيع أن يقنعنا بتلك الحقائق الأساسية الثلاث التى لن تكون هناك حرية فعالة دون إدراكها . وهى إن ما نعتقد فيه لا يتحتم صدقه . وإن ما نحب لا يتحتم أن يكون خيرا ، وإن كل فرض محتمل . إن إحساسنا بالقيم يجب أن يبين لنا أننا لو حررنا على أى فرد أن يعبر عن نفسه تعبيرا كاملا أفقرنا حياتنا ، ولكن العقل وحده هو الذى يقوى على الحد من تلك الرغبة الجماعية — التى تكمن فى صدر كل منا — فى إرغام الآخرين على أن يكونوا على غرارنا . ينبغى أن يكون العقل هو الحكم الوحيد ، والعقل يسمح لنا بالأنحد من التعبير الذاتى عند الآخرين إلا بمقدار ما يمكن التديل — عقلا — أن مثل هذا التعبير الذاتى يهدم من أسباب الخير أكثر مما يبني .

إن إحساسنا بالقيم يجمنا على أن نشعر بالرغبة فى توفير أكبر قسط ممكن من التعبير الذاتى لكل إنسان ، ومن ثم وجب علينا أن نتسامح لا فيما يرى غيرنا فحسب ، بل كذلك فى طرائق سلوكهم فى الحياة .

إن شعار المدنية عند الاثينيين ، وهو من أروع ما يفخرون به يتمثل فى هذه العبارة :



« لسنا أحرار الفكر في السياسة وحدها . إننا دون أدنى غيرة  
نتساح في الاتجاهات الخاصة بجميع ضروبها في حياة كل منا ، ولا يعارض  
أحدنا في أن يسير جاره وفق مزاجه . ولا ينظر أحدنا شزرا ، نظرات  
تضايق وربما لا تؤذى . »

وإذا قلت لى إن الاثنيين حكموا على سقراط بالموت ما حققت بهذا  
القول هدفا طيبا . فأنا أعلم ذلك من قبل ، ولكن إذا كان عصفور واحد  
من عصافير الجنة لا يخلق جو الصيف ، فإن ثلاثة أيام مظلمة لا تخلق  
الشتاء ، إن الاثنيين — بما كان لديهم من حرية الفكر والنقد ، واتساع  
آفاق العقل ، والتطلع الى المعرفة ، واستساغة التجريب — قدموا مثالا  
حاولت خير العصور المقبلة عبثا أن تحاكيه ، إن خير عقول الغرب تتجه  
دائما نحو أثينا تلتمس الوحي والتشجيع . أثينا وحدها تقدم لهم ما يقرب  
إمكان تحقيق آمالهم في المثل العليا . لأن الشهوة الجامحة للحق والجمال  
نالت شيئا من التحقيق العملي في أثينا وحدها . كان الاثنيون يهتمون  
بغريزتهم بالجمال ويؤمنون بالحق . وقد أعطاهم هذا الإيمان شيئا يفضل  
استساغة الحرية . أعطاهم الاعتقاد في ضرورتها المطلقة . كان عند  
الاثنيين دين للدولة لا تعوقه المذاهب كثيرا ، بل ولم يمتنقه في حماسة  
أصحاب العقول النافذة بعد منتصف القرن الخامس . كان ديننا يبدو أنه  
لم يقف إلا في وجه سقراط — وفي وجه انكساجوراس لفترة ما —  
فقال دونهما وحرية التأمل . كانوا بحاجة إلى تقديس محرم أو محرمين  
قديمين تقديسا رسميا . إلا أن التاموس الأخلاقي الوحيد الذى وضعه  
القانون والرأى العام موضع الاعتبار العظيم هو تاموس الأخلاق العملي .

كان يُطلب إلى المواطن ألا يرتكب أفعالا تنافي المجتمع منافاة شديدة .  
غير أن الإثنيين لم يقصدوا بالأفعال التي تنافي المجتمع أى شيء تفتته  
الأغلبية أو تسيء فهمه . فلم يعارض أحدهم في أن يسير جاره وفق مزاجه .  
لقد حاولوا أن يكونوا متسامحين .

وحينا أقول إن تنويع العقل صفة لازمة من صفات المجتمع الضالع  
في المدنية ، فإنى أرجو ألا تتصوروا أنى أفترض أن كل إثني ينظر إلى  
كل موضوع يمر بحياته نظرة عقلية بحت . لا تتصوروا أن يوليس قيصر  
حينما قال إن البلجيكين جنس شجاع كان يفترض أن كل فرد بلجيكى كان  
جسورا كالأسد . ومن المؤكد أن القرن الثامن عشر فى فرنسا الذى شغف  
بالعقل أكثر مما شغف به القرن الخامس الهليني كان يعتقد أننا بحاجة إلى  
تعديلات يسيرة فى النظم لكي نجعل كل امرئ سعيدا عاقلا . أما نحن  
أبناء القرن العشرين الذين تتمتع بكثير من نواحي الإصلاح والثورات  
الجيدة فلا مفر لنا من أن نكون أقل حماسة . أما الايطاليون لعهد النهضة  
فقد بذلوا قصارى جهدهم لكي يحطموا حواجز عدم التسامح التى كانت  
قائمة فى العصور الوسطى : فكان مقياس نجاحهم هو مقدار ما فى الرد على  
أفعالهم من همجية . ولندكر أن من آراء بروكارت الحكيم رأى له اعتباره  
وهو أنه فيما بين منتصف القرن الخامس عشر والفرع الأسباني - الذى تولدت  
عنه حركة إصلاحية مضادة - كان جميع الإيطاليين المتعلمين يديحون  
حرية النقاش فى الموضوعات التى تشبه خلود الروح . وبطبيعة الحال  
لم تكن جميع العصور الضالعة فى المدنية على درجة واحدة من التسامح

غير أنها كانت جميعا تكافح في سبيل بلوغ الضياء ، وهم يحسون نأ محاولة فرض طرق التفكير والشعور والحياة بالقوة أمر قبيح . لقد أدركوا ، على درجات متفاوتة من الوضوح ، أن العقائد الجامدة والموت سواء . وكانوا يميلون فيما يتعلق بما تبقى لديهم من خرافة أن يحتفظوا به لأنفسهم . لم يحاولوا كثيراً أن يفرضوه بالقوة أو بالتهديد بفرض بالعقوبات الخلقية . كانت النهضة من غير شك — بما لديها من اعتقاد في التنجيم والأدوية الخرافية التي تولد العشق — تؤمن بالخرافة . ولكنها كانت في ذلك أقل من العصور الوسطى بدرجة كبيرة . ومن المواطنين الأثنيين عدد كبير لم يكن يؤمن بالخرافة ، بغض النظر عما كانت عليه الحال مع الرعاع المولعين بالألغاز وأكثرهم من الرقيق . أما القرن الثامن عشر في فرنسا فلم يكن متشككا فحسب ، بل اعترف بالخرافة كما كانت قائمة — واعتبرها العدو اللدود لما يجعل للحياة قيمتها — « إنه عار يجب أن يسحق » .

لأن الخرافة أمر يحول دون الرجل وإحساسه بالواقع ، وتجرمه من تلك الخبرة الغزيرة المثيرة ، وهي إدراك الواقع . إن إداك الحق ورؤية الشيء ذاته ، خبرات توازي الحب والاستمتاع بالجمال . ولكن كيف يتوفر لمن يرقب السموات ذلك الإحساس الذي يتولد عن ظهور كوكب جديد في محيط بصره إذا كانت الخرافة ترغمه على الاعتقاد بأن السماء إناء مقلوب ، والنجوم خصاصات يتطلع خلالها الآلة ، وإنه ليست هناك كواكب ؟ وكما أن العاشق يرى معشوقته دائماً خلال سحب من الخيال فلا يدرك قط تلك المتعة السامية التي تنبأ عن ذلك

الإدراك الكامل عند إنسان آخر، أو عند موجود آخر، له ما للعاشق من واقع، فكذلك من يتدبر الكون خلال منظار الخرافة لا يمكن أن يدرك ذلك الإحساس الذي يقابل إدراك الحقيقة العارية وقبولها في حماسة شديدة. الخرافة تختلس من العاطفة باعثاً من بواعثها الدقيقة. ولا تكفي بذلك بل إنها بفرض حدودها على العقل المنتقل تحرمنا لذة من أدق وأرق ملذاتها. لأن العقل — وإن كان لا يموت — يتبدل ويترهل في الأسر. إن العقل يستطيع أن يمدنا بكل ما يجعل الحديث مسلياً والمجتمع لامعاً — النكتة، والتهكم، والتناقض، وحضور البديهة، والعبث العقلي — على شريطة أن يتحرر العقل. يجب ألا تكون هناك محرمات، أو موضوعات لا يجوز المساس بها، لأنك لن تظفر من العقل الذي يرسف في الأغلال بشيء خير من مقال رنان أو نكتة عملية. يجب أن يتحرر العقل ليتناول كل ما في السموات والأرض، لاجاداً فحسب بل هازلاً كذلك. إنه يستطيع أن يكون مجيداً كالنسر يمتد بصره إلى آفاق بعيدة، ولكنه كذلك كالنسر لو أصابه الكساح تخبط في الظلام. كل ما يكون، وما كان، وما يمكن أن يكون، ألعيب ملائمة بين يديه. ولكن الخرافة تحصر ميدانه الذي يلعب فيه في طاولات محدودة. وفي هذا المجال، الذي تحده التقاليد الجامدة. يعيش بصره ويصبح صديانياً في حركاته. فيقف التأمل المثير عند حد، وتنتهي دقة التفكير العقلي. الخرافة تختلس من العقل مجده وجانباً كبيراً من لوهه. وقد أدرك ذلك القرن الثامن عشر، فأعلن الحرب على الخرافة.

إن المتسامحين الذين لا يؤمنون بالخرافة لا يحتمل أن تقسو قلوبهم

قسوة شديدة . إلا إن كانوا عن طريق الصدفة من يجدون لذة في تعذيب الناس وفي القسوة لذاتها ، وهي صفة لا تفشو بين المتمدنين أكثر مما تفشو بين المتوحشين . ومن المؤكد أنهم يمتقون القسوة التي لا تنفع ، ولأنهم ليرون أن أكثر الأعمال التي تنسم بالقسوة لا تضر ولا تنفع . كان القانون في أئتنا يحرم التعذيب ، كما كان يمجح روح الشعب الأثيني .

وحينما كان هذا الشعب يقوم جماعة بعمل وحشى غير مألوف ، كان يحس إحساساً جماعياً بالتحجل ، ومها يكن من أمر فإن هذا الإذلال كان أندر في وقوعه من أن يعد صفة من صفات المدنية . إن الفردية الصارخة في عهد النهضة أنجبت حشدا من الرجال الممتازين ، وقل منهم من نجا من وصمة تلك الصفة المقرزة التي كان يتميز بها أبناء الطائفة التي ينتمون إليها . لقد تركوا سجلا من أعمال الوحشية الهائجة التي لا تهدف إلى غرض ، سجلا لا يفوت المؤرخ المصنئ أن ينعم النظر فيه ، بيد أن أكثر جرائمهم كانت عملية إلى حد بعيد . ولو ذكرتهم — وقد دعوتكم أن تذكروا — أن هذه الجرائم الشخصية كثيرا ما كانت تقوم مقام الحرب ، لتساءلتم إن كان من حق عصرنا هذا أن يلتقى بالحجر الأول في وجه ساسة النهضة . وقد بلغت الروح الإنسانية عند الفرنسيين في القرن الثامن عشر حدا دعا الجمهور إلى الشعور بالاشتمزاز الشديد حينما اكتشف أن كلاس قد حكم عليه بالإعدام ظلما . وكذلك فلتير لم يمت مئة عامضة في السجن كما كان من الجائز أن يحدث له في القرن العشرين . وفي عصر الإيمان كان لا مناص للناس من أن يرتابوا في إدراك ما كان يثيره من موضوعات ، وكان لا مندوحة لهم عن إحراقه برغم هذا .

لا مفر لعصور الخرافة من أن تكون قاسية . لأن من خرافة العقيدة عندهم دائماً أن الألم وسيلة طيبة . وهو مبدأ يدين به خاصة أولئك الذين ينجلون من الاعتراف بأنهم يعتبرونه غاية طيبة . إن حب التعذيب عند الشواذ في عصور المدنية لا يخرج عن أن يكون بقية من بقايا الهمجية .

إن العقل يميل دائماً إلى فحص تلك الغرائز والذكريات الهمجية التي هي بمثابة مصادر الأهواء ومكان عبادتها . لأن الأهواء تصدر إما عن رد الفعل الجثماني ، كما يصدر بغضى للجن ، أو من المحرمات المنسية التي كان يتمتع عنها آباؤنا المتوحشون . وما زالت من الشباب حتى يومنا هذا في أواسط أفريقيا من يعشن عيشة مريرة من جراء تكرار رؤيتهم للقمر فوق أكتافهم اليسرى . في حين أن غيرهن يتسلل إلى الغابة في فزع دائم إذا فاجأه الابن الثاني لعم إحدى خالاتهن . ومن اليسير على الفتاة أن تفقد شخصيتها في الكونغو كما تفقدنا في مدينة كندراية . أننا ندين بأكثر مما نظن لجذاتنا البعيدات . وقد حدثنا سرأد مندجوس كيف كان اعتقاده بأنه ارتكب إثماً في حق الروح القدس عبثاً ثقيلًا على كاهله في بعض سنى طفولته . كما بين لنا مستر جيمس جويس منذ عهد قريب فقط في تلك الدراسة العجيبة التي شرع فيها ولم يتم نضجها أن العقل الذي ما لبث ملوثاً بالخرافة يمكن أن يتعذب إلى حد الجنون تقريباً عندما يذكر أنه ارتكب ما يرتكبه أكثر الأطفال وفكر فيما يفكرون فيه . وإني أعترف أن تأنيب الضمير ، الذي يشعر به كل إنسان حساس إزاء القسوة العشواء التي صدرت عنهم

والملاذات التي تبادوا فيها ، ليس له من علاج . ولكن ذلك الشعور بالإثم ،  
الذي ما زال يشكو منه كثير من ذوى النيات الطيبة ، والذي يحملون  
كثيرين غيرهم على الشكوى منه ، هذا الشعور — بصفة عامة — لا يعدو  
أن يكون أثرا من آثار الهمجية تمكن معالجته . وعلاجه في حب المعرفة  
الذي يقوى ويشد كلما ارتفع الإنسان في سلم الحضارة .

إن المتوحشين يتطلعون إلى المعرفة ، ولكنه تطلع محصور وفي  
نزوات ، فهناك عدد معين من الحقائق لا يجسرون على تحطيمها في البحث ،  
وهم لا يجسرون على بحثها إلا بأسلوب معين . إنهم لا يطلبون الحق ،  
وإنما يطلبون السلامة . تطلعهم غريزي ، لا عقلي ، ولا تستطيع  
أذهانهم المحشوة بالخوف أن تحولها إلى معرفة . ولكن لما كان أحد  
لا ينكر أن الجهل — كما تدل عليه هذه الكلمة عامة — صفة من صفات  
الهمجية ، فلست في حاجة إلى مزيد من الإيضاح لهذه النقطة أكثر من  
حاجتي إلى التدليل بالأمثلة على التطلع الحى عند أهل أثينا في عهد بركليس ،  
وأهل فلورنسا في القرن الخامس عشر ، والفرنسيين في القرن الثامن  
عشر . ولا بد لي من أن أؤكد نتيجة واحدة من نتائج هذا التطلع عند  
المتمدنين ، وهى أن الشعوب المتمدنة تستطيع أن تناقش أى موضوع  
من الموضوعات ، لا يحرم عليهم واحد منها ما دام لديهم ما يذكرون  
بصدده مما يبعث في النفس متعة أو سرورا . ليست هناك في المجتمعات  
المتمدنة مخاوف عقلية تتوقع من كبار السن صغار العقول أن يغمضوا  
أعينهم عند رؤيتها . وسوف أستفيض بعد حين في حديثي عن « محاوره  
المأدبة » ويكفيني الآن أن أذكر أننا نستطيع — من صورة الحديث

المثالي بعد تناول العشاء التي لا مثيل لها — أن نرى أنه لم تكن هناك موضوعات يحرم الحديث فيها بين أي جماعة من الاثنيين المثقفين . ويعلم وارسود يكامرون — وقد كان خلال قرنين أحب القراءات عند رجال إيطاليا ونسائها في طول البلاد وعرضها — أنه في عصور بترارك وكوسيمودي مديشي ومينخايل انجلو ، لم يكن ما يعرف « بحقائق الحياة الكبرى ، ولا أشد النظم احتراماً أو أكثر الأشخاص تقديساً ، لم يكن ذلك مما لا يصح أن يتعرض للنقد الحى الجرىء . وإذا أردت أن تعرف بأية نظرة حرة كان السيدات والسادة في القرن الثامن عشر ينظرون إلى عالم الحقائق والآراء فإني أوصيك « بأحلام دامبير ، الذى يقدم مؤلفه ديدرو جزءه الثانى — وهو أكثر الأجزاء صراحة — على شكل خواطر يتفوه بها دامبير فى نومه ، وتدونها مدموازيل لسيناس ؛ فى حين أن الجزء الثالث ، وهو أشد الأجزاء إثارة للذعر ، يتألف من حديث خيالى ، ليس من الجلى مستحيلاً — بين مدموازيل لسيناس ومسيو بوردى .

إن أردتم مجتمعاً متمدناً ، فلا بد من أن يتحرر العقل فيعالج كيفما شاء كل ما يمر بخاطره ، ولا بد أن يكون حراً فى اختيار مصطلحاته وعباراته وصوره ، وأن يتعرض لكل أمر بأى أسلوب يريد ، يجب ألا تكون بالبيت غرفة محرمة (غرفة بلوبيرد) . لأنك إن حرمت على العقل أن يرود إحدى حجرات البيت حكمت عليه بالتجول الأعرج فى باقى الحجرات . من أجل هذا كان تكلف الحشمة عدواً خطراً ، وهو أشد خطراً لأن ما يزعمه يشير السخرية . من الجلى أن ما تقبله أو لا تقبله فى



العاطفة أو التعبير أمر من أمور الذوق . فذوقى لا يسيخ تلك العاطفة  
التي تحتويها أكثر الأغاني التي تمس قلوب الناس — مثل أغنية « مع  
السلامة » أو أغنية « سكت القلب » — والتعبير فيها منقطع . ولكنى —  
برغم ذلك — لا أشير بكتبها عنوة من أجل هذا . فإنى أقر بأن ذوقى يختلف  
عن ذوق زملائى ، ولكنى لا يمكن قط أن أفترض أن اشتمزأزى بما يحبون  
يمكن أن ينهض سببا لحرمانهم من ملذاتهم ، فعندى من العقل ما يحمنى  
على التسامح ، ولا أود أن أرى القانون يعاقب على انحطاط الذوق .  
فى عهد الملكة فكتوريا كان ذوق الطبقات الوسطى يتقرز بما كان يبدو  
ممتعا ومسليا وجميلا لأكثر كبار الشعراء والفنانين والمفكرين والنقاد  
فى العصور الأخرى . وربما ظننت أن آراء أمثال هؤلاء القوم فيما أجمع  
عليه الرأى أنه يتعلق بالذوق لها شىء من الوزن ، وإنها تعتبر حتى عند أولئك  
القسس والتجار الصغار الذين اكتشفوا بغتة وبدقة عظيمة ما كان دقيقا  
ومالم يكن . وكل ما أستطيع أن أقول هو أن القسس والتجار كانوا  
أغلظ ذوقا ، ولم يتطرق إليهم أى لون من ألوان الشك فى أن أفلاطون  
وأرستوفان وسافو وكانلّس ولو كسر يشس ودانتى وبوكاشيو ورا بليه  
وشيكسبير وملتن ولافوتتين وفلتير وديدرو وپوپ وسوفت وفيلدنج  
كانوا غلاظا عديمى الحس فى تلك الأمور التي يستطيعون هم أنفسهم أن  
يحكموا فيها حكما صائبا . وصغار القسس والتجار — فوق ذلك —  
يسيطرون على الميدان . ولم يستطيع مؤلف حتى أن يطبع فى انجلترا  
شيئا من مثل ما كان يكتبه أفلاطون أو دانتى أو شيكسبير . إن القانون  
يعترف بانحراف الذوق السليم . إنه يتسامح من غير شك فيما كان يبدو

من قبل سوقيا مبتذلا إلى درجة لا يمكن التسامح فيها — فيما كان يبدو كذلك لأولئك العظماء من الرجال الذين تحتاج مؤلفاتهم اليوم منا إلى تبرير . إن القانون يتسامح فيما كان السادة في عهد فكتوريا يقدرون ، وما زالت جمهرة الناس تحب . إنه يقبل الأدب والفنون التشكيلية والموسيقى ، التي تعرض عرضا حرا في المكتبات والمتاحف وقاعات الموسيقى — وهي إذلال متصل لأي رجل أو امرأة له ذوق سليم . إنه يقبل آراء الصحفيين الشعبيين وعواطف كتاب المسرحية الشعبيين . بل إنه ليقبل ما عندنا من نصب تذكارية عامة ، ويستسيغ تمثال « الممرضة كافل » . وفي عبارة موجزة إنه يتسامح ويرعى نظرة إلى الحياة والفن كان ملتن بنكاته البديثة وشيكسبير بأغانيه التي تدعو إلى الرثاء ، يريانها مجلبة للعار على أحط مخلوق يأخذ بها . دعنا لا نشكو : فإن كل فرد ، حتى سهول كين ومستر إيفور نوفلد ، ينبغي أن يسمح له بالتعبير عن نفسه تعبيرا كاملا بقدر المستطاع . ولكن دعنا نأمل أنه إذا امتزج الذوق السليم بالقوة ، كان هذا المزج الموفق للقوى أرقى مدنية من أن يحكم بالإحراق على « الطيب » و « حديقة الورد » و « نار البيت موقدة » .

إن كل ما نأمل فيه ، وكل ما نصبو إليه في الأمور التي تتعلق بالذوق هو التسامح المطلق . دعنا إذن لا نشكو إيثار لورد تشمبرلين<sup>(١)</sup> « شوسن شو » على « ست شخصيات » . وإنما نشكو منه أن يحول دون استمتاعنا بالكتاب الثاني . ومن العجيب — فيما أحسب — أن يسمح لقاضي المحكمة الجزئية أو عضو البلدية ، أو الأسقف — في أمور

(١) كبير الأبناء ، وهو في انجلترا مختص بالرقابة على المسرح .

دقيقة رقيقة كأمر الذوق — أن يفضل في معرفته أروع فنان وأدق ناقد . ولكن من رأي أنه ليس من المرغوب فيه أن يتحكم العقلاء الحساسون في ملذات الأغبياء والسوقة ، كما أنه من المؤسف أن يتحكم الأغبياء والسوقة في ملذات الحساسين والعقلاء . إن أولئك المتحمسين الذين يدعون للإعجاب الذين تتحرك نفوسهم من حين إلى حين فيثيرون في مجلس النواب أسئلة عن الرقابة على الكتب والمسرحيات ، بل ويشكون حينما يدركون أن رجال السياسة لا يأبهون مثقال ذرة لشئون الثقافة — هؤلاء يتجهون في عملهم وجهة خاطئة . يجب عليهم ألا يصروا على تفوقهم الجمالي فيما يحبون ، بل أن يصروا على مبدأ التسامح العام . إنهم يبدو نوعا من الغرور له شره الويل في هذا البلد وفي أمريكا خاصة . وإن أرادوا أن يتحاشوه ، وجب عليهم أن يحاولوا — ولو مرة — أن يتصفوا بالمهارة كما يتصفون بالخير . والواقع إن الحكم في أمر من أمور الذوق يتطلب درجة من الإحساس أعلى من تلك التي يتطلبها الناخب العادى . ولكننا إذا كررنا هذا القول للناخب العادى ما بعثنا فيه قط إحساسا بالسرور . ومن الحق الذى لا مرية فيه أن القوة العقلية والزاهة الضروريتان للحكم على أى أمر من الأمور بما يستحق ، تبلغان حدا يجعل الحكم عامة أبعد من مثاله . بيد أنه يميل إلى الحكم ، ومن أجل هذا تراه يقبل بل يحتم المعايير الآلية . وهذه المعايير ليست — بطبيعة الحال — معايير للذوق . لأن المعايير الآلية لا يمكن أن تنطبق على الذوق ، لأن الذوق أمر يتعلق بالاستجابة والإحساس الذاتى . ولكنها تؤدى غرضا لأولئك الذين لم يعرفوا قط استجابة ذاتية من الدرجة

الأولى ، بل ولم يكونوا حكما على أمر من أمور الذوق . كما أن المعيار الآلى الحسن فى يد رجل ثابت فى غبائه وانعدام حسه له هذه الميزة الكبرى : إنه يمكن أن يطبق على كل أمر من الأمور . إن مطابقة الحال عندئذ لا يكون لها وجود . وما إن يألف المرء الحكم على الخوخ بوزنه يجد من الميسور والممتع له أن يتجه إلى الكتب والصور . إن الرجل العادى يحب المعيار المجهز الذى يكون مستعدا دائما ويمكن تطبيقه على أى أمر من الأمور . وكما أنه لا يستطيع أن يعرف إذا كان العمل الفنى جميلا أو غير جميل ، ولكنه يستطيع أن يدرك الدليل على الحكم بأنه ليس من صنع رفاييل ، فكذلك لا يستطيع أن يعرف إذا كان الشيء مبتذلا أو غير مبتذل — لأن الابتذال أمر من أمور الحس والتعير — ولكنه يستطيع أن يعرف إن كانت بضع كلمات بعينها قد سبق ذكرها . إن لديه معياره ، ويستطيع إن يطبقه صباحا ومساء فى عربة السكة الحديدية سواء كانت من الدرجة الثالثة أو من الدرجة الأولى . إن تكلف الحشمة تذوق آلى كما أن التظاهر بالقوى تدين آلى . وكما أن الشخص المتدين حقاً لا يضطرب للنجاسة ، فكذلك الرجل الذواقة حقاً لا يكثر للفحش أو البذاءة . ولكنه يستطيع أن تقنع الناخبين بهذه الحجج .

إن طريق العقل ليس مهيدا دائماً . إلا أن من يتابعه مخلصا له أن يثق فى الفوز بنوع من أنواع الجزاء الطيب . إنه يتخلص من الخوف من الاستمتاع بما فى الحياة من طيب الأشياء — ذلك الخوف الذى ليس له من العقل سند . ثقوا أن العقل يقضى على تلك الخرافات التى

تشغل أذهان البرابرة ، و تفسد عليهم لذة القنص ، و تكبلهم في قيود من  
النواهي . إن المتعة الخالصة بكل ما تقدمه الحياة لنا ميزة لا يتمتع بها إلا من  
كملت مدنيته . إن كمال المتعة يتطلب من المرء أن يطهر عقيدته من  
المحرّمات . و يجب أن يتخلص من الاحتشام المتكلف ، و الحرافة ،  
و الخجل الكاذب ، و الإحساس بالذنب . و لا يحمله على ذلك إلا العقل  
و حده . ينبغي ألا يستند ناموسه الخلقى إلا على العاد الثاني من عمد  
المدنية — و أعنى به الإحساس بالقيم . إن إحساسه بالقيم يرشده إلى أن  
الملذات التي تهها إياه الحواس ، أو يهبها إياه الحس الممتزج  
بالعاطفة ، أو الحس الممتزج بالتعقل ، ملذات ليست سيئة  
في حد ذاتها . بل إن إحساسه بالقيم ليرشده إلى أن اللذة — في  
حد ذاتها — طيبة دائماً . و على العقل المتمدن ألا يسمح لهذه  
الملذات قط أن تصبح وسيلة إلى الشر و ذلك بوقوفها عقبة في سبيل الخير  
أو يجعلها هذا الخير مستحيلاً . و لنضرب لذلك مثلاً : إن الشخص  
المتمدن حقاً لا يرى الشراب خطأ ، و لكن المتمدين جميعاً يحترقون من  
يدمن على الشراب . فالمدمن سرعان ما يجعل نفسه عاجزاً عن بلوغ  
حالات العقل الطبيعية ، و إنساناً مزعجاً للرأى العام ينبغي نبذه ، و لكن  
حفلة للعشاء يسودها المرح ، أمر من الأمور التي لا يتحاشاها الرجل  
المتمدن ما دام في صحة جيدة . ألم يعتقد أفلاطون المتكشف نفسه أن من  
واجب المواطن أن يسكر في حفل ديونيسيا<sup>(١)</sup> ؟ الرجل المتمدن  
لا يخشى الملذات حينما يسمع أنها تنعت نوعاً سيئاً — فيقال عنها فاسدة ،  
و شريرة ، و مخجلة . إن أمثال هذه الصفات لا تعنى بصفة عامة أكثر

(١) هذا مأخوذ من كتاب « القوانين » لأفلاطون و الفصل كله ضد السكر .

من أن معظم الناس يخشون جوانب الطبيعة الإنسانية التي لم تكتشف بعد أو التي أخطأنا في كشفها . وما دامت اللذة ليست سيئة في حد ذاتها ، فليس هناك ما يدعو إلى الخجل من أى لذة من اللذات . وإن كانت هناك لذات يرى الرجل المتمدن ألا يسترسل فيها ، فليس مرد ذلك إلى أنها سيئة ، وإنما مرده أن نتائجها سيئة . ومن المؤكد أنه من الخجل أن تسترق الشهوة المرء إلى حد ينزل العقل عن عرشه فيفقد المرء القدرة على وزن النتائج . من الخجل أن يسمح المرء لنفسه بالإدمان في الملذات الحسية الساذجة حتى يشل قدرته على الاستمتاع بملذات أدق وملذات أشد إثارة للحواس . الرجل المتمدن يخجل إذا لم يكن مُعداً للاستمتاع بملذات المتمدين ، ويخجل من نقص قدرته على التفكير الصافي والشعور الرقيق . يخجله أن يشبع عاطفة لا يمكن إشباعها دون أن ينتهك إحساسه بالقيم ودون أن ينزل عقله عن عرشه . ولا يخجله شيء غير هذا . إن المتوحشين يسمونه رجلا بغير حياء .

ومنذ أن أصبحت دراسة اليونانية جزءا من تثقيف الرجل المهذب ، أصبح مما يبعث على الدهشة الآلية دائما عند أكثر من يؤجرون لتعليم اليونانية أنه لا يوجد شعب من الشعوب أكثر جرأة على الاستمتاع بالحياة من الشعب الأثيني . لا شك أنهم كانوا يعرفون ما هو الخجل ، لأنهم مخترعوه . اخترعوه لأن الحس عندهم كان مرهفا إلى درجة لم يسبق لها مثيل . ولكن الأثينيين لم يخجلوا من ملذاتهم ، واسترسلوا فيها كذلك متحررين إلى حد كبير . إنما كانوا يخجلون من فقدان كل سيطرة على النفس ، ومن تحولهم إلى حيوانات أو من وضع أنفسهم موضع السخرية . ويبدو أن وخز الضمير كان يطاردهم في أعمال القسوة .

والعنف . ولكن ما كان أبعدهم عن ازدياد الملذات التي كانت الفلسفة اليونانية تعدها جزءا لا يتجزأ عن الحياة الطيبة . غير أن الأثينيين وضعوا « العقل » — فوق الملذات جميعا بل فوق كل شيء آخر — عاملا من عوامل الاعتدال والانسجام . ولا أحسب معلما من المعلمين يقصر في نقل ذلك إلى تلاميذه حينما يشعر — وهو لا بد أن يشعر أحيانا — بشدة الصدام بين الأخلاق اليونانية والأخلاق اليهودية . ومن المؤسف أن الإيطاليين لعهد النهضة ، الذين استعاروا الكثير من أثينا ، لم يستطيعوا أن يستعيروا منها قدرا أكبر من هذا « التعقل الحلو » . ومن المؤسف أنهم أسقطوا هبة الاعتدال بشكل ما من بين مواهبهم الرفيعة . ومن المؤسف أنهم لم يستطيعوا السيطرة على ميلهم إلى المتعة بطريقة أفضل مما فعلوا — أنه أمر مؤسف ، ولكنه لا يمس غرضي المباشر . ومن المؤكد أن الرجال والنساء لعهد النهضة لم يكونوا يخافون الأشياء الطيبة في هذه الحياة . كانوا يستطيعون الاستخفاف بالتنجيم والسحر ، وكانوا يستطيعون إهمال تلك الخرافات التي كانت تحول بينهم وبين لهوهم . كانوا لا يشعرون بالخجل . وإن لم تصدقني فاقرا بنقنيوتو شليني في سيرته التي كتبها بقلبه . قال لاون العاشر « ما دام الله قد أعطانا البابوية فلنستمع بها ، وهو يعنى بالضبط ما يقول . كانت ملذاته ملذات الرجل الضالع في المدنية ( كان يمثل عصره خير تمثيل وعصره يمثل حضارة النهضة ) : وكانت ملذاته تتضمن تقدير الفن والأدب ، والموسيقى والدراسة ، وكان من بينها الغناء . وكذلك النساء والنيذ . إن قداسته لم يخجل من شيء من هذا .

واقترب ذلك القرن الثامن عشر المحبوب مرة أخرى من المثل الأعلى عند الإغريق . إن سحر ذلك العصر الساحر ينبعث حقا — ربما أكثر من أى شيء آخر — من تعقله البالغ الذى يحليه إحساس بالقيم لامثيل له . ولست أشك فى أن هذا المزيج هو الذى يعطينا المدنية الرفيعة . وقد بلغت النهضة الإيطالية مدنية أرقى من أى مستوى كان يمكن أن يطوف ببال العصور الوسطى ، لأن إحساس النهضة الإيطالية الجمالى الغريزي كانت تخفف من حنثته وتعززه عقيدة فى العقل أكثر جدية بدرجة كبيرة من ذلك الإحساس الذى كان مصدر الوعى لفلسفة العصور الوسطى المتحذلقين . وإن ما يعطى النصف الثانى من القرن الثامن عشر حلاوته الخاصة به هو هذا : بينما كان الرجال — والنساء كذلك — يفكرون بعنف وجرأة فى كل أمر من الأمور كما فعل أى قوم غيرهم ممن سبقوهم ، وبينما كانوا لا يكتفون بالتأمل ، بل كانوا مستعدين ليروا آراءهم تتحول فعلا ، بينما كانوا كذلك مكنهم إحساس بالقيم أن يبثوا دعوتهم للنقد ونشاطهم الهدام بتلك الرقة البالغة التى اتسم به الجيل السابق . وخلصت عقيدتهم فى اللذة حتى رأوا أن السياسة نفسها يجب أن تكون مستساغة . وكان يطلب إلى رجال الاقتصاد أن يعرضوا نظرياتهم فى صيغة تقبلها السيدات الرقيقات . ولكن يجب ألا ننسى أن السيدة لى تكون رقيقة كانت ترغب على الاهتمام بالنظريات — إن هؤلاء القوم المحبين إلى النفس الشجعان كانوا يرون أن البحث الجدى فى الأمور الأساسية لم يكن يتعارض وصحة المزاج أو الإنسانية . والقرن الذى أنجب فلتير وجبون وهيوم واثنين من البابوات المتفلسفين ، لم يتصف



بالنزاهة العقلية للتقدميين فحسب ، بل اتصف كذلك بالتسامح مع المتشككين وسلوك السيدات والسادة . إن مثل هذا المزج يبدو دائماً جذاباً ، وبخاصة في عصر بلغ به سوء الحظ أن يعانى من تأثيرين تنقصهم الفطنة كما ينقصهم حسن السلوك ، ومن رجعيين ينقصهم حسن السلوك كما تنقصهم الفطنة .

العقل في القرن الثامن عشر هو الذى كان يرجى منه أن يجعل الأمور مستساغة بتطهير الميول من غلظتها وتوحشها . وكانت اللذة — اللذة المعقولة — هى غاية ما يشتهيها الرجل المخلص . القرن الثامن عشر هو الذى جعل اللذة المحك فى الجدل السياسى ، كما جعله يحكم على النظم والمشروعات الحكومية بمقدار ما تودى إلى ازدياد سعادة الإنسان . القرن الثامن عشر هو الذى اكتشف فى حسرة أن الماضى الخيالى كان يتخبط فى مسير هذا الاتجاه ، وكان بالبؤس المدقع الذى ساد فى القرن الحادى عشر أشد منه تأثيراً بسحر الحرب الصليبية الأولى . وفى القرن الثامن عشر — للمرة الأولى منذ نهاية العالم القديم — تطورت وشرحت شرحاً وافياً فلسفة اللذة فى مجلدات معمّنة فى سلامة التفكير ، إن لم تكن معمّنة فى البحث والتقصى . فلسفة يمكنك أن تلم بعصارتها لإماماً لا بأس به من قصص فولتير وكتابات المتنوعة . مثال ذلك :

« ... كان العالم كله يقول بأن الآلهة لم يقيموا الملوك إلا لتكون الأيام كلها أعياداً ، على أن تكون متنوعة . إذ أن الحياة أقصر من أن تنفقها فى غير ذلك . وليست الأفعال والدسائس والحروب ومنازعات رجال الدين التى تستنفد حياة الناس إلا أموراً مزعجة سخيفة : ذلك أن

الإنسان لم يولد إلا لكي يستمتع بنفسه . وإنه ما كان ليعشق المتعة دائماً وبكل قلبه لولا أنه من أجلها خلق . إن جوهر الطبيعة البشرية هو الاستمتاع بالنفس . وما عدا ذلك حماقة وسخف . وهذا مذهب خلق ممتاز لم تكذبه قط إلا فعالتنا .

وينبغي ألا تفترض أن القرن الثامن عشر صاغ فلسفته لصالح طبقة واحدة فقط ، بل على العكس من ذلك كان القرن الثامن عشر يرى أن التقدم ينحصر في نشر جميع وسائل المتعة تدريجياً — الوسائل التي تؤدي مثلاً إلى إشباع الطبايع « لأن المتعة من صميم الطبيعة الإنسانية » . كانت فلسفة اللذة — تحت اسمها المعروف في العالم القديم بحب الإنسانية — شائعة إلى أبعد الحدود . أما اليوم فهذه الفلسفة توصم بتقصيرها دون المثل العليا ، مادامت تهدف إلى إرضاء الفرد أكثر مما تهدف إلى تمجيد الجنس ، أو المذهب أو الطبقة . إنها فلسفة يمتقها الوطنيون كما يمتقها الشيوعيون . ولم يعد يؤمن بوجاهتها سوى قلة من المثبثين بالقديم . ولما كان — من زمن بعيد — من رأى أولئك الذين تؤخذ آراؤهم عامة مأخذ الجد ، أن أثينا في أخريات القرن الخامس رفعت المدنية إلى درجة لم يسبق لها مثيل فليس من الخطأ — فيما أحسب — أن أختم هذا الفصل بتحليل ما اتفق على أنه أحسن صورة للمجتمع الأثيني في أوجهه . إذا كان الشعراء والعلماء والفنانون ، وكذلك الأساقفة والقضاة ، والمثقفون من التجار ، وإذا كان الفلاسفة الوثنيون ، بل ورعاة الكنيسة — إذا كان هؤلاء جميعاً يعدون « محاوره المادة » لإفلاطون من أجمل المؤلفات وأبعدها أثراً التي أنجبتها القرائح البشرية ، فإن ذلك لا يعود إلى الآراء البراقة التي تضيء لأمعة

خلال آراء سقراط المعقدة أكثر مما يعود إلى الصورة الرائعة التي تعرض طريقة رائعة من طرق الحياة . في هذا الحوار الجميل نرى لمحة — بل وأكثر من لمحة — من مدنية يبدو أنها أقرب إلى رغبات القلب من أى شيء آخر كانت تعده يمكننا تلك العصور التي لم تبلغ من نفوسنا مبلغ العصر الأثيني . ومع ذلك فإن هذه الصورة لطريقة معينة من طرق الحياة إنما تشف عن لحظة من اللحظات في تلك الصورة المثالية التي يلحها الفنان ويخلدها . ولندكر أن الصورة ليست رؤيا قديس مذهول مستغرق في التفكير ، وليست خطة لنموذج سماوى لا نستطيع بلوغه لما في نفوسنا من نقص ، وإنما هي صورة عاشها من قبل أناس يجوز عليهم الفناء ، ويمكن أن يعيشها الناس مرة أخرى .

هذه قصة يروها أبولورس نقلا عن أرسطوديموس ، وهو — كما يقول زنفون — كافر ، ضئيل الجسم يسير دائما بغير حذاء ، عضو تافه في تلك المجموعة التي كان يلعب فيها سقراط وأجاثون . وفيدرس وبوسانياس وأركسيا كس وأرستوفان والقيادس — كانوا مجتمعين في حفل عشاء ودى أقامه أجاثون احتفالا بنجاحه في المباراة بين شعراء المأساة . وكان اليوم السابق قد خصص لتهاى الجمهور ، وهي دلالة طيبة على الجدية التي كانت تؤخذ بها الفنون فى أثينا . وفى طريقة إلى الحفل التقى سقراط — وهو فى ثياب فاخر على غير عادته — بارسطوديموس الذى يبحث بطبيعة الحال عن السبب فى هذا البهاء الذى لم يألفه . فقال له « إنى متوجه إلى العشاء عند أجاثون . » ثم روى سطرأ محرفا عن يوربديز ، وقال بعدئذ « إنى أنيق أتوجه فى أناقة إلى رجل أنيق . »

ثم يشير سقراط — وهو بإجماع الرأي أقيح وأقذو شخص في أئينا —  
على أرسطوديموس أن يرافقه . فيتردد أرسطوديموس ، لأنه لم يدع للحفل .  
بيد أن سقراط يلح في الرجاء ، لأنه يعلم أن الكرم وحسن الزمالة من  
الفضائل التي لا يتحلى بها المتوحشون . ولما لم يفلح في إلحاحه ، تخلف  
متفكراً حتى يصل صاحبه المتردد وحده فيطمئنه أجاتون ، الذي  
يذكر له أنه كان يبحث عنه طيلة النهار مشغولاً برفقته ولكنه لم  
يعثر له على أثر .

ويصل المدعوون . ويلتفت أجاتون إلى الخدم قائلاً لهم « أرجو  
أن تعدونا جميعاً ضيوفكم ، وأن تعاملونا بهذه الصفة » . وقد كان  
أجاتون — فوق كونه شاعر مأساة — شخصية ساحرة كما كان رجلاً  
مهورياً ، وكان كذلك حسن البزة ، فأبى أن يقوم بدور الداعي المضيف .  
وأخيراً وأخيراً يصل سقراط . ويرفض الجلوس ، بل يرفض الاتكاء ،  
إلا بعد أن يستمتع بدور مما لا أستطيع أن أصفه إلا « بالمغازلة الساخرة »  
مع أجاتون — وهي مداعبة لست في حاجة إلى أن أقول إنها قوبلت  
بروح طيبة — وفي نهايتها تناول الجميع طعام العشاء . والآن دعنا نلقى  
عليها نظرة عابرة : كان بين الحاضرين شاعران ، أجاتون وأرسطوفان ،  
والطبيب أركسيماكوس ، وذلك المفلس المشعث الذي يعظ الناس في زوايا  
الطرق سقراط ، وأخيراً القيادس ، وهو سياسي شعبي حسن النشأة ،  
متأنق في ملبسه ، وأغنى رجل في أئينا ؛ وهنا أيضاً فيدرس وبوسانياس ،  
وهنا كذلك آخرون لا يذكر عنهم أرسطوديموس شيئاً ، لأنه لا يزعم  
أنه يقدم قائمة كاملة بالأسماء أو سجلاً لكل ما قيل ، وبين هؤلاء

الآخرون ربما كان صناع مهرة وعمال عابرون وسفسطائيون، لا يفضلون  
المشردين إلا قليلا ، ولكننا على ثقة من أنه لم يكن من بينهم من  
كرس خير سنى حياته لجمع المال . إن الوقت الذى يعده رجال الأعمال  
فى العصر الحديث مالا ، كان عند سقراط للعبيد ، ولم يخطر فى بال أثينى  
أن إنسانا يخضع نفسه طائعا لذلك النظام الذى هو حياة جامعى المال ،  
أولئك الذين يعيشون للعمل . كان الاثينيون يرون أن الرجل لى  
يكون كامل المدنية ينبغى أن يتحرر من الأعباء المادية . وحيث أنه لا بد  
أن يتوفر له الفراغ الكافى يتمع فيه بكل جميل يقدمه له العقل أو العواطف  
أو الحواس ، فلا بد من وجود العبيد . وحيث أن هؤلاء العبيد يعيشون  
ليبتجوا لا ليستمتعوا ، وحيث أنهم لانعدام الثقافة والفراغ عندهم ،  
يعجزون عن حرية التفكير ودقة الشعور ، فقد كانوا أقل شأنا من  
غيرهم . كانت المساواة مطلقة بين المواطنين . ولم تعترف أثينا بالفوارق  
إلا فى الذكاء والتعليم ، وهى — لسوء الحظ من غير شك — حواجز  
طبيعية تعوق التبادل السهل الممتع . لم يكن بين المواطنين مميزات طبقية .  
ولم يكن فى أثينا من يتعاطم على الآخرين .

وبعد العشاء أثار بوسانياس هذا السؤال: هل يعودون إلى الشراب،  
ويسكرون ، ويستمعون إلى الناس ، أم يتحدثون ، ويخرجون العازقة  
« تعرف لنفسها ، أو — إن أرادت — للخدم فى الداخل ؟ » نحن  
هنا على أبواب محاوراة من أسمى المحاورات فى تاريخ البشر باعتراف  
الناس أجمعين . وعلينا أن نلاحظ جيدا موقف أولئك الذين يوشكون  
أن يجروها . إن العقل يجعلهم لا يخشون ما فى الحياة من أشياء طيبة .

لأنهم لا ينجلون من الاستمتاع — حتى إلى درجة ما يسمونه الإفراط —  
بمثل المذات التي توفرها الخمر والغازات على الناي . إلا أنهم لا يدمنون  
ولا يفسقون . يدفعهم الإحساس بالقيم ، تعززه إلى حد ما ذكرى شرايهم  
المساء ، إلى أن يختاروا — في هذه المناسبة — لذة أروع ، وهي لذة  
الحديث الجدى . وإن لم يكن جدياً إلى درجة كبرى ، فقد كانوا يستطيعون  
أن يتناولوه في دعاية ، يمزحون مزاحاً عقلياً وجثمانياً ، ويتنازعون  
نزاعاً طفيفاً عن مجلس منهم جوار الآخر ، يهزلون ويمرحون ويتبادلون  
الدعاية الصريحة . ومنذ بداية الجدل ، حينما حل دور أرسطوفان في  
الكلام ، شكاً من الفواق ، ثم طلب أركسيا كس الطيب إما أن يأخذ  
دوره في الحديث أو يشفيه بما أصابه . فيسارع أركسيا كس إلى أداء  
العملين ، ويصف علاجاً يثير الضحك وإن يكن فعالاً . إن الرجال  
الضالعين في المدنية قلما يتصفون بالوقار .

ويعرف كل امرئ موضوع هذه المحاورة التي ذاع صيتها ، كان  
موضوعها الحب . ولكن كثيرين لا يعرفون أن المتحاورين لكي  
لا يبتلون ما يصلون إليه من نتائج بتحديد قضايا البحث ، لم يستبعدوا  
في حوارهم أى وجه من وجوه الموضوع . تحدثوا عن الحب في أدعى  
صوره إلى الإعجاب والتقدير . وكذلك تكلموا كثيراً مشين على صورة  
من صور الحب يحكم بسببها على الناس في انجلترا بالسجن . وإن استجابتي  
الغريزية لهذه الصورة لتشبه استجابة أكثر زملائي ، لاني أعجب لها  
أشد العجب وأقابلها بالتقرز والاشمزاز ، غير أني لم تبلغ في الغفلة  
والغرور أن أثق في استجابتي ثقة عمياء وأعرض على عاطفة أحستها ،

وأرى ثابت ارتاتة جماعة من أحكم وخير الناس قاطبة . وإني لأذكر أولئك الناس الضالين المفرعين الذين يأكلون الجبن وأحاول ألا أكون سخيافاً . ولا أستطيع أن أعطى نفسى حق الحكم أيهما أفضل ذوقى أو ذوق سقراط وصحبه . ولكن أستطيع أن أصفى باحترام لجمع خصومى الذين يبعثون الذعر فى نفسى ، وأستطيع أن أمتنع عن أن أجعل من استجابتى الجثمانية استنكاراً خلقياً ، وأستطيع أن أحتج من كل قلبى ضد من يصم بالجريمة ما بدا خيراً لكثير من عطاء الرجال . لا يحق لأحد أن ينعت نفسه بالمدينة إلا أن استطاع أن يستمع إلى الطرفين . ولا يفضل الحيوان من لا يتسامح فى أمور كثيرة كرهة له شخصياً .

ليس فى نيتى أن أناقش «محاورة المأدبة» إلا بمقدار ما تلقى على موضوعى ضوءاً . وأستطيع أن أنوه بالرغبة الحقيقية فى الحق الذى تنطوى عليه أكثر الخطب ، وأن أنوه بالإحساس بالقيم الذى يحمل كل متكلم على أن يعرض قضيته عرضاً جميلاً بقدر ما يستطيع . وحتى سقراط نفسه لم يجادل ليتتصر فى الجدل ، ولم يكن من بينهم من يمتنع عن التسليم حينما يكون ضعيفاً فى موقفه . فيدرس يتكلم جاداً ، وبوسانياس متحذلق قليلاً ، واركسيا كوس يميل إلى مهنته . إلا أن الطيب — على خلاف أكثر زملائه — لا يخشى أن يجابه ما يترتب على علمه من نتائج . ويشير بعقل يدعو إلى الإعجاب أنه ينبغى لنا ألا نخضع لبانديميون فينس (ويقصد بها الشهوة) إلا بمقدار ما نستمد منها اللذة دون أن نسترسل فيها إلى حد الإفراط ، مثلنا فى ذلك — طبقاً لفننا — مثل ما نملكه من

البحث وراء متعة المائدة ، بمقدار ما نستسيغها دون أن يترتب عليها مرض وحسب . ( وهذه العبارة نقلا عن ترجمة شلي ) . وهناك بعد ذلك حديث أرسطوفان ، وهو عندى حديث بلغ غاية الإشراق . إنه بما يحوطه من دعاة عقلية عذبة يؤدى — بطرق تشير فينا غاية الضحك ولا تتوقعها — إلى نتيجة جدية ، يشير إليها الكاتب تليحا لا تصریحا ، لا تكاد تظهر حتى تختفي في أقطب كثيرة الألوان . وفي هذه الآونة أخطر بالاستعارة والتشبيه . وأذكر هنا تعثر الآلهة تعثرا لا يحفظ لهم قداسهم مما يدل في جلاء تام على أن هذه الجماعة المتمدة قد صفوا أمر الخرافات السائدة . ويوسفنى أن أقول إن الحديث لا يخلو من النكات البذيئة . ولكننا قد اتفقنا على أن الميل إلى الكلام والسخرية في كل أمر يميز من مميزات الشعب المتمدن . ولا أتصور إلا أن قليلا من العاشقين — حتى أكثرهم رقة وأشدهم تهديبا — هم الذين يرون موقفهم استثناء من هذه القاعدة . « هؤلاء ( أى أولئك الذين عشروا على انصافهم المفقودة ) هم الذين يكرسون حياتهم كلها أحدهما للآخر ، في شوق لا طائل تحته ولا يمكن التعبير عنه إلى أن يجد كل منهما عند الآخر شيئا لا يدري ما هو . لأن الواحد منهما لا يهدى نفسه للآخر بكل هذا العشق الجدى لمجرد المتعة الحسية من الاتصال ، وإنما تتعطش روح كل منهما في وضوح وجلاء إلى شيء عند الآخر لا يمكن التعبير عنه في كلمات ، وتقديس ما تسعى إليه ، وتتعقب في غموض مظان رغبتها الغامضة . » ( نقلا عن ترجمة شلي (١) . وإن الكاتب ليعود في الفقرة التالية إلى بذائه ، فيقول أنا

(١) إن ترجمة شلي — أو تفسيره على الأصح — للمحاورات رائعة جدا فيما =



لذالم نزع الآلهة تمام الرعاية فإنه يخشى أن يقطعنا زيوس إلى نصفين مرة أخرى ( ونظريته في الحب إننا كنا من قبل منتصفين ، وأن الأنصاف تسعى دائما إلى اتحادها ) ، ثم نسير بعد ذلك — كما يقول — أشبه بما نكون بالصور التي يرسمها الفنانون على الأعمدة ، أنوفنا مشقوقة في وسطها ، ولست بحاجة إلى القول بأن المرء حينئذ لا بد له من الوئب بساق واحدة . هذه عادة من عادات التمدن : وهي أن يتخلى المرء عن الوقار وهو في حالة الجذ ، وهي حالة تدعو إلى الحيرة الشديدة .

أما حديث أجاتون فقد كان غناثيا جميلا فصيحا ، وهو يبدأ بقوله هناك فارق بين أن تخاطب الجمهور في مسرح وأن تتأشدمستمعين ناقدين حقا . إنه يقول « بالتأ كيد يا سقراط ، إنك لا تحسب أن الزهو بانتصاري في المسرح قد بلغ مني حدا يجعلني أجهل أن قلة من الناقدين الأكفاء يخشى العاقل بأسيهم أكثر مما يخشى مجموع الناس في الطريق » وهذا الرأي يبدو لي أنه يشير إلى إحساس بالقيم ، ولكنه فتح لسقراط بابا للسفسطة والدعابة ، التي أوقفها فيدرس بقوله « إنك يا عزيزي أجاتون لو دخلت في نقاش مع سقراط فلن تبلغ بهذا النقاش إلى نهاية ،

---

== نقل . ولكنه لسوء الحظ لم ينقل كثيرا ، لأنه في جانب كبير مما كتب — حتى حينما يعبر به تعبيرا أجمل تعبيرا عن روح المحاوراة — لا نجد الدليل على وجوده في الأصل . وأهم من ذلك إغفاله إغفالا تاما لأجزاء من الحوار لها دلالتها الكبرى . ويقال إن هذه الثغرات لا ترجع إلى الشاعر وإنما إلى تلك المرأة البقيضة المتسكفة عديمة الضمير التي اتخذها له زوجة ثانية ، وعاشت لسوء الحظ من بعده ، ولكن في هذه النقطة من تاريخ الأدب يعوزني العلم الذي يخول لي أن أدلى برأى .

لأنه لا يفتأ يواصل الجدل في أى موضوع مع أى مخلوق — أو على الأقل مع أى مخلوق جميل الصورة . وأؤكد لك أنه من الممتع دائماً أن تستمع إليه وهو يتحدث ، ولكنى فى هذا المساء لابد أن أضمن أن « الحب » ( موضوعنا المختار ) ان يكون محلاً لغدر . وهكذا يواصل أجاثون حديثه ويقرر أن الحب كغيره من الموضوعات يمكن أن يجعل من أى إنسان شاعراً ، ويروى تأييداً لذلك بيتاً من الشعر من نظمه ينم عن تأثير يورديز .

« مهما يكن المرء ثائراً فيما مضى فان لمسة الحب تجعل منه شاعراً .. »  
فيبيء بذلك الفرصة فيما بعد لسقراط ليسخر من أستاذ أجاثون الذى لم يكن يحب . وبعد ما انتهى أجاثون من الإفضاء بكل آرائه الجميلة ، رد عليه سقراط قائلاً إنه يستحيل عليه أن يبنى بما وعد . « إن مثل هذا الثناء لا أفهمه ، ولجئى قبلت أن أنظم المديح ، :

وصاح بصوت مرتفع على طريقة يورديز قائلاً :  
بلسانى قط وعدت ، ولم أعد بعقلى .

وعندما أصغى إلى أسلوب أجاثون المنمق رفع أحد حاجبيه ، وبدأ حديثه المشهور عن طبيعة الحب . والحديث رائع ، وإن كان فى ذوقى يتسم بشيء من السفسطة : وربما كان مما يستحق الذكر كعلامة من علامات المدنية أن المتكلم فى أشد لحظات حديثه حرارة يسخر ضاحكاً من حذلقة السفسطائيين المحترفين ، أعدائه . وفى أعقاب حديثه يندفع إلى الداخل القبيادس ، مخموراً إلى الغاية ، تتبعه عازفات الناي . ويتقدم

لتسويج أجاثون . وبعد ما ينتهى من ذلك يقول إنه يبقى معهم إن أقبلوا  
على الشراب ، وينصرف إن لم يشربوا . فيستبقونه بطبيعة الحال .  
إن الفلاسفة الحقيقيين يستغلون طرفى الحياة .

ويقبلون على الشراب ، ويتبادلون المزاح فى مهارة فائقة فى شؤون  
حبههم ، ويبدون تفوقا رائعا يعلو على أقوى لون من ألوان العواطف  
البربرية جميعا — وأعنى به الغيرة . ثم يقول أركسيا كوس : هل هذا  
عدل؟ وهل من الإنصاف أن يشاركنا القبيادس دون أن يسهم فى لهونا ؟  
ليُبدل هو الآخر بحديث فى مديح الحب . ويرد القبيادس قائلا إنه يكلفنى  
حياتى أن أثنى على أى أمر من الأمور سوى سقراط فى حضرة سقراط .  
فيجيبه . حسنا إذن ، عليك بمدح سقراط ، وهنا يأتى الحديث الذى  
بعث فى دكتور چويت أشد القلق . إن القبيادس يروى — فى شىء  
من الدقة — قصة ميله الشديد إلى سقراط الذى لم يعد عليه بنفع ،  
بينما ينتحى سقراط ناحية ، ويتسم ابتسامة دقيقة كما أتخيله . ولم يكن  
القبيادس بالتأكد خجلا من مشاعره . وحيث أنه لم يغفل عن أن  
مشاعره ستبدو لأصدقائه مضحكة إلى حدها ، حيث أنه لم يخطئ فى أخذ  
نفسه مأخذا جديا أكثر مما ينبغى ، فإن إعتراقاته جميعا لم تقع من نفوس  
أصدقائه موقعا ثقيلا مؤلما . كان صريحا ، مسليا ، لا يشعر بالعار الشديد ،  
وإن كان قد شعر باليسير منه . فهو يشعر به حينما يتهمه سقراط بتقليده  
العامة فى تهليلهم أكثر من إخلاصة للحق والجمال . وهنا — فى النهاية —  
تقف عند أمر يبدو مشينا للرجل المتمدن . ذلك أن القبيادس يختم قصة

ويلاته برجاء أجاتون ألا يقع في حب سقراط خشية أن يلاقى مصيرا  
كقصيره . وهنا نجد سقراط بانتظاره ملعنا أنه توقع منذ البداية ألا  
يكون هذا المديح سوى حيلة ماكرة لكي تسيء العلاقة بينه وبين أجاتون .  
ولكي يصلحوا ثلاثتهم (١) ما فسد يتقارعون — وكانوا يجلسون معا —  
مقارعة لطيفة أيهم يمدح الآن الآخر ، ومن يجلس إلى جوار الآخر ،  
ولا يوقفهم عن المقارعة الا تدفق حشد من العربدين لم يدعوا إلى  
الحفل « ويسود المكان كله هرج ومرج ، ويختل النظام ، ويشعر كل حاضر  
بضرورة الإدمان في الشراب » .

ويؤسفني أن أقول إن هذا الحفل من حفلات العقل — الذي كان  
محل إعجاب وتقدير خلال ثلاثة وعشرين قرنا — انتهى بما قد يسميه قاض  
من قضاة الشرطة في لندن « خلاعة مخلة بالآداب » . وكان أركسيما كوس  
المحترف وفيدرس الجاد أول من عادا إلى بيتهما وهما يترنحان . أما  
أرستوديموس فقد خر نائما حيث كان . واستغرق في نومه طويلا . وكان  
الفصل فصل الشتاء حيث يطول الليل . وعندما انبثق النهار تيقظ . وكان  
أكثر المدعوين نياما — وكان من الطبيعي جدا عند الاثنيين البارزين  
أن يذثروا في عبااءاتهم ويناموا على أرض غرفة الطعام — ولكنه  
تنبه إلى أن أجاتون وارستوفان وسقراط كانوا ما يزالون أيقاظا ،

---

(١) كان من عادتهم أن لا يجلس على مقعد واحد سوى اثنين ، فإن جالس منهم  
ثلاثة كان ذلك مدعاة الى التجرش .

يشربون من قدح كبير ويسمرون . وعلى قدر ما استطاع أرسطوديموس  
أن يدرك كان سقراط يرغم الآخرين على الاعتراف بأن المأساة والمهابة  
يتطابقان بالضرورة . ولما كان في حالة نعاس ولا يزال مخمورا لم يكن  
على ثقة تماما من سير النقاش . إلا أنه أيقن أن الكرى أخذ يداعب  
أجفان أرسطوفان ، ثم استغرق في النوم ، ولما أشرق النهار تبعه أجاتون  
« ولما خلاص سقراط منهما معا سار (يتبعه أرسطوديموس) إلى الليسيوم  
(الندوة العلمية) حيث استحم كعادته وأنفق يومه في العمل ، وفي  
المساء آوى إلى فراشه في بيته » .

## المدنية وناشروها

لم أعرف المدنية بعد ، ولكنى ربما جعلت التعريف أمرا لا ضرورة له . إنى أتصور إن كل من تفضل على بقراءة ما كتبت حتى الآن لا بد أن يكون قد فهم جيدا ما أعنى . المدنية صفة من صفات الجماعة . وهى فى أبسط صورها الصفة التى تفرق بين ما يسميه علماء الانثروبولوجى المجتمعات «المتقدمة» وما يسمونه المجتمعات «المنحطة» أو «المتأخرة» . عندما يشرع المتوحشون فى تطبيق أحكام العقل على الغريزة ، وعندما يكتسبون إحساسا بدائيا بالقيم — أى عندما يميزون بين الغايات والوسائل ، أو بين الوسائل المباشرة للخير والوسائل البعيدة — عندئذ يخطون الخطوة الأولى إلى أعلى . إن الخطوة الأولى نحو المدنية هى تصحيح العقل للغريزة ، والخطوة الثانية هى أن يتعمد المرء التخلي عن إشباع رغباته الملحة الموقوته فى سبيل تحقيق رغبات أدق منها . إن المتوحش الجائع عندما يمسك أرنباً ، يأكله تورا فى مكانه ، أو يحمله معه بحكم غريزته إلى بيته ، كما قد يفعل الثعلب ، كى يأكله أشباله نيئا ، وأول من حمله إلى بيته — برغم جوعه الشديد — وطهاه ، كان فى طريقه إلى أثينا . كان رائدا ، يمكن أن نصفه عدلا كذلك بأنه أول المتدهورين . هذه حقيقة لها دلالتها . فالمدنية شىء مصطنع غير طبيعى ، إن التقدم والتدهور ، كلبتان يمكن أن تحل إحداهما محل الأخرى . إن كل من زود المعرفة

البشرية والحس البشرى ، بل وأكثر من اكتفى بزيادة أسباب الراحة المادية ، هؤلاء هزل لهم معاصروهم الذين استطاعوا أن يفيدوا من مكتشفاتهم واعتبروهم محسنين عليهم ، ووصهم بالانحلال كل من حالت سنه أو غباؤه أو غيرته دون الإفادة من هذه المكتشفات . ومن السخف أن نختلف اختلافا لفظيا . ولنتفق على أن عادة طهو المأكولات يمكن أن تعد خطوة نحو المدنية ، كما يمكن بنفس الصدق أن تعد انحدارا من الكمال البدائي للقرود المنتصب .

من هاتين الصفتين الأوليتين — التعقل والإحساس بالقيم — يمكن أن يتفرع عدد عديد من الصفات الثانوية . تذوق الحق والجمال ، والتسامح ، والإخلاص العقلي ، وشدة التأنيق ، وروح الفكاهة ، وحسن الأدب ، وحب الاستطلاع ، وبغض الفظاظلة والهمجية والمبالغة في التأكيد ، والتحرر من الخرافة والحشمة المتكلفة ، وقبول ما في الحياة من طيبات دون وجل ، والرغبة في التعبير الذاتي تعبيرا كاملا وفي التريبة الحرة ، وازدراء النفعية والابتذال ، أو في كلمتين اثنتين — العذوبة والنور . ولا تدرك كل المجتمعات التي تكافح في التخلص من المدنية جميع هذه الصفات ، أو حتى أكثرها . وأقل من هؤلاء من يشتد في تمسكه بإحدى هذه الصفات . من أجل هذا قد تجد عددا كبيرا من المجتمعات المتمدنة وعددا قليلا جدا من المجتمعات ذات المدنية الرفيعة ، لأن المجتمع لا يكون رفيع المدنية إلا إذا استمسك بعدد لا بأس به من صفات المدنية واشتد في تمسكه بها .

ولكن هل يمكن لوحدة غامضة كالمجتمع أن تملك أو تستمسك بصفات دقيقة كهذه ؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا بأشد المعاني غموضا .

إن المجتمعات تعبر عن نفسها في صور تتفاوت في ثباتها كما تتفاوت في وضوحها ، وهذه الصور هي التي تصبح للانثروبولوجيين والمؤرخين آثار مدنيات هذه المجتمعات . إنهم يعبرون عن أنفسهم في السلوك ، والعادات والتقاليد ، وفي القوانين والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، ويعبرون عن أنفسهم — فوق هذا كله — في الأدب والعلم والفن الذي قدروه وشجعوه . كما يحدثوننا عن شيء من أنفسهم — بدرجة أقل وثوقاً — خلال الأدب والعلم والفن الذي ربما قدروه وربما لم يقدروه ، ولكنه من خلق الفنانين والمفكرين الذين أنجبوهم . ولو ضمنا ذلك كله بعضه إلى بعض أمكننا أن نؤلف — في شيء من الوثوق — رمزا واضحاً لنظرة إزاء الحياة سائدة وهذه النظرة — التي تبدى في هذه الصور التي تتفاوت في عمومها وثبوتها — هي ما نسميه المدنية .

المدنية — إذا خاطرت باستعمال استعارة لا يمكن الدفاع عنها بسهولة — هي النكهة التي تضيفها نظرة عقلية معينة على التعبير الذاتي لعصر من العصور أو مجتمع من المجتمعات . إنها اللون الذي تخلعه وجهة نظر خاصة سائدة على المظاهر الاجتماعية . من أين تأتي هذه النظرة التي تلون الحياة ، وهذه النكهة التي تعطيها طعمها ؟ لاشك أنها تأتي من الأفراد ، لأن الأفراد وحدهم — كما نعلم — هم الذين لهم عقول يتفون بها موقفاً معيناً أو ينتقون بها وجهة نظر معينة من وجهات النظر . إن عقل الفرد هو منبع وأصل المدنية — لا جدال في ذلك . ولكن عقلاً بشرياً واحداً نقطة عذبة في محيط ، وبقعة قرمزية واحدة على الشاطئ . إن فرداً متمدناً واحداً لا يصنع المدنية . ربما لم يخل العالم من السكان المتمدنين خلال الثلاثة



آلاف سنة الأخيرة . ومن المحتمل وجود واحد أو اثنين منهم في أظم العصور — وإن لم يكن بطبيعة الحال من بين القبائل الممعة في الهمجية والبدائية . في غربى أوربا فى القرن العاشر — ولا نستطيع أن ننحدر إلى أبعد من ذلك وإلا كنا بين قبائل فيدا وبوشمان — يصادفنا جوبرت وهو يبدو كالمتمدن ويظهر غربيا بين قومه ، كما يبدو كذلك — وهو على تقيضه — الامبراطور أو توالثاك ، الذى ربما لم يعد أن يكون متصلفا معجبا بذاته . ولا نستطيع أن نثق أنه حتى فى القرن الثامن لم ينزو — مجهولين فى الأديرة الهادئة — رجال ما كانوا لينبوا فى بلاط لورنزو العظيم . بيد أن عصفورا واحدا من عصفير الجنة لا يخلق جو الصيف . ولا تصبح المدنية ممكنة إلا حينما ينضم عدد كاف من أفراد متمدنين بعضهم إلى بعض تتكون منهم نواة يمكن أن يشع منها الضوء وتقيض العذوبة . ومن ثم فإن ناشرى المدنية هم الرجال والنساء الضالعون فى المدنية الذين تتألف منهم جماعات لها من النفوذ ما يكفى للتأثير فى مجموعات أكبر ، وفى مجتمعات بأسرها فى نهاية الأمر . إن جماعة من المتمدنين لا يصبحون ممدنين إلا حينما يمكنهم أن يؤثروا فى المجتمع الذى يعيشون فيه حتى يبدأ هذا المجتمع — بعد ما يكتسب ما يميز هذه الجماعة من فضائل خاصة — فى إظهار هذه الفضائل فى طرائق التفكير والشعور . والنواة المتمدنة تصبح ممدنة حينما يكفى عددها ونقوذها لتلوين الجماهير . و « النواة المتمدنة » مجرد اسم محدد لعدد غير محدد من الرجال والنساء ذوى المدنية الرفيعة . وهؤلاء الرجال والنساء هم خالقو المدنية وناشروها ، هم شرط لازم للتمدن لا محيص عنه .

ولنما يجب علينا أن نبحث عن نشأة المدنية والباعث عليها في عقل الإنسان . فالتقوانين والعادات والأخلاق والنظم والحيل الميكانيكية ، كما يتبين لنا من مجرد النظر إلى المجتمعات المتوحشة والمستعمرات البريطانية ، لا تستطيع أن تخلقها . هذه الأشياء لا يمكن أن تصنع لأنها من صنع الإنسان . إنما هو العقل . عقل الفرد ، الذى يفكر ويبدع وينفذ . وإنما هو تأثير عقول عدة ، تفكر وتشعر بالعطف ، التى تشكل عادة — على غير وعى منها ودون قصد — المجتمعات والعصور . ومن ثم فقد بلغنا فى النهاية شيئاً محدداً — وذلك هو الإنسان المتمدن . ذلك الإنسان رجلاً كان أو امرأة — تتوقع أن نبجده متصفاً — بطريقة أدق وأشد تهادياً وتأكيذاً — بتلك الصفات التى ذكرنا أنها من خصائص المجتمعات المتقدمة .

إن الشخص المتمدن من جميع الوجوه يود فى كل لحظة أن يتابع العقل فى أسحق الجحور والزوايا ، بينما استجابته الغريزية للحياة تتكيف دائماً بالذوق . إن الحياة للشخص المتمدن — رجلاً كان أو امرأة — ليست مسألة ضرورة فحسب ، إنما هى — إلى حد ما — مسألة اختيار . إنه إذا أمسك بالأرنب ، سيطر على نفسه فى القرار الذى يصدره عن الكيفية والزمان والمكان الذى يأكل فيه هذا الأرنب . الرجل المتمدن متصنع بالضرورة . ومن التصنيع أن تنظف أسنانك وأن تقول « من فضلك » و « شكراً » . ومن غير الطبيعى ألا تصرع رجلاً تغاضبه وهو أضعف منك . ولكن لا تشك أيها القارئ فى أنى أحاول أن أبرهن على أن الرجل المتمدن هو الرجل الطيب . خير الرجال — إن كان للخير

معنى — من يطبق خير الحالات العقلية ويستمتع بها أطول وقت ممكن .  
يجب علينا أن نبحث عن القديسين في عالم المدنية بين الفنانين والفلاسفة  
والمتصوفين، لما عندهم من قدرة لا تحد على الاستمتاع بالتأمل والخلق .  
إن العقل يؤكد للمتقدمين إن في هذا يكون خير الأمور ، وإن كان الذوق  
المنحرف قد يهمس قائلاً أن خير الأمور لا يتنوع . ومن الأمور الكثير  
الطيب مما لا يبلغ أقصى حد للخير فلا يصلح للاستمتاع به . إن الكمال  
لا يتسع للعوامل التي لا تبلغ الذروة . والمثل الأعلى هو لحظة من لحظات  
الكمال تستمر إلى ما لا نهاية — إنه أفضل الخير دائماً . إنه الشمس المشرقة  
دائماً في السماء . إلا أن المرء قد يكون بالغ المدنية بالرغم من أنه يجب  
خلال المساء والليالي التي تسطع فيها النجوم ، بل ويجب المطر والثلج  
مما يحمله على أن يزيد من اشتعال ناره . إن المثل الأعلى شيء دائم  
فريد ، وقد يجد الرجل الضالع في المدنية نفسه أحياناً على شيء من القلق  
في نعيم السماء المقيم .

أرجو ألا يفهم أني أقول أن الفنان والفيلسوف والمتصوف لا يمكن  
أن يكون رفيع المدنية . إنما أقول أن الشخص كامل المدنية لا يمكن أن  
يكون من النوع الذي ينظر بعين واحدة . لم يكن القديس فرانس ، ولا  
داتي ، أو بليك ، أو سزان ، أو دستوفسكي ، كامل المدنية ، ولا يمكن  
أن يكون كذلك بكل عمله وما يتعلق به . بل إن أفلاطون نفسه ، حينما  
يخلق في سمانه — كما يفعل في «الجمهورية» — ينصرف عن إحساسه بالقيم .  
إن الرجل الضالع في المدنية أشمل تقديراً من أن يفقد إحساسه بكل شيء  
سنوي موضوع الساعة في أكثر الأحيان أو لفترة طويلة حتى إن كان

موضوعه 'O Altitudo' — ولا ننسى أن لتعدد الجوانب مثالبه كما أن له مزاياه . الرجل الضالع في المدنية مُمَقَدَّرٌ فوق كل شيء . إنه يكتسب في اتساع المدى والتنوع ولكنه يخسر في جانب الغزارة ، والغزارة — كما يزعم الفلاسفة — هي خير الأمور . فان كان فنا نا كان — فيما أظن — ذلك الجانب منه الذي لا ينكب في حماسة شديدة على التعبير الذاتي — ذلك التعبير الذاتي الذي يكاد أن يبلغ تقرير الذات فيبدو خطره — أقول كان هذا الجانب هو أرقى جوانبه مدنية . ( ومع ذلك فان هذه القدرة على التقدير عند المتمدن ، هذه العادة المثقفة عادة نقد الذات ، قدمت لنا كل لون من ألوان الفن ، من هوراس ، إلى بوب ، ومريمي ، بل وماتن ، وما نتجنا ، وبوسان ، ورن ، الخ . . . ) ، ومهما يكن من أمر فان الرجل المتمدن شديد الحساسية للوثرات الجمالية ، ولهذه المؤثرات التي ليست من نوع واحد فحسب . إنه ينتقى منها . إنه يميز في تقديره للتجارب الجمالية الجديدة ويتقبلها دائما . وبرغم هذا ، وبالرغم من أنه لا بد أن يكون معنيا كل العناية بالجمال والحق والمعرفة ، تمتلئ النفس بعرفان الجميل والتقدير الطبيعي للتعبير الجميل عن النفس ، فليس من شك في أنه أدق من الفنانين والمفكرين ، والعلماء المحترفين ، شعورا بأن هناك أمورا أخرى في الحياة تستحق منه اهتماما لا يقل عن اهتمامه بهذه الأمور شدة وحماسة .

وإذا لم يبلغ تعقله حدا يجعل منه فيلسوفا أو عالما متفرغا للعلم أو الفلاسفة ، فلا أقل من أن يبصره بأهمية الفكر والمعرفة باعتبارها وسائل لحالات عقلية محببة وللتقدم الذاتي . ومن ثم فان الرجل الضالع في المدنية

يؤثر طلب العلم على أن شيء آخر . وميزته التي لا نزاع فيها هي أنه يفتح الباب لعالم رغباته . التعلم والحساسية هما أئمن الأدوات لرجل ذكي يبحث عن اللذة . فإن كان ذا حساسية وبغير معرفة ، إن كان - لذلك - لا يستطيع أن يربط تجاربه الشخصية بالحاضر والمستقبل ، أو بقوى الطبيعة ، إن كان لا يستطيع البحث في أسباب ونتائج آرائه ومشاعره أو يتلاعب بنظائرها ، إن هذا الرجل مثله كمن يجرع النبيذ المختار طوال حياته دون أن يقف لحظة عند رائحته ، أو يستطعم عطره ، أو يتسهم لونه . الرجل بغير تعليم ، إن لم يكن شديد الحساسية ، يتحتم عليه أن يبقى على هامش التجربة ، يعوزه المفتاح لقصر اللذة الداخلي . إن كل فكرة وكل لون من ألوان الشعور له من النغم الدقيق ما لا يطرق سمع الرجل الذي لم يتعلم . إن الاستمتاع بكل واحدة منها عندما ترتفع ، ومعرفة ما في الأما كن غير المطروقة من خفايا غير منظورة ، ورؤية موضوع من عدة زوايا مختلفة ، وتصور المرء نفسه في ظروف غير ظروفه ، وشعوره إنه وريث العصور جميعا وإنه في الوقت ذاته لاه مسكين يتفق الوقت ويتبرم به في غير طائل ، وإدراكه أن الدكتور جونسن مفخرة لبني جنسه ، وهو في الوقت نفسه حمار مضحك أيضاً - هذه هي الملذات التي يجلبها التعليم ، ولا يجلبها إلا التعليم وحده . وصدقوني إنها كالشمبانيا أو الكافيار للحياة الروحية ، بل وألذ من هذين الشهيدين الماديين .

التعليم حاستنا السادسة . أما عن ذلك التلقين الفنى الذى نسميه بالتعليم أحيانا فليس له شأن فيما نتحدث عنه . إن له أهميته ، ومن الخير أن يتعلم البنون كيف يحصلون على أكبر قدر ممكن من اللبن من ست بقرات ،

وأن تتعلم البنات إمساك دفاتر الحساب . إن مثل هذه المعرفة وسيلة للخير ، ووسيلة إلى المدنية كذلك ، ولكنها وسيلة بعيدة . أما ما عدا ذلك ، فانه من اضطراب الرأى أن نكرّم تلقين ما هو مجرد وسيلة « للسير في الحياة » فنطلق عليه اسم « التعليم » الذى هو « استخراج » ، استخراج لأدق ما لدينا من قوى . وأنا أعلم أنه من الخطأ فلسفياً أن نصف هذا التعليم الحر بأن غايته جمع المعارف . فالمعرفة — كما رأينا — لا تطلب كغاية ولكن كوسيلة لحالات عقلية لها قيمتها . إن المعرفة فى حد ذاتها لا قيمة لها . ومع ذلك فان القول الشائع بأن الغرض من التعليم الحر هو إثارة حب الاستطلاع لغير ما غرض ، هذا القول ليس خطأ . لأننا نفهم منه أنه يعنى أن التعليم الحر لا يعين أحدا على « مواصلة السير فى الحياة » أو على « النهوض » — أو نقلا عن التعبير الانجليزى الدقيق « جمع المسال » — وإنما يعين على فهم الحياة والاستمتاع بملذاتها الدقيقة .

إن الشخص المتمدن — رجلا كان أو امرأة — فى هذا العصر من التاريخ يجب ألا يصدمه أمر من الأمور . يجب أن تتلاشى هذه العلامة من علامات الهمجية . وإذا كان التاريخ ، بما يسجله خير عما فسر فيه وشعر به خيار الناس وأحكامهم ، وما يسجله عن حكم الاستبداد ، وعن البلاهة ، والمحرمات ، والعلوم ، وبصورته عن الإنسان كشبكة من ردود الأفعال اللاشعورية ، إذا كان التاريخ — بهذه الصورة — لم يمكننا فى القرن العشرين من التمييز بين الحكم الخلقى والهزة الجثمانية ،

فان اللوم لا يقع على «العقل» . لقد قيل إن الآلهة نفسها عبثا ما حاربت الغباء . إن الصدمة النفسية معناها أن العقل قد نزل عن عرشه . والحشمة المتكلفة - كالخوف - تحول بين الإنسان وحكمه الذى لا انحياز فيه . وتجذبنا فى هذا الاتجاه وذاك الاتجاه ، وتجيرنا فى النتائج . حدثنى ضباط المدفعية أنه فى اللحظة التى يفقد فيها الملاحظ أعصابه يفقد قواه فى تصويب بندقيته نحو الهدف تصويبا دقيقا ، كما يفقد قواه فى الحكم على أثرها فى عدوه . عندئذ يستولى الخوف على المرء ويتلاعب به كيفما شاء ، ويحرف الحكم لمصلحته . والحشمة المتكلفة لها أثر مشابه . ولو أن علماء التشريح تقزوا من منظر جثة الانسان ، وأشاحوا عنها بوجوههم ، وأبوا أن يتابعوا عملية التشريح ، لو أنهم فعلوا ذلك لبقينا إلى يومنا هذا فى جهل بيولوجى مطبق . وكيف يمكن لأولئك الذين يأبون أن يبحثوا - بل أن يتفهموا إن أمكن ذلك - فى الشاذ ، أو غير المألوف ، من الأذواق والعادات والميول وأنواع الإسراف البدنى والعاطفى - كيف يمكن لهؤلاء أن يعرفوا أى شىء من علم النفس أو الأخلاق ، لو أنهم ذعروا وصاحوا «لقد صدمنا» . إنهم لن يفحصوا أسباب ما يغمهم أو تتأبجه . أنهم لا يرون قط الشىء نفسه بكليته فى ثبات ، لأن نوعا من الغشيان الجثمانى أو المحرمات البائدة - التى يسرهم أن يسموها «تنكرا خلقيا» أو «إحساسا بالاحتشام» - يثور فى نفوسهم ويعمى أبصارهم . إنهم لا يستطيعون أن يمسوا الشعبان لأن أبدانهم تقشعر لمسه . وربما كان كذلك ، وليس هذا مما يؤيدهم فى شىء : ولا يجوز أن يجعلوا من العجز البدنى فضيلة ، ولا يجوز أن يدينوا الشعبان ودارسيه من أجل هذا . ولكنهم «مضطربون» . وحقا إنهم ليضطربون ،

والوصف بهذه الكلمة فيه حسن اختيار ما دام العقل يُنبذ . وهم يعلمون .  
أن الثعابين « مريعة » وإن كان علماء الحيوان يؤكدون لهم إنها جميلة  
ومسلية . وهذه الحشمة المتكلفة تختلف عن الخوف — الذى كثيرا  
ما يكون وسيلة للاحتفاظ بالذات ، وقد يقوم على العقل — تختلف عنه  
فى أنها تعود بكليتها إلى الخرافة حينما لا تكون مجرد غشيان بدنى . إنها  
محنة لا تقابلها مزية . ونحن لا نستطيع أن نتمنى استبعاد الخوف كلية ،  
غير أننا لو استطعنا أن نخلص أنفسنا من الاحتشام تقدمنا فى ألف اتجاه .  
ولم تتقهقر فى اتجاه واحد .

إن الرجل الكامل المدنية يعلو على تكلف الحشمة : وحيث أنه  
يرغب فى بلوغ الحقيقة فانه يحاول أن يعلو كذلك على الغضب والهوى ،  
فان لها نفس الأثر فى تقييد حرية التفكير . الرجل المتمدن متسامح  
متحرر . وليس معنى ذلك أنه لا يحتد قط أو يشتط . وكما اكتشف أنه  
إذا أغلق أحد أبواب العقل بالتحيز فلا مفر من أنه بذلك يصد بعضا  
من أكثر زائريه سحرا ، فكذلك سوف يدرك الرجل المتمدن أنه قل  
جدا من حوادث الغضب ما لا يمكن إخضاعه للعلاج العقلى . وكما أن  
الجواب الهادى يبديد الغضب فكذلك تطفىء روح الفكاهة نيران  
الغيظ . لا بد للرجل المتمدن من أن يكون حرا متسامحا .

وإنى لعلى يقين من أن أحدا لا يتصور أنى حينما أقول « حرا »  
أفكر فى السياسة . فلسنا نعرف ماذا عسى أن تكون عليه الآراء السياسية  
للرجل المتمدن . ولا نؤكد إلا أمرا واحدا : ستكون هذه الآراء  
النتيجة المنطقية لفكرة واضحة عما يريد فعله . وما يريد قد يكون



للخير المطلق ، أو أن يكتفى بتوفير أسباب راحته بقدر المستطاع . وكلا  
 الغرضين هدف معقول ، وكلاهما — مع حسن إدراكهما وصحة الرغبة  
 فيهما — يمنعه من أن يعلق أقل أهمية على تلك العبارة المذهلة التي  
 يتلاعب بها الساسة المحترقون . الحرية ، والعدالة ، والمساواة ، والإخاء ،  
 والمقدسات ، والحقوق ، والواجبات ، والشرف ، كل هذه الألفاظ الغالية  
 قد تحمل معنى وقد لا تحمل أى معنى . وسيان إن قلت إنك تؤيد مشروع  
 قانون نقابات العمال لأنه عادل ، أو قلت إنك تؤيده لأنه غير عادل ،  
 فليس لهذا القول أو ذاك معنى : فإن العدالة ليست غاية في حد ذاتها :  
 إن العالم الذى يسوده العدل الشامل ولا شئ غير هذا ، عالم تافه كذلك  
 الذى يسوده الظلم المطلق ولا شئ غير ذلك . فإذا كنت تؤيد مشروع  
 قانون نقابات العمال لأنه وسيلة بعيدة للخير المطلق كان ذلك منك قولاً  
 جريئاً وموقفاً كريماً ( لأن النتيجة تتركز على مقدمات صحيحة ، وليس  
 عليك إلا أن تثبت أن النتيجة قد استنبطت استنباطاً طبيعياً ) . وكذلك  
 إن أنت اعترضت على مشروع القانون لأنك تعتقد أنه سيؤدى فى النهاية  
 إلى تخفيض ما تتناول من أجر كان ذلك سبباً جميلاً جداً للعارضة . أما  
 إن أيدت القانون لأنه عادل ، أو اعترضت عليه لأن جائر ، فأنت تؤيد  
 أو تعترض لغير ما سبب صحيح ، لغير ما سبب بتاتا . إن السؤال  
 الوحيد الذى يسأله الرجل المتمدن عن أى إجراء سياسى هو هذا « هل  
 هو وسيلة لما أريد ، أو هل يؤدى إلى غير ما أريد ؟ » فإن أحدا لا يريد  
 العدالة أو المساواة فى الفضاء ، إنما هذه أمور — إن رغبت فيها  
 إطلاقاً — رغبت فيها كوسائل ، وهما يتساءل الرجل المتمدن : وسائل

لماذا؟ وبطبيعة الحال ، قد يحدث أن أرغب أنا وترغب أنت معي في غاية واحدة ، ولكننا نختلف فيما إذا كان قانون معين يصدره البرلمان يكون الوسيلة لهذه الغاية . هنا يتسع المجال للجدل والتفسير . وأكثر من ذلك احتمالاً أن ما يكون وسيلة لما يريده رجل يكتسب أربعة جنهيات في الأسبوع لا يكون وسيلة لما يريده رجل يكتسب عشرة آلاف جنيه في العام . وحيث أن الإجراء المقترح يُحكم عليه بمختلف المعايير ، فإن الاتفاق النهائي لا أمل فيه ، والتوفيق هو خير ما نأمل فيه ، ولكن في مثل هذه الحالة إذا أثار أحد الجانبين كلمات خلافة «لحقوق» و«الواجبات» أو إذا اتهم أحد الطرفين الآخر بالانحراف عن الأخلاق ، ما كان في ذلك من العقل أكثر مما يكون عند ما يشتم لاعب الكريكت في جامعة أكسفورد خصمه من كامبردج لأنه هزمه في اللعب . إن أهداف الطرفين معقولة ، ولكنها تختلف ، وليس هناك مجال للكلام القارص . وإنما ينشأ هذا الجدل حينما يرغب غيرنا من الناس في الغاية التي نرغب فيها ، ولكنهم يستخدمون وسائل من الواضح أنها لا تؤدي في النهاية إلى تحقيق الغاية . هؤلاء نسميهم أغبياء ولا نسميهم أشرارا . إن النقد الخلق لا يمكن قبوله في الجدل السياسي إلا إذا اتفق الجميع على ما يكون خيرا كغاية ، وقد يكون ذلك ممكنا ، واتفقوا كذلك على أن الاجراءات السياسية وسائل لهذه الغاية ، وليس ذلك أمرا ميسورا . هل زيادة راتبى خمسين جنيهها في العام يحتمل — في النهاية القصى — أن تؤدي إلى زيادة الخير المطلق — أى زيادة الحالات العقلية التي لها قيمتها — أكثر مما يؤدي اليه إمداد ملاعب سنت بانكراس بتلال الرمال وصناديق

الأوراق المهمة؟ إنه سؤال دقيق لى فيه رأى محدد كما سيتبين لكم إذا  
طالعم كتابى حتى نهايته . ولكنكم سوف ترون كذلك أنى لا أمل  
كثيراً فى أن أحمل كل إنسان على الاتفاق معى فى الرأى . إن الرجل  
المتمدن من جميع الوجوه يضع كل هذه الأمور فى اعتباره ، وهو وإن  
يكن شديد الاهتمام بشئون السياسة ان يرجع إلى تلك المبادئ العتيقة  
الرائثة ، ولن ينظر إلى رغبته الطبيعية فى الاستمسك بما لديه على أنها  
أحق من رغبة خصمه فى الحصول عليه لنفسه . إنه لا يخدع نفسه بالكلمات  
والعبارات . أن صاحب الملايين المتمدن يتفق مع الحكومة الروسية  
الحالية لأنها تحرم الإضراب . ولو كان مستر لانزبرى متمدنا ما أعتقد  
من صميم قلبه أن أبناء دائرته الانتخابية أحق بأجر العمل من دوق  
نورمبرلاند بثروته . إن عجزنا عن أن ندرك أن آمال الفرد أو مخاوفه  
الخاصة تتفق والخير المطلق — إن عجزنا هذا يجعل من غير المحتمل  
للرجل الضالع فى المدنية أن يظفر بالثقة فى انتخاب شعبى .

ولما كان الرجل المتمدن متساحلاً لا يميل إلى التدخل فى شئون  
الآخرين ، فلا بد أن يكون على سلوك حسن . أن إحساسه بالقيم يقنعه  
بأهمية هذا السلوك فى التنعم بالحياة ، حتى إن لم يبدله العقل على إنه  
ضرورى للعرفة . فإذا كان فهمك الناس أجمعين يدعو إلى تسامحك معهم  
أجمعين ، فإن تسامحك معهم يسير بك إلى منتصف الطريق فى فهمهم .  
إذا طمأنت الرجل بحسن سلوكك وجميل خطابك سرت على الدرب الذى  
يؤدى بك إلى تأسيس علاقات عاطفية ، وبذلك تيسر له أن يقدم خيراً  
عنده . وإن أنت أقتت تلك الحواجز التى يصطالح على نبذها كل سلوك حسن ،  
إن أنت فعلت ذلك أقتت بينك وبينه الشك ، والتوتر ، والمضاربة ،

وتقرير الذات ، وثق أنك لن تظفر بشيء أفضل مما أعطيت . لا يفرينا شيء قط بالإفناء بأعز أسرارنا للمتكبرين ناقصى التربية . من أجل هذا ترى الرجل الدنى ، والوثاب ، والمشاعب ، مدعى العلم الذى لا يوثق فيه ، ومدعى الكمال الذى يفرض شخصيته — هؤلاء يتسللون فى هذه الحياة أو تجرفهم الحياة دون أن يتذوقوها . إن كل اتصالاتهم من جانب واحد . وحينما يشتم الواحد منهم يستطيع أحيانا أن يقبض على ناصية الحياة ويهزها هزا . ذلك أن الرجل الذى يحمل المشابك فى أطراف يديه يستطيع أحيانا أن يمسك بك من عقبك ويلقيك أرضا ، ولكنك لا تستطيع أن يدرك آلاف الهزات العاطفية العجيبة التى يحسها عندما يربت على كتف زميل أو يضغط على كفيه . ليس من شك أن فى الحياة كثيرا من الأمور الطيبة يستطيع المرء أن يحققها بمجرد قوة الذهن والشخصية . غير أن هناك ما هو خير منها — أو أدق منها على الأقل — لا تستطيع أن تشتريها بأقل ثمناً من حسن السلوك . ومن هذه أفضلها الحديث — الحديث الحقيقى — تبادل العواطف والآراء بين أفراد عزل من السلاح تماما ، قلوبهم مطمئنة ، أفراد تخلو نفوسهم من الخوف ومن الريبة ، كما يخلون من الأغراض ، لا يسعى الواحد منهم إلى فرض نفسه أو التظاهر بها ، وإنما يسعى إلى الحقيقة عن طريق اللذة . الحديث متعة لا يعرفها إلا المتمرد وحده .

الرجل الضالع فى المدنية — بطبيعة الحال — لا بد أن يكون ذواقه فى الحياة . لا بد أن يميز ، وأن تكون له حاجات معينة ورغبات معينة . إن المدنية — ذلك المظهر المعقد من مظاهر الذكاء الفردى والحساسية

ضد غريزة القطيع ، هذه المدنية لا تقبل قط المعايير المنحطة أو تخضع  
لسلطان السوق . إن الخراف الهمجية والتعاج البلهاء عميد للسيد الذى  
يرتدى لباس السهرة . تحدد لهم السوق ما ينبغى أن يكون من اختياراتهم  
الشخصى الخاص . يتتقى لهم السادة هارود وسلفردج النيذ والسيجار ،  
والمعاطف ، والأحذية والقبعات والقمصان . ويدين لهم السادة  
هتشرد ومودى أى الكتب يقرأون ، ويمدهم تجار شارع بوند بالصورة ،  
كما يمدهم سر توماس بيتشم وسر هنرى وود بالموسيقى وحبوب الدواء ،  
وسر أزلونسنتل وهو ليود بالنسكة ، والجمال ، والإحساس بالخيال .  
إن ملوك الأسواق الكبرى يصيحبون فيهم قائلين : « هنا أيتها السيدات  
والسادة فى الامبراطورية البريطانية ، هنا خير الأصناف » . وتقف  
سيدات وسادة الامبراطورية البريطانية طائعين فى الصف . ولا يجرؤ  
على مواجهة هؤلاء المتعبدين بالتوريد الذين يقدمون السلع المزخرفة  
إلا قليل من الضالعين فى المدنية ، قائلين لهم إن ما يقدمونه لا يتفق وماهم  
فى حاجة إليه .

لكى يكون الرجل متمدنا يجب أن يكون لديه ذوق للاختيار  
والتقدير ، ولكنى أذكركم مرة أخرى أنه لا ينبغى أن تكون لديه القدرة  
على الابتكار ، فإن ابتكر ، فلا بد أن يحمل ابتكاره علامات المدنية .  
غير أن هذه العلامات — ما دامت كلها عرضية لا تؤثر قط فى القيمة  
الذاتية لعمله — ليست مما يأبه له رجل يقدر الجمال خالصا ، وإن  
تكن لها أهمية قصوى للورخين الذين يحاولون أن يكشفوا عن مميزات  
العصر الذى صيغت فيه ، أو الفنان الذى صاغها . وإذا كانت «الأوديسى»

أعلى قدراً من « أغاني رولان » فليس مرد ذلك إلى أن الأولى تلونت بلون مدنية بازغة ، والثانية بهمجية آفلة . إن الفنان المتمدن يظهر في فنه مدنيته ، إلا أن هذا المظهر ليس من جوانب الفن التي لا يحصى عنها . إن الرجل المتمدن لا يتصف بالخلق أكثر مما يتصف به الرجل الهمجى . ولكن التمييز والتقدير الواعى من صفات الرجل المتمدن . ومن العسير أن نحكم بالمدينة على الرجل الذى لا يتأثر البتة بأى فن من الفنون .

ومهما يكن من أمر فإن حياة المدينة إذا خلت من الإحساس الجمالى المتصل العنيف تتعرض لخطر الفراغ . إن ملذات حياة المدينة تأملية فى أساسها ، ومن بين التجارب التي يمارسها المرء خلال تأمله ، ربما كانت للتجارب الجمالية أكثرها أهمية ، لأنها وإن تسكن أقل غزارة من العواطف التى يستمدها المرء من صلته الشخصية إلا أنها أشد تأكيداً وأكثر دواماً . وهذا الإيثار للتأمل ( وأنا أستخدم الكلمة فى أوسع معانيها ) وهو من أعز المميزات التى يستمدها المتمدون من إحساسهم بالقيم ، هو الذى يجعل بعضهم المستمر للتدخل فى شئون الآخرين ، ذلك التدخل الذى يسميه كتاب السير المتميزون « حياة العمل » . وواضح أن من ضروب النشاط ما يمكن أن يكون وسائل للخير ، وهذه الضروب لامناص للرجل المتمدن من تأييدها دائماً ، ومن ممارستها أحياناً . ولكن لما كانت حياته بالفعل مليئة بوسائل الخير المباشرة ، وما دام لديه من الصلات الشخصية ما يستمتع به ، ومن الجمال ما يتأمله ، أو يبدعه ، ومن الحق ما يسعى إليه ، فإنه يعزف دائماً عن التضحية بهذا المحسوس فى سبيل

ما قد يتبين أنه وهم من الأوهام . إنه يريد أن يعمل لكي يعيش —  
إن كان لا بد له من ذلك ، فالحياة وسيلة ضرورية من وسائل الخير .  
ولكنه بعد ما يكفل بقاءه ، يقف من الحياة موقفاً قابلاً لا فاعلاً . إن  
حياة العمل — في أحسن حالاتها — قد تكون حياة حركة دائبة في  
السعي وراء ما قد يتبين إنه وسيلة من وسائل الخير — الخير للعامل —  
أو على الأرجح — للآخرين . ولكن العمل في حد ذاته عديم القيمة ،  
وقلما تكون للحالة العقلية التي تتولد عنه أية قيمة . وفي أكثر الأحيان  
يكون العمل باعثاً على حالات عقلية سيئة بالنسبة إلى العامل ، وبعثاً  
على الإزعاج المتواصل بالنسبة للآخرين .

لقد اعترفت بأن حياة العمل (ولست أسمى الحياة التي يكرسها صاحبها  
للمجرد اكتساب القوت ، حياة عمل — فالعامل الزراعي ليس رجلاً  
من رجال العمل ) ربما كانت وسيلة من وسائل الخير ، وبخاصة خير  
للآخرين . إلا أن الأشخاص العاملين حقاً — رجالاً كانوا أو نساء —  
لا يشتمون الحرب عادة أو يقيمون المذابح ، ولا يتسلطون على الضعيف  
ويستثيرون القوى ، ولا يتدخلون في شؤون جيرانهم ويقبلون الدنيا  
برأساً على عقب — لا يفعلون ذلك مدفوعين ببواعث الإيثار ، إنهم  
لا يفعلون ذلك إلا لأنهم لا يستطيعون أن يفرضوا شخصياتهم إلا بالعمل .  
إن ما يسمونه شخصاً عملياً — رجلاً كان أو امرأة — ليس إقناناً  
عسائراً ناقصاً ، يتشوق إلى التعبير عن نفسه ، ولما كان لا يستطيع ذلك  
بالخلق والإبداع ، فلا مناص له من التدخل في شؤون الآخرين . أمثال  
هؤلاء هم نكبتنا ، وما أكثرهم . إنهم لا يكتفون بالحبة والصدقة ،

والحديث ، وإبداع الجمال أو التأمل فيه ، أو متابعة الحق والمعرفة ، أو اشباع حواسهم ، أو باكتساب قوت يومهم في هدوء . بل لا بد لهم من الظفر بالنفوذ ، ولا بد أن يفرضوا أشخاصهم ، ولا بد أن يتدخلوا في شؤون غيرهم . هم صانعو الأمم والإمبراطوريات ، وهم الذين يتخلون بالسلام . هم مخرجو الإنسان من خير جوانبه . هم عمد الهمجية — أو إذا تبعنا كتاب السير — هم عمد المجتمع . إنهم غير مهيين للذات المدنية ، ولكنهم لا يسمحون لجيرانهم الذين كانوا أوفر منهم حظا في هذا السبيل بالاستمتاع بها . لا بد لهم من فرض معاييرهم وطرقهم في الحياة . وأسوأ من هذا كله إنهم يدفعون من بين من هم يسيرون في اتجاه المدنية بالطبيعة من كان أقل وضوحا في بصيرته — يدفعون هؤلاء إلى عمل يدفعون به عن ذواتهم — أو قل يدفعون بهم إلى شبه الهمجية (١) . وعن هذه الحشرات تصدر تلك الدعوة الغالية ، تقديس العمل : كأن العمل يمكن أن يكون خيرا في حد ذاته . وعنهم تصدر الحروب ، وأسباب الاضطهاد ، وقوانين الشرطة والتحقيقات الظالمة . إنهم يتوهمون أنهم يستطيعون بالقوة أن يفرضوا على غيرهم المعتقدات والميول ، وقد بلغ هؤلاء الآخرون من الحماسة أنهم يصدقونهم . إنهم يستطيعون أن يفرضوا — بل إنهم ليفرضون — التوحيد الظاهري ، والنظام . إنهم

---

(١) كان المتقدمون في المدنية من بين المواطنين في أتبنا يصرون على المعارضة في سياسة الحرب والتوسع الاستعماري التي كان الزعماء الشعبويون يزجون بالمدنية فيها . وهذه السياسة التوسعية أدت مباشرة الى تدهور المدنية الأثنية ، كما أدت الى انهيارها السياسي . ولو أن القبيادس قنع بحياة الفسك والعمور لما أيدت تلك الحملة العقلية القائلة .



ينظمون العداوة لكل ما ليس بالشائع أو المألوف — أى لكل ما هو  
متميز نادر . لا شك أنهم قلة مسحوقة ، ولكن لما كانوا لا يحسنون  
عملا سوى السعى وراء السلطان ، ولما كانت الغالبية غبية وديعة ، فانهم  
يظفرون به عادة .

ولنعد إلى الرجل المتمدن . الرجل المتمدن مصنوع لامطبوع . هو  
شخص مصطنع ، غير طبيعي . إنه يكوّن نفسه عامدا وواعيا ، وفي اعتباره  
الحصول على خير وأدق الموجود والاستمتاع به . وبرغم هذا — بمعنى  
آخر — إنه وإن يكن متكلفا في كل أموره ، إلا أنه أقل الكائنات  
البشرية انحرافا . وهو كذلك لأن استجاباته أقل انحيازا . ولكي نفهم  
هذا التناقض الظاهر يجب علينا أن نسلط أذهاننا على صورتين : على  
الحياة ، أو التجارب ، باعتبارها تيارا دائما التدفق ، وعلى ذلك المجرى  
العجيب الذي نجرها فيه . وهو الشخصية . والعجيب في الشخصية أنها  
تكيف وتتكيف بالتجارب ، ولا تجد شخصيتين في شكلهما الأصيل  
متطابقتين ، ولكن خلال السنوات الأولى لحياة كل إنسان تشكل الظروف  
والثروة الشخصية وتحورها — وأقصد بالشخصية المجرى الذي يسرى  
خلاله تيار التجارب . إنها تنسد وتتضخم من أثر الخرافة المتخلفة أو  
تراكم العادات التي تلتوى هنا وتنبعج من فعل الأهواء التقليدية ، وأحيانا  
تعيد الثقافة تشكيلها قصدا . ولكي تقدر تقديرا تاما قوة التيار الذي يمر  
بها وحرارته ونوعه ، ولكي تسجل الدوامات والأمواج التي تصطمم  
بها ، ولكي تميز تمييزا واضحا بين التحاريق والفيضان ، يجب أن نحافظ  
في عناية تامة على نظافة هذه الأداة الدقيقة . الشخصية ( هذا الموصل  
للتجارب ) تحتاج إلى الجلاء دائما . ولا يستطيع إلا العقل وحده أن

يؤدي هذه العملية الأساسية . العقل وحده يخلص الشخصية من الآراء المتعصبة وردود الأفعال العنيفة ، وذلك لكي تقاوم دائما المعتقدات الثابتة وردود الأفعال الغريزية . شخصية الهمجي تتلوث بالأهواء والخاوف الخرافية . أما شخصية المتمدن فليست بالتأكد تلك الشخصية التي ولد بها ، فقد طرقتها الأقدار وشكلتها التربية ، ولكنها شخصية نظيفة . ولا تحول بينه وبين الحياة محرمات بالية ، أو عرف على غير أساس أو مخاوف لا طائل تحتها . ومن ثم تتاح الفرصة لكي يمارس يوما ما أمرا من الأمور مباشرة ممارسة كاملة وبشخصه ، لا باعتباره مسيحيًا أو عابداً شيطاناً ، ولا باعتباره سيداً انجليزيا أو من عامة قراء الصحف ، وإنما باعتباره الذاتي .

الرجل المتمدن لا يعيب بصفاته الموروثة حبا في توحيدها مع صفات غيره ، ولا من أجل الضمان العقلي والعاطفي — وهما من أهداف القطيع الكبرى . ولا يحاول أن يبدل من هذه الصفات إلا حينما تحول بينه وبين إدراك الحياة والاستمتاع بها . إنه يحاول أن يعالج نفسه من حدة الطبع كما يحاول أن يعالج نفسه من لكمة اللسان . إنه يكافح ميول الغيرة كما يكافح السل في بدايته . إن الميول الهمجية لا تعود بفائدة تدوم متعتها . إنها تهدم السعادة كما تهدمها أمراض الأسنان . إنها تجعلنا نعانى معاناة المرضى ونسلك سلوك المجانين . الرجل المتمدن يبذل كل جهده للتخلص من كل ما يحول بينه وبين وعيه والحقيقة ، كل ما يحرف الأحكام ، كل ما يظلم البصيرة . إنه يحاول أن يبذل الطبيعة بمعول التربية ، وهو بهذه المحاولة إنسان متكلف مصطنع . ولهذا فهو وإن كان لا ينبذ لذة من اللذات لأنها

تتأني المبادئ ، إلا أن عادة التحليل عنده وإحساسه بالقيم سرعان ما تقمعه بأنه يضحي بالأسمى في سبيل الأدنى إن هو سار وراء ميوله الطبيعية . إنه يستبعد أو يحد من تذوق اللذات الدنيا . وإن بدا له أن الجشع يحد من تأثيره بالفكر والشعور تحكم في شهوته . الرجل الهمجي يأكل ويشرب حتى يمرض ، والرجل نصف المتمدن يفعل ذلك حتى يتبلد . أما الرجل المتمدن فيحاول دائما أن يطور الطبيعة ومن المحتمل أن ينجح . يعزز من نفسه ناحية ويمحو منها ناحية أخرى . إنه لا يقبل الطبيعة كما هي ، ولست أرى سببا يدعو إلى هذا . أما أولئك الذين يقبلون الطبيعة على علاتها . أولئك الذين يرفضون التدخل في هذه الآلهة ، أولئك الذين عقدوا العزم على استبعاد كل ما ليس بالطبيعي — هؤلاء أنصحهم بالعودة إلى الصواب بأسرع ما تمسكنهم قدراتهم الطبيعية .

هكذا أصور الرجل المتمدن . فهل تصدمك هذه الصورة ولا تلاقى عندك عظفا ؟ لم يكن من شأنى أن أرسمها على غير هذا الشكل . وسواء رضيت عنها أو لم ترض ، وسواء ترققت فأسميتها « رسما تخطيطيا » أو نبذتها قطعا لأنها « ضعيفة » . سواء كان هذا أو ذاك فإنى أعتقد أنك توافق على أن الشخص الذى قصدت أن أصوره بها ، هو فى الواقع الشخص الذى نسميه متمدنا . إنه ليس الرجل الطيب ، وليس الرجل الطبيعى . إنه ليس الفنان ، أو البطل ، أو القديس ، أو الفيلسوف ، ولكنه يقدر الفن ، ويحترم الحق ، ويعرف كيف ينبغي أن يكون سلوكه . هدفه أن يستمتع بالحياة استمتاعا كاملا ، وأن يستمتع بها جملة وفى أدق نواحيها وأشدّها خفاء . ووسيلته الأولى لتحقيق هذا الهدف هى قوة الفكر

والشعور ، مهذبة إلى أقصى الحدود . إنه صاحب ذوق في كل الأمور .  
تطلعه الذهن لا حده ، لا يخشى شيئاً ، ولا ينطوى على غرض . إنه  
متسامح ، متحرر ، لا يُصدم . وإذا لم يكن دائماً ودوداً ظريفاً ، فهو  
على الأقل ليس شرساً ، ولا مرتاباً أو متعالياً ، إنه يتتق ملذاته قصداً ،  
ولا يجد انتقاه خوف أو هوى . إنه يميز بين الوسائل والغايات ، ومن  
ثم تراه يقدر الأمور لدلائلها الوجدانية أكثر مما يقدرها لفائدتها  
العملية . كل نفاق في الحديث عن «الحقوق» و «الواجبات» و «المقدسات»  
يهب بعيداً عنه كالقش والرمال ، يضايق ولا يؤذى . إحساسه بالقيم ،  
حينما يوجهه بذكائه ، كالإبرة التي يفتقأ بها الفقاعات المزيدة التي يثيرها  
الاستنكار الخلقى . إنه ناقد ، واع لنفسه ، وهو على كل حال — إلى  
حد ما — يحلل المواقف . ولا مناص له من أن يكون فذاً فريداً .  
ولما كان واعياً لنفسه كفرد كان قليل العطف على إجماع القطيع . ولما كان  
مهذب العقل والوجدان والحس ، فإنه يشق للحياة طريقاً يزيل منه  
— على قدر المستطاع — ما يعترضه من عادات وأهواء . كلا . إنه إن  
يكون طبيعياً أبداً .

إن النموذج الفذ للإنسان المتمدن قد يوجد — فيما أحسب —  
منفرداً ، مستوحشاً ، مستكفياً بذاته ، لقيمته الذاتية . ولكن الرجل  
التممدن لا يعنى بمدنا لغيره إلا عندما يجتمع حشد من المتمدنين . فجاعة  
التممدنين هي نواة المدنية . يقول فلتير «في النهاية تتحكم الجماعة الطيبة في  
الجميع في كل مكان» . والجماعة طيبة كانت أو سيئة — لا بد أن تتألف  
من أكثر من فرد واحد . وعندما توجد «الجماعة الطيبة» ، أو نواة

التمدين ، فإنها لاتسود — إن صح أن نتمتعها بالسيادة — إلا بطلاء البيئـة  
بلون خفيف . وهذه البيئـة — مدينة كانت أو دولة أو عصرأ —  
لا يمكن أن يقال عنها إنها أصبحت رفيعة المدنية ( كبيئـة ) إلا عندما  
يصطبـخ جانب عظيم من جمهورها بهذه الصبغة الغالبة — وإن بقي هذا  
الجمهور على قدر كبير من الهمجية إذا قسناه بتلك المعايير الدقيقة التي  
طبقتها على الأفراد . وفي العصور المحظوظة والبقاع السعيدة نرى أن  
جانبا كبيرا من السكان قد أبدى ميلا إلى المناظر والأصوات الجميلة ،  
وبدت عليه علامات تدل على تنبهه إلى التطوع الذهني ، كما أظهر قلقا من  
القيود الهمجية على الفكر والشعور التي تدفع بالغالبية عادة إلى تخوم  
الحيوانية . وقام بتزيين المدن كبار الفنانين الذين مفضلت أعمالهم عن  
وعى وقصد على أعمال الفنانين المتخلفين . وإنى لأؤكد عن يقين أن  
تمثال مس كافل لم يكن بالإمكان أن يعرض في أيينا لعهدبركيز أو فلورنسا  
المديشية . ولقد مرت عصور بدأ كثير من الناس فيها يحسون ببغض  
الكذب والجهل ، بغضا يذنبى على أساس عقلى وأساس جمالى فى آن  
واحد . وفى القرن الثامن عشر سخر فلتير متجاوبا مع الرأى العام من  
مؤلفين كان لديهم من العقل ما ليس لمستر بـاك أو سير أرثر كونان  
دويل . وفى ذلك العصر كان لا بد أن تكون جنازة فالنتينو نفسه أقل  
روعة من جنازة سير إسحق نيوتن . وكان الاثينيون يخصصون للفن  
أضخم اعتماد من الخزانة العامة . وكان الإيطاليون لعهد النهضة يعدون  
رفائيل أعظم أمجادهم الوطنية . ومن أمثال هذه الريشات يتبين المرء  
اتجاه الريح . ويؤكد لنا الفحص الدقيق صحة الانطباع الذى تكون

لدينا من أنه كانت هناك حقاً جماعات سادها وانتشر فيها تقدير عادل — وإن يكن غامضاً — للقيم العليا ولما في الحياة من جميل الأشياء ، بل سادتها رغبة في متابعة هذه القيم والأشياء ولو على حساب إشباع الرغبات الأكثر وضوحاً وجلاء . وكان ذلك من فعل جماعة من الأفراد الضالعين في المدنية . هذه الجماعة بتأثيرها في الجماهير لونت عصرها عن غير قصد وبطريقة غير مباشرة في أكثر الأحيان . أن الجماعات الضالعة في المدنية من رجال وسيدات هي التي نشرت الحضارة<sup>(١)</sup> .

(١) يدنا تاريخ « قصر رامبويه » بمثال قديم لقوم متمدنين انضم بعضهم إلى بعض لكي يتفادوا البيئة الهمجية التي تحوطتهم ، فسكوتوا نوا وتمدنوا عصرهم تدريجاً — وهم في الوقت عينه مثال لمادة تتعلق بموضوعنا ولا يمكن أن يتضمنها النص على وجه حسن . ففي السنوات الأولى من القرن السابع عشر نرى اللون الذي تضيفه الرامبويه على ما حولها وهو يفعل فعله ، وينتشر رويدا رويدا . ونرى هذه الجماعة وهي تولد جماعات أكبر منها من سلالتها المباشرة ، وتتضخم هذه الجماعات شيئاً فشيئاً ، وترداد في أهميتها ومدنيتها ، ولا تفتأ تنشر لونها ، حتى تبلغ الحركة أوجها في المدنية الرفيعة التي ذاعت في صائونات السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر .

ونقلنا عن بولنييه ( وهو حجة قوية في الموضوع ) « حوالي عام ١٦٠٧ أعلنت كاترين دي فيفون ، ماركيزة رامبويه ، وكانت إذ ذاك في العشرين من عمرها ، أعلنت سخطها على ما كان عليه رجال الهاشية في « فيرجالان » من خلق ، وعلى أسلوبهم في الحياة . فكفت عن ارتياد مجتمعات قصر اللوفر ، وقبعت في كسر بيتها .

ولما كانت هذه الماركيزة دمثة لطيفة وعلى جانب كبير من الثقافة ، ملدة باللغة الأسبانية واللغة الإيطالية ، فضلا عن ثرائها العريض ، وخفة روحها التي كانت تسحر بها من حولها ، فقد كانت تأوى إلى غرفة نومها حيث كان يلذ لها أن تقضى وقتها بعد العشاء ، كما تؤكد الآنسة سودري ، أو تقضى هناك يوماً من أيام =

== الصيف حيث كان السيدات يقمن السهرات في غرفهن للتخفف من شدة الحرارة .  
وكانت شديدة الحماسة لخدمة الحق والمجتمع . وفي يوم الاستقبال كانت تدعو  
شخصيات معينة من جنسها ، وسرعان ما أمسى قصرها مكانا تلتقي فيه جماعة مختارة  
من صفوة السيدات والسادة من أرباب القلم . . . . . وكانت لقصر رامبويه آثار  
أخرى ممتازة . ففي الحجرة الزرقاء لم يكن يطلب من الأتراء إلا التسلية والاستمتاع .  
وهنا كان موضع الابتكار . ثم إن السيد المهذب كان لا يهتم كثيرا بأن يسحر بأحاديثه  
وكتاباتاته . بل إن ما يتمناه أن يكون شجاعا أولا ، قويا ثانيا ، عظيما ، قادرا على  
السعة في الاتفاق . فالروح إغماهى وليدة هذه الصفات . ثم إنه لم تكن هناك قبل قصر  
رامبويه أية فكرة ترمى إلى أن تكون المناقشة وحدها متعة كبرى يسعى إليها  
الناس ، إذ يجتمعون لفرض واحد ، هو تبادل الحديث . وبسبب ما كان لجماعة  
رامبويه من مكانة ، سرعان ما كان الرائد يفقد منزلته حتى أن كان من النبلاء  
أنفسهم إذا لم يبد منه ما يكفي على الدلالة على أنه « رجل محلمص » أو رجل من  
رجال الحياة .

وكان من آثار قصر رامبويه عند لانسون « تنظيم الطبقة الارستقراطية في  
مجتمع مدني » . بيد أن المدنية سرعان ما تسفها الفوارق الطبقيية ، ففي القرن السابع  
عشر الحائر « كانت تيمش ( في الغرفة الزرقاء ) الدوقات إلى جانب سيدات الطبقة  
الوسطى وأرباب القلم — كما روى بولنييه — ولا تتصوروا أن الحديث كان تانها  
فقد كان هذا القصر قبل كل شيء صالونا أدبيا ، حيث كان المجتمعون يتبادلون  
قصائد الشعر وروائع الأدب . . . . . وكان هناك من يصغى . . . . . وكان هناك من  
يجادل . . . . .

وكان أفراد هذا المجتمع من صفوة الرجال والنساء يحضنون اللغة الفرنسية  
الرصينة فيناقشون في حرارة مشكلات قواعد هذه اللغة ، كما كان الاهتمام يدور  
كذلك حول أسلوبها في الغرفة الزرقاء — وكل هذا كان له من غير شك أثره  
في الأدب واللغة .

وفيما عدا الحلقة الصغيرة — حلقة أرتنيس التي لا يشق لها غبار — فإن طبقة  
النبلاء وخيار الطبقة الوسطى في فرنسا لم يتم تهذيبهم إلا ببطء وشيئا فشيئا . .

## كيف نصنع المدنية

بقى أمامنا سؤالان ، أولهما : هل نريد المدنية ؟ وثانيهما : هل نستطيع أن نظفر بها لو أردناها ؟

هل نريدها ؟ هناك من الأسباب — إلى جانب ما يراه ساسة الدول المتحالفة — ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن المدنية أمر مرغوب فيه . فهناك الاعتقاد الراسخ في قلب كل رجل مهذب وكل امرأة مهذبة . لأن كل إنسان مهذب — رجلاً كان أو امرأة — يحس أن تلك العصور الذهبية — التي حاولت أن أشير إلى صفاتها — كانت ذهبية حقاً . وإنا جميعاً لنشعر أنها كانت بما يشرف التاريخ . ولا يمنع ذلك من وجود جماعة من الأذكياء يمتنعون أن يتغنوا بجمال الهمجية . ومن العقلاء من يدرك عيوب المدنية ومفاتن الهمجية — وإنك لتلبس بين أرقى المتمدنين ميلاً — من حين إلى حين — للثورة على تهذيبيهم ، وكثيراً ما تجد فيهم شيئاً من السذاجة والحيوانية . إن في العودة إلى الطبيعة عن طريق الفنون والحرف ، وفلاحة البساتين وسوء فهم فلتير ، تناقض يقبله عادة المتمدنون الذين يحسون الحاجة إلى دواء مسكن — وليس هناك ما هو أقرب إلى الطبيعة من أن يؤلف أمثال هؤلاء جماعات تتحسر في براعة وفي نغم جميل على ملذات الجهل المنقودة ونعمة البلاهة الضائعة . ولا يدعونا البتة



إلى الدهشة أن تنال هذه الجماعات العطف الشديد ، أو أن يمدهم بالمال ، أولئك الذين لبثوا على همجيتهم لأنهم عجزوا عن أن يكونوا شيئا أفضل من ذلك — ومهما يكن من أمر فن المرغوب فيه أن يكون هؤلاء الأذكياء ، هؤلاء الذين يبشرون بالحنين إلى العصر الباليوليتك القديم ويجدون من يصغى اليهم ، من المرغوب فيه أن يبلغ هؤلاء ذكائهم أن يدركوا أن هناك فارقا جسيما جدا بين نظرية يذكرها صاحبها لمجرد الدعاية ، وبين ما يعتقد المرء فعلا . إن كل إنسان ذكي يدرك من صميم قلبه أن حياة المتوحش هي كما وصف هوبز — وذلك برغم ما فيها من فنون النحت ، ورقصات الحرب ، وتبادل المودة ، والاتداء السمراء ، وشم الموز . إنها حياة لا يمكن لنا احتمالها لما فيها من مخاوف غير طبيعية تحدى بالناس وتهددهم ، ولما تنطوى عليه من انعدام الاطمئنان المادى ، وانعدام التنوع — قد تهتز نفوسنا لما فيها من فنون خيالية للبناء ، وقد نعجب بمظهر التحمس للعقائد ، ولكننا ندرك من صميم قلوبنا أن العصور المظلمة كانت حقا مظلمة . إنا نعلم أن تلك الأيام الحاملة كانت تقع علينا كالكابوس لو عشنا فيها ، لما سادها من مخاوف مفرعة ، وآلام لها ما يبررها وما لا يبررها ، ونقص فى الأفكار الجديدة ، وموانع عاطفية وذهنية ، وتهديد مستمر بالدمار الشامل — وبعد ذلك النموذج الطيب من الهمجية الذى لمسناه بين أغسطس من عام ١٩١٤ ونوفمبر من عام ١٩١٨ ، عرفنا — نحن الذين نحن إلى العقل — أننا عدنا إلى الملمات المصطنعة التى تتيحها لنا حفلات العشاء الحديثة ، حيث نستطيع أن نجلس ونثور فى أمن واطمئنان ضد سكون الحياة المتمددة الذى يخلو

من دلائل البطولة ، وفي أفئدتنا إحساس بالتفريج عن النفس خفي  
ولكنه بعيد الغور .

هذه العقيدة الملحة — والتي تختفي كثيراً وتستر أحيانا — بأن  
المدنية أمر تشتد رغبتنا فيه ، هذه العقيدة ربما كانت خير ما لدينا من  
سبب يدعونا إلى افتراض أن المدنية شيء محبب إلى النفوس . وكل من  
يريد لذلك سندا من الفلسفة يستطيع أن يلتمس هذا السند . فإن  
فلاسفة الأخلاق يقولون له إنه ينبغي له أن يرغب في المدنية : إذ يبدو  
أن الفلاسفة على اتفاق تام بأنه ليس هناك ما هو خير في حد ذاته سوى  
بعض حالات العقل التي تبرز من بينها حالات الخلق ، والتأمل ، والتدبر ،  
والحجة . ومن المؤكد أن المدنية لا تقوم بما يهوى الخلق الفنى .  
والفنانون يظهرون في المجتمعات المتمدنة كما يظهرون في المجتمعات  
المتوحشة . والجو الذى يبلغ فيه التكلف أقصاه قد يكون خائفاً لأحد  
الفنانين ولكنّه لغيره مجال للتنفس . إن نظرة إلى التاريخ تقنع  
كل من يستطيع قراءته أنه ليست هناك علاقة معينة بين الإنتاج الفنى  
لعصر من العصور ، كما وكيفما ( وإن كنت لا أقصد الوصف السطحي )  
وبين درجة حضارة هذا العصر . وإذا كانت المدنية أقل ملاءمة لنشوة  
العقيدة التي لا تستند إلى عقل ، فهي — على الأقل — لا تقاومها مقاومة  
إيجابية . فهي لا تمنح ولا تضطهد . في حين أنها تشجع المتع النفسية  
الأخرى ، التي يحسها أولئك الذين يكرسون حياتهم للعلم ، والفلاسفة  
المتفكرون ، وعلماء الرياضة ، ورجال البحث ، وكل باحث وكل مفكر  
— وليس ذلك لحسب ، بل إن المدنية كثيراً ما تكون وحدها العامل

الذى يجعل هذه المتعة ممكنة . أما حالات التقدير والتأمل ، فهي من صميمها — وكذلك العلاقات الشخصية . ولا يُنكر في الواقع أن الرجل المتمدرن الذى يبحث عن المتعة الفائقة ، هو بطبيعته — ولا بد له أن يكون كذلك — هاو لحالات عقلية رائعة . ومن ثم فليباركه أساتذة الأخلاق .

ولكن المذاهب الأخلاقية عقيمة في أحسن حالاتها ، وميل الأساتذة للخلط بين الأخلاق وقواعد العرف كثيرا ما تجعلهم جماعة منفردة . بيد أنا في ثورة غضب ضد هذه الجماعة ننادى بحرارة بأن أشوربانيال كان محقا في انكيال (١) حينما نقش هذه العبارة التي استرعت نظر ارستوبولوس (٢) « كلوا ، واشربوا . . . العبوا . فإن ما خلا ذلك لا يساوى قلامة خضر » . بيد أن أشوربانيال كان مخطئا . وسرعان ما تصبح الحياة التي يوصى بها مملّة كالحياة المثالية التي يوصى بها الأخلاقى المحترف . فإن الإنسان الذكى لن يقنع طويلا بالم لذات الحيوانية . وإنما هو يضع لذة العقل والعاطفة في المقدمة ثم يضع الم لذات الحسية في المؤخرة ، فتكوّن أساساً خلقياً قاتناً . وهذا هو المكان الذى تعينه لها المدنية على وجه التحديد .

أما لماذا يرغب الناس في المدنية فسؤال آخر يجدر بي أن أجيب عنه . ما هو الدافع الذى يُخرج عددا معينا من المتوحشين عن حالتهم

---

(١) مدينة في الأناضول .

(٢) فيلسوف عاش في القرن الرابع قبل الميلاد .

الطبيعية التي تسودها الخرافة وغريزة القطيع إلى حالة التأمل والفردية؟  
يجب عن هذا السؤال أولئك الذين يعرفون أنه لا بد أن يكون الباعث  
على هذا الإخراج دافعا من الدوافع . ولا يدهشني إذا اكتشفوا ذات  
يوم أن هذا الدافع الفريد لم يكن شيئا أنضل مما عرف عنا من تذوق  
للذة المجردة . ومهما يكن من أمر فن الممكن أن يرى الباحث أن المدنية  
كانت نتيجة لهذه الرغبة العامة . لأنك لا تنكر أن أنبل رجل متوحش  
محروم من كثير من ملذاتنا بسبب الخوف والجهل ، سواء شاطرت هو بز  
الرأى أو لم تشاطره بأن حياة الرجل الطبيعي قدرة وحشية قصيرة . الرجل  
المتوحش لا يستمتع البتة بأية متعة من المتع التي يستمدها المرء من حرية  
التفكير ، وقلبا يستمتع بالمتع التي تولد عن الذوق . وليس من شك في  
أنه يستمد متعة من فنون النحت والنسيج عنده ، وليس من شك في أنه  
ينعم بنوع من أنواع الموسيقى — وكل ذلك مما تقدره نحن أيضا . ولكنك  
لو عرضت على أنبل المتوحشين مسرحية لأرستوفان أو شيكسبير أو  
راسين ، أو فن الفسيفساء البيزنطي ، أو پوسان ، أو الموسيقى الحديثة  
أو السمفوني ، أو حوارا دقيقا ، أو حديثا فكها ينم عن ذكاء ، أو غزلا  
معقدا ، إن أنت فعلت ذلك ، اعترفت فيما أظن — بأن ضعف الثقافة  
يحرمه من ملذات اكتسابها تذوق الاستمتاع بها . يقول ماك كويدي  
« المتوحش لا يضحك مطلقا » . وإنى أعتقد أن ماك كويدي مخطيء ،  
ولكني أتصور أن المتوحش قلبا يبتسم . إنه يفتح فاه . ولا يرفع قط  
كتفا أو حاجبا . وليس التسع الذهنية أو الظلال الدقيقة للعاطفة معنى لديه .  
ملذاته محدودة تسير على وتيرة واحدة . وكمن الآلام يحتمل مما هو ضروري  
وغير ضروري . ذلك لأن أقوى أسباب الألم ، وألد أعداء المتعة ،

هو الخرافة والجهل والعاطفة التي لا سلطان لصاحبها عليها — وتلك هي  
 عيزات الهمجية الأساسية . إن الرجل الكاثوليكي الحديث ، قد يكون  
 يدينا هما ، يتناول اللحم والنيذ ، ويمتلئ قلبه بالحق ، ثم يجمع قائلا  
 بأنه سعيد وإنه مؤمن . بيد أنه برغم هذا لا يعتقد فعلا في الخرافة ،  
 وهو في ذلك يختلف عن الرجل الهمجي . إن كان سعيدا فذلك لأنه يعتقد  
 صادقا في أمور قليلة سوى قدرته على الهضم . ولولا ما تقدمه له المدنية  
 في الوقت الحاضر من أمن وعلم ، ما طال اعتقاده في هذه القدرة . إن  
 عقيدته لم تبلغ بها الحرارة أن يدرك ما هو الفزع الخرافي . ولكن الفلاح  
 في العصور الوسطى الذي كان يؤمن بأنه بمتابعة ميوله يسير رأسا إلى  
 الجحيم المقيم ، والرجل الهمجي الذي يعيش خائفا من أن يقرب  
 المحرمات — هؤلاء يعرفون الفزع ، ويقضون شطرا كبيرا من حياتهم  
 في ألم واضطراب نفسي . وتستطيع المدنية أن تقدم لهم بأن تبين لهم أن  
 الحياة شيء يستمتع به المرء ، ثم تبين لهم بعد ذلك كيف يستمتعون بها ،  
 وذلك بأن تخرجهم عن اعتزازهم بنعمة الامتلاء والرضا بالراحة وبغض  
 كل ما عداها — إن كان بهم أدنى ميل إلى الملذات الدقيقة . كما تظهرهم  
 المدنية كذلك على عالم من الآراء يكتشفونه ومن العواطف يحسونه .  
 المدنية — كالشيطان — تظهر المرء على كل مالك العالم — عالم الروح —  
 في لحظة من الزمان ، وتدفعه إلى امتلاكها . وربما — بعد هذا كله —  
 كان ذلك الدافع الخفي الذي كنا نبحت عنه هو الشيطان — الذي عرف  
 في بلاد أخرى وعصور أخرى باسم بروميثيوس .

ومهما يكن من أمر ، فأنا على يقين ، من أن كل امرئ قادر على فهم

هذا التعبير إذا خلاص في الإجابة عن هذا السؤال : هل أريد المدنية ؟  
لم يجد مفرا من الاعتراف بأنه يريد بها ( ولكن كم من الناس يستطيع الإدراك ؟ ) . وأنا أعرف كذلك أن الفلاسفة يقولون له أنه من الواجب عليه أن يريد بها . غير أنه فوق علمي أن أعرف إن كانت الأثرية قد أرادت المدنية أو سوف تريدها . أكثر الناس يريد اللذة ، ولكنها لا تطيق بعد النظر ، والمدنية ليست بالطريق الواضح . إن الهمجي الذي أخذ الأرنب إلى بيته وطهاه كان رجلا شاذا . ومن حسن حظي أنه ليس من شأنى أن أحمل الأثرية على التنبؤ بالمستقبل . ولكن مادمت قد حاولت أن أفسر ما عنيت بالمدنية ، وما دام ذلك غاية أرمى إليها ، فسوف أسمح لنفسى بالإشارة إلى الوسائل . سوف أرسم صورة عامة للأداة التي يستطيع بها الناس أن يخلقوا المدنية ، إن كانت المدنية ما يريد بها الناس .

الشعب المتمدن ، الذي يتميز عن تلك النواة التي تضفي عليه المدنية ، يتألف من رجال ونساء يتخذ الجانب الأكبر منهم موقفا فيه شيء من النقد للحياة ، ويتصف بتذوق بدائي للتفوق والامتياز . إنه يحاول بصورة غير مهذبة — وإن تكن واعية — أن يدرب نفسه على استغلال قوى التفكير والشعور التي يمتلكها أكبر استغلال . وقد اكتشف أهل اسبرطة أن مجتمعا بأسره — أو على الأصح الجانب الحر من هذا المجتمع — يمكن أن يدرب نفسه على القتال . وكان الأثينيون — على قدر ما وصل إلينا من علم — أول من دربوا أنفسهم ، عامدين ، على تقدير الحياة . هذا التدريب المقصود الواعي بنفسه صفة مميزة من صفات المدنية . وما يترتب عليه من استمتاع ، تلك الحالات العقلية الطيبة التي

تنجم عنه ، هو الغاية التي تعتبر المدنية إحدى وسائلها . وأقول « إحدى الوسائل » لأن المدنية وإن كانت أخصب ما نعرف من وسائل إلا أنها ليست الوسيلة الوحيدة للخير . وهذه الوسيلة — التي تؤدي على الأرجح إلى الخير — التي استطاعت فطنة الإنسان — حتى الآن — أن تبدها — كما رأينا — ليست سوى ذلك اللون الذي تضيفه على المجتمع نواة قوية — وإن تكن صغيرة — من الأفراد الضالعين في المدنية . ومن ثم فإن الجماعة التي تريد أن تمدن نفسها لا بد أن تكتشف أولاً — ثم تنشئ — ثانياً — تلك الظروف التي تلائم إنتاج المدنيين .

لا يستطيع (١) امرؤ أن يتفوق في المدنية — وسوف استعمل منذ الآن « التفوق في المدنية » تعبيراً أميز به بين المدنين ومجرد المتمدنين الذين يتلونون بلونهم — أقول لا يستطيع امرؤ أن يتفوق في المدنية دون أن يتوفر له قسط كاف من الأمن المادي . والواقع أن الدولة لم تخرج إلى حيز الوجود إلا نتيجة للرغبة في الأمن المادي . وأرجو ألا تسارعوا فتحسبوا أن الأمن المادي وحده يستطيع أن ينتج أي لون من ألوان المدنية — ولندكر الجماعات التي تتميز بحسن التنظيم في العالم الحديث . غير أن المرء إن أراد أن يحيا حياة متفوقة في المدنية لا بد أن يتوفر له الطعام ، والدفع ، والمأوى ، والجمال . والفراخ ، والحرية . ولذا فهنا — من أول الأمر — يواجه الرجل الذي يجب الإنسانية ويتحسس لها ، والذي يتأثر بفصاحته فيصمم على أن يكرس قدراته السياسية لرفع شأن

(١) هذا رأى المؤلف ولا نوافق عليه ، بل نراه موضع شك كبير .

المدنية— يواجه هذا الرجل سؤالاً عاجلاً شاذاً وذلك هو : كيف نستطيع أن نمد القلة الممددة بالأمن والفراغ اللازمين إلا على حساب الكثرة ؟

والجواب إنه ليست هناك وسيلة أخرى نمدهم بها : أن مواطنيهم ينبغي لهم أن يعولهم كما فعلوا من قبل دائماً . المدنية تحتاج إلى طبقة فارغة ، والطبقة الفارغة تحتاج إلى وجود الرقيق — أعني أولئك الذين يخصصون جانباً من فائض وقتهم ونشاطهم لعول غيرهم . فإن أحسست أن مثل هذه التفرقة لا يمكن احتمالها ، فلتكن شجاعاً وتعترف أنك تستطيع أن تستغنى عن المدنية ، وإن المساواة — لا الخير — هي ما تريد . إن المساواة التامة بين البشر لا تتفق إلا مع الهمجية التامة . ولكن ليذكر من يزعم حب الإنسانية — قبل أن يدعو إلى الهمجية — أن بين الناس من يرغب في الخدمة أو أن يبنهم — إن شاء — من يرضى بالتضحية في سبيل مثل أعلى .

ومهما يكن من أمر فإنه من الواضح أن المرء لكي يكون كامل المدنية ، ولكي يمارس أعماق الحالات العقلية وأروعها لا بد له من الأمن والفراغ . لا بد أن يتوفر له ما يكفي لطعامه وشرابه ، وما يضمن له ذلك . ولا بد أن يتوفر له الدفء ، والمأوى ، وشيء من المجال ، وكل ضرورات الحياة وبعض ما فيها من أسباب الترف . والفراغ كذلك ضروري . لا بد له من الفراغ لكي يربى نفسه على الاستمتاع بالخيرات ، ومن الفراغ ما يمكنه من متابعة الاستمتاع بها . وكذلك يجب أن تتوفر له الحرية ، الحرية الاقتصادية التي ترفعه فوق مستوى الظروف التي تحطم الروح ، وتسمح له بالعيش كيفما وحيثما أراد ، والحرية الروحية — حرية



التفكير والشعور والتعبير والتجربة ، يجب أن تتوفر له الحرية لكي ينمي قابليته ، وأن يضعها دائماً في طريق المغامرة . إن المرء لكي يظفر بخير ما في الحياة يجب أن يعيش من أجل خير ما فيها .

بيد أن الأمن المادى والفراغ والحرية ، كلها — لسوء الحظ — تتطلب المال . والمال في النهاية لا يمكن الحصول عليه إلا بالعمل المنتج . إلا أن كل ضروب كسب المال تقريبا عقبة في سبيل حالات العقل الغزيرة الدقيقة . لأن جميعها تقريبا تتعب الجسم وتبطل الذهن . ويؤكد هذه الحقيقة الثابتة مثل الفنانين ، الذين يكف أكثرهم عن الخلق بتاتا إذا اضطروا إلى العمل في تحطيم الأحجار أو جمع الأوراق ست أو سبع ساعات كل يوم . ثم إن الرجل الذى يتعلم كيف يكسب العيش لا يمكن أن نحسن تربيته على استغلال الحياة على أحسن وجه . فلنكن نتيح للشباب أن يمارس خير ما في الحياة لا بد له من تربيته حرة محكمة حتى سن الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين ، تبقى في نهايتها الحاجة إلى الفراغ شديدة الإلحاح ، لأن الإحساسات المرهفة عالية التدريب لا تعيش إلا في ظروف حرة فسيحة . كم من ألوف المحامين ، وموظفي الحكومة ، ورجال الأعمال ، الذين تخرجوا في أكسفورد أو كمبردج مؤهلين للاستمتاع بخير ما في الحياة ، كم من هؤلاء أمسى — بعد ثلاثين عاما من النجاح المتواصل ، عاجزا عن الاستمتاع بأى شيء يفضل نشوة الخمر أو الصداقة العاطفية ، أو الروايات الرخيصة ، أو الصور الأرخص ، أو الموسيقى الشعبية ، أو الصور المتحركة ، أو الجولف ، أو ما يروى في غرفة التدخين من حكايات ، أو الأمر والنهى . أما عن العمل البدنى ، فإن من يزعم أنه

بعد عمل يوم كامل في الحفر أو السباكة ، أو الصيد والقتص ، يكون في حالة تمكنه من استساغة نواحي النشاط الروحي الذي تتميز بدقتها ، من يزعم ذلك فإنه يقول كلاما ليس له معنى .

بل أكثر من ذلك أن توفر الأمن والفراغ والحرية وحده يمكن أن يعطي المرء ذلك الإحساس بالاطمئنان وتلك النخوة التي لا تبلغ الحياة بغيرها أو في مراحل تطورها وأعلىها . ولا يعرف كيف ينفق المال — على وجه العموم — إلا أولئك الذين لم يضطروا قط لكسب المال . أولئك وحدهم لا يزنون المال بأكثر مما يستحق — فهو وسيلة لما يريدون . وإذا كان التحرر من العمل الشاق وحده هو الذي يبقى على المرء حدة ذهنه ، فإن الاستقلال وحده هو الذي يعطي المرء الشجاعة على استخدامه ، فلا يحتفظ بقوة الفكر والشعور بإخلاص مطلق إزاء كل موضوع إلا أولئك الذين لم يضطروا قط إلى إرضاء سيد أو التقرب إلى زميل . أولئك وحدهم يعرفون كيف يتخلصون من الغرض تماما ، وكيف لا يخضعون البتة للأهواء ، وكيف يتابعون فكرة دون النظر يمنة ويسرة ليتثبتوا من ملاساتها العملية ، وكيف لا تؤذيهم ضمائرهم في اتباع المنطق ، وكيف لا ينزلون عن شيء من ميولهم . هل يمكن لقائد من قواد الصناعة مهما يكن ذكيا أن يتجرد من الأهواء تماما حين يناقش الاقتصاد السياسي ؟ وهل يمكن لأسي أفلاطوني — إن كان كذلك معلما مأجورا لليونانية — أن يحكم على التربية الكلاسيكية بمزاياها فحسب ؟ بل إن الاشتراكيين أنفسهم — إن كانوا كذلك من صغار العمال المأجورين — لا يستطيعون أن يفكروا بعقول متحررة في الموضوع

الذى يجادل فيه : هل تتفق المساواة الاقتصادية مع أعلى درجات الخير ؟  
في حين أن الاشتراكية نفسها من ابتداع المفكرين من الطبقة المتفرغة ،  
وأولئك أساسا هم الذين دفعوها إلى ميدان السياسة العملية .

إن وجود طبقة متفرغة لا بد منه كوسيلة للخير ووسيلة للبدنية . أى  
أن الرجال والنساء الذين تتألف منهم تلك النواة التى تشع المدينة منها  
لا بد أن يتوفر لهم الأمن والفراغ ، والحرية الاقتصادية ، وحرية  
التفكير والشعور والتجربة . إذا أراد المجتمع المدنية فلا مناص له من  
أن يدفع ثمنها . لا بد له من أن يعول طبقة متفرغة كما يعول المدارس  
والجامعات ، والمتاحف ومعارض الصور . ويقتضى ذلك التفرقة —  
التفرقة كوسيلة للخير . إن المدنية كلها استندت على هذه التفرقة . فكان  
للأثينيين عبيدهم . وكان العمال المأجورون الذين ليس لهم حق التصويت  
في فلورنسة يقومون بأود الطبقة التى أسبغت على فلورنسة ثقافتها . ولا  
يستمتع بنعمة العدل الاجتماعى سوى الاسكيمو ومن إليهم . لا غنى لنا  
عن طبقة متفرغة إذ قل من الناس من يولد قادرا على أن يكشف لنفسه  
عن عالم الفكر والشعور الذى ينبثق منه خير ملذاتنا ، وإن قدرات هذه  
الفئة لتفسد إذا لم تلق الرعاية وتصبح بذورا فى العراء ، ثم إن المجتمع  
الذى يتمدّن ينبغى أن يتشبع وأن يتغذى دائما بالتأثير اللاشعورى لهذه  
الفئة الممتازة التى تشع منها المدنية . يجب أن نتلقن الغالبية أن عالم الفكر  
والشعور موجود ، ويجب أن تطلع — وهى تكمن خلف عالم ملمول من  
المنفعة العملية — على أهمية العالم العاطفى . وواجب القلة الممتازة أن  
تشير إلى الطريق . إن أفراد هذه القلة الضالعة فى المدنية لا ترشد ولا

تحاضر ، وإنما تكتفى بأن تحيا حياتها . وسيتبين من عيشهم أن لهم  
 ملذات ورغبات ، وقيم ومعايير ، وموقف من الحياة ، ووجهة نظر ،  
 تختلف عما يتصف به الجمهور العامل . إنهم يعيشهم عيشة سلبية يصبحون  
 عوامل إيجابية للخير . إذ أنه عندما يظهر أن القلة قد اكتشفت متعا  
 غزيرة مشبعة لم يتنبه اليها الباحثون عن اللذة بمن هم أقصر نظرا وأقل  
 موهبة ، عندئذ تبدأ الكثرة في التساؤل . فإراهم يتساءلون : أليست  
 هناك ملذات تفضل ما لدينا ؟ هل يمكن حقا أن يعنى الفن والفكر ونشاط  
 الذكاء والخيال والعلاقات الشخصية الدقيقة لهؤلاء الأفاضل أكثر مما يعنى  
 سباق الخيل وسباق الزوارق ، والصيد ، وكرة القدم ، والسينا ،  
 والويسكى ؟ سوف يتبين ذات يوم مشهود وبغير لبس أو غموض أن  
 ألوان النشاط الأولى تعنى فعلا أكثر مما تعنى ألوان النشاط الثانية .  
 وإن هناك من الناس من يستطيع الثانية ولكنه يؤثر الأولى .  
 ويدعوننا ذلك إلى التفكير . وقد يظهر بين الحين والحين من الهمجين  
 من يمعن في البحث والتساؤل . فيساوره الشك والقلق إزاء تلك الملذات  
 الواضحة التي كان يسلم دائما بتفوقها . فهل لا يمكن أن تكون الملذات التي  
 لا يسهل اكتسابها أفضل في السعى وراءها ؟ فهب عليه عقب المدينة  
 خفيفا ، كما تهب أحيانا رائحة الحشيش الجاف ذات مساء صائف في  
 أخريات شهر يونيه على الأحياء الفقيرة في الضواحي . فيشتم في هذا العبق  
 بصورة غامضة رائحة طيبة — أو على الأقل رائحة تفضل ما كان يهب  
 عليه من قبل . وإذ هو يحترق الميدان العام الذي عبره من قبل ألف مرة  
 يفاجئه إحساس بالسعادة لا يستطيع تفسيره ، ويحمد نفسه وقد وقف  
 يحدق في نافورة جميلة ، وشعر بالحنج لهذا الذهول الذي أصابه . وقد

يحدث بعد ذلك أى شيء . وقد يغلبه شعور مفاجئ . بالرضى حينما يكتشف تناقضا فى الصحيفة التى كان يقرأها حتى ذلك الحين مبجلا لما تحتويه غير ناقد لما فيها . وعلى ناصية إحدى الطرقات قد يستمع إلى خطيب يستنكر بشدة قيام حكومة أجنبية بعمل فشلت حكومته هو فى أدائه ليجد فى هذا الاستنكار تسلية أكثر مما يجد فيه إحقاقا للحق . وقد يتبين له بقتة أن ما صرح ببطلانه أو بمنافاته للأخلاق أحد الأساقفة أو القضاة لا يقوم على أساس . فيجد هذا الهمجى ذات يوم — من أثر المباغثة السارة — أنه يسخر مع بوكاشيو من الرهبان .

ويبدولى أن الرأى القائل بأن الطبقة المتفرغة وحدها هى التى تتولد عنها فئة ممتازة متفوقة فى المدنية وناشرة لها ، يبدولى أن هذا الرأى تؤيده الحجج الدامغة ويتمخض عنه التاريخ . فى أثينا وفلورنسة وفرنسا فى القرن الثامن عشر كانت هناك طبقة دنيا مأجورة تقوم بالعمل الوضيع . والظاهر أن محبى الإنسانية ينسون أن الثقافة الإثنية كان يعولها العبيد . بيد أن من يريد أن يكشف الظروف الضرورية لقيام المدنية يجب ألا ينسى ، ويجب أن يذكر أن ثلثى — إن لم يكن ثلاثة أرباع — السكان فى إمتكا كانوا عبيدأ ، ويجب ألا ينسى أن القيادس كان استثناء . كانت فى أثينا قلة من الأغنياء . وليس هناك تنافر بين المدنية والاشتراكية : إن الدولة الاشتراكية إن أرادت أن تتمدن لابد لها من أن تعول طبقة عاطلة عن العمل كوسيلة من وسائل الخير ، كما لابد لها أن تعول المدارس والمعامل . والسؤال الوحيد هو كيف نتقى هذه الطبقة . إنها فى الوقت الحاضر تختار بالوراثة ، وهو نظام فيه إسراف شديد . ليس هناك

ما يدعوننا إلى الفرض بأن أبناء الأغنياء أفذاذ في الذكاء والحساسية،  
والواقع أن نسبة الطبقة المتفرغة الحالية التي يمكن وصفها بالتفوق  
في المدنية، ضئيلة إلى حد بعيد. إن إنجلترا الحديثة تعول جمهوراً من  
العاطلين ليس من بينهم عدد من الرجال والنساء المتفوقين في المدنية  
يمكن أن تتألف منه نواة تمدين. ومن الواضح أن مثل هذا النظام  
غير اقتصادي. ونستطيع أن نفترض — دون أن يكون تفاؤلاً في غير  
موضعه — أن المستقبل يمكنه أن ينتكر طريقة من الطرق تستبعد من  
من الطبقة المتفرغة على الأقل ثلثي أولئك الذين تحمل أسماءهم أسمى  
الألقاب والذين تتحلى بصورهم المجلات الأسبوعية. وأعتقد أننا نستطيع  
أن نحفض تكاليف الإتفاق على نواة العاطلين إلى حد كبير دون أن  
نضحى بما هو أثنى من آسكت وكاوز. وليس من شأنى هنا أن أرسم  
الوسيلة لذلك: فالمشروعات في ذهن كل فرد. ونستطيع أن نقول كلمة  
عن امتحانات المسابقة، نستطيع أن ننقل إلى الطبقة المتفرغة التي تنفق  
عليها الدولة أوائل الطلبة والطالبات في مدارس الدولة كل عام. وإن  
كنت مثل تعتقد أن من المهم أن يبدأ إعداد أبناء الطبقة الممتازة منذ  
ميلادهم، فليكن الاختيار بالاقتراع. إنك لو اخترت الطفل الذي يكون  
ترتيبه الأولين بين أقرانه وجعلته عضواً، فإنك سوف تحقق بالتأكيد  
نتيجة تفضل ما تحققه من النظام الحاضر. وأذكر كذلك أنه ليس من  
الضروري أن يكون العاطلون عن العمل جميعاً الذين يقع عليهم اختيارك  
من الطبقة الرفيعة. غير أنه من الضروري أن تكون النسبة المختارة  
كافية. فإن أية طريقته تسلكها لا بد أن تؤدي بك إلى أفراد يثبت فيهم

سوء الاختيار . بيد أن ذلك ليس بأمر ذى بال . فالعدد مهما انخفض لا يؤثر في الهدف الأساسى ، وهو أن تكون هناك طبقة من الرجال والنساء الذين لا يطلب منهم شيء ما — حتى أن يبرروا وجودهم ، ذلك لأن كثيراً من أصحاب الفضل على الإنسانية ، وأكثر كبار الفنانين والمفكرين ، وأكثر المبشرين بالمدينة ممن لا تذكر أسماءهم من غير شك ، أكثر هؤلاء لم يبرروا وجودهم فى أعين أغلب معاصريهم . إن عصرهم لم يستطع — على وجه العموم — أن يقدر خدماتهم . ولم يمكنهم من البقاء سوى وجود طبقة متفرغة كانوا ينتمون إليها أو وجدوا من بين أفرادها من يرعاهم . ومن ثم كان وجود طبقة متفرغة مستقلة تمام الاستقلال ليس عليها أى التزام ، الشرط الأول ، لا للمدينة فحسب ، ولكن لأى مجتمع له نوع من الكرامة . إن أعلى الأمور قيمة وأشدّها مشقة لا يؤدى بالإرغام ، بل ولا يؤدى بدافع من الاحساس بالواجب . ولكنك إن خلقت طبقة لا تتطلب منها شيئاً ، فكن على يقين أنه سيخرج من بينها أولئك الذين يقدمون لنا الكثير .

وأرجو ألا تحسب تلك الفئة التى تتقاضى أجوراً مرتفعة من هذه الطبقة المتفرغة . فإن أولئك الذين يكسبون الألواف العديدة من الأموال كل عام عن طريق تجارتهم ، أو مهنتهم ، أو خدماتهم ، لا يفضلون فى شيء العبيد الذين تغدق عليهم الأجور . وهناك بطبيعة الحال لهذه القاعدة استثناء ، ولكن هؤلاء الذين يشدون عن القاعدة يصبحون — عادة — بطبيعة حياتهم عاجزين عن بلوغ كمال المدنية شأنهم فى ذلك شأن العامل اليدوى الذى يعجز كذلك بطبيعة عمله . والواقع أنه إذا

ما أمسى من أولئك الذين يطلق عليهم « قادة الصناعة » أو « كبار مستخدمي  
 العمال » فانه كسيد يكون أقل مكانة من الرجل العادى . لأن مستخدم العمال ،  
 والصانع الكبير ، بل والصانع الصغير ، يميل — فى هذا الشأن — إلى  
 اكتساب شهوة الحكم . والاعتقاد فى النجاح كعيار للقيم ، وإحساس  
 بأهمية ما يقوم به من عمل ، مما يباعد بصفة خاصة بينه وبين التفكير  
 الواضح والشعور الدقيق . ومن ظريف التعليقات على التفكير السياسى  
 الحديث أننا نميز فى فرض الضريبة بين الدخل المكتسب والمال غير  
 المكتسب ، ونؤثر الأول فى المعاملة . إن الرجل الذى يكتسب ماله  
 يستعمله عادة وسيلة للاستزادة منه ، ووسيلة للنفوذ ، والاعتبار ،  
 والتظاهر ، والملاذات الحيوانية والمتع البربرية . يجب أن تبحث عن  
 تلك الطبقة المتفرغة التى تستخدم المال وسيلة للخير بين أولئك الذين  
 يتناولون دخلا غير مكتسب . إن الرجل الذى يكسب المال يميل إلى  
 الجود ، وقسوة القلب ، وضيق الأفق ، وانقباض النفس . إنه يتمسك  
 بما يحصل عليه فى عنوة وشراسة ، ولا يكف عن محاولة الاستزادة .  
 إن أكثر نظريات الحرية والاشترائية والثورة صدرت عن الرجال  
 المتفرغين ، بل عنهم كذلك صدر ذلك التشكك فى حق الفرد فى الملكية  
 أو النفوذ الذى يكاد اليوم أن يكون صفة من صفات الثقافة . وقلبا  
 يكون للدخل المكتسب أى نفع كبير لغير صاحبه — وهو كذلك  
 كراس مال مجرد فى يد الدولة . فى حين أن جانباً كبيراً من الدخل غير  
 المكتسب كان دائماً ينحصر لعول أولئك الذين يقدمون للبشرية  
 أكبر الفوائد من عملهم الذى لا يعود عليهم بالربح الوافر . فإذا كان



المبدأ الأساسي في فرض الضرائب هو امتصاص دخل الطبقة المتفرغة  
لمصلحة كاسي الأجور — صغارا كانوا أو كباراً — فإنما يدل ذلك  
على أن العصر ناقص المدنية .

يشير رينان في مقال شهير له — بما يدل من أسباب ممتنعة كعادته — إلى  
أن الوظيفة الحقيقية للطبقة المتفرغة هي أن تتعد عن مجرى الأمور  
وتكرس نفسها للاحتفاظ بالمعايير السليمة وذلك بتضحيتهم بالنافع  
في سبيل الحسن ، وبمحافظةهم على كرامة ما في الحياة من أمور رقيقة  
عسيرة المنال . الطبقة المتفرغة التي تشب على عادة الاستقلال ، هي في رأيه  
شرط ملازم للندنية . وإني بطبيعة الحال إلى هذا الحد أتفق معه : غير  
أنه في رأبي لا يقف على أرض صلبة حينما يخلص من ذلك — تلجيا  
لا تصريحاً — إلى أن الطبقة المتفرغة — إن كان لابد من بقائها — يجب  
أن تحكم . ولست أرى لذلك ضرورة . بل على العكس من ذلك يبدو لي  
من العسير إن لم يكن من المستحيل لأى إنسان يشغله السلطان مباشرة  
وبدرجة قصوى أن يكون كامل المدنية . أليس من تناقض العبارة أن  
تقول « الطبقة الحاكمة المتفرغة » ؟ إني أرجح إن ما كان بذهن رينان  
أرستقراطية تنقسم قسمين : طبقة متفرغة وطبقة حاكمة ، تنشآن على  
تقاليد واحدة ، وتختلفان في كل موقف من المواقف . وليس من شك  
في أن هذه الطبقة تؤدي إلى المدنية ، فهي تمهد السبيل لقيام طبقة متفرغة  
وأخرى حاكمة تعطف عليها . وقد كانت فرنسا تقوم على هذا النظام  
خلال المائة وثلاثين عاما من مدينتها العالية — بالرغم من أن لويس  
الرابع عشر قد استمد أكثر رجال إدارته من طبقة لم تكن نديلة اصطلاحا .

ويمكننا بسهولة أن نقسم الارستقراطية إلى طبقة عاملة وطبقة مفكرة .  
والطبقة الأخيرة هي التي تمدنا بالمدينة ، وأما الأولى فتمدنا بالحكومة .  
بيد أنه مما يفتقر إلى إثبات أن يكون الارستقراط العاملون خير الحكام  
— ولست أقطع في هذا برأى يؤيد أن يمارض . ومن الواضح أنه يجدر  
بالفئة التي تنشر المدينة ألا تكون لها كلفة في الحكم . ما دامت السلطة  
— كما رأينا — يحتمل أن تعبت بقدرات المرء الدقيقة . وهناك من ناحية  
أخرى خطر ارتآه رينان من أنه ما لم يكن للحكام تقاليد ومعتقدات  
وتعاطف ومصالح مادية يشتركون فيها مع ناشري المدينة ، فإن الإنسان  
بحمده وغبائه ، — وفي ثورته على هذا الاعتراف العام المكلف بالترفة  
بين الناس — يرفض أن يقيم أود الطبقة المتفرغة ، فيسمح للمجتمع أن  
ينزلق إلى الهمجية التي يتساوى فيها الجمع وبحكم فيها الجميع . ومن ثم  
ينشأ هذا السؤال : أى أنواع الحكم أكثر ملاءمة للمدينة ؟ وهو  
سؤال تكاد أن تستحيل إجابته .

إن أى نظام للحكم قد يكون ملائماً بشرط أن يمد عدداً كافياً من  
الأطفال بالتعليم الحر الكامل من جميع الوجوه ، وبشرط الإنفاق على  
هؤلاء الأطفال طوال حياتهم ، وأن تضمن لهم دخلاً يكفي حاجاتهم  
الثقافية ، وبشرط — قبل كل شيء آخر — ألا تطلب اليهم أداء أى  
عمل . إن القول بأن ما نسميه : « النظم الحرة » ضرورى للمدينة ،  
قول يناقضه العقل والتاريخ . فإننا نعلم أن مدنية النهضة قد أينعت وأثمرت  
في عصر الطغاة — ولست في حاجة إلى أن أذكر في هذا الصدد شيئاً  
عن الشرق — عن الصين والفرس ، فقد اتفقت معكم على ألا أذكر  
عنهما شيئاً . لأن « العجز السياسى » — كما يلاحظ بر كهارت بحكمة في

كتاباتته عن الطغاة الطليان « لا يعوق الميول المختلفة ومظاهر الحياة الخاصة عن الاتعاش بأقصى درجة من القوة والتنوع، (١) . ولكن حتى بعد أن تقرر الحكومة ، أيا كان نوعها ، أن تقيم أود طبقة متفرغة ، فإنه لا بد لها من تقدير التكاليف وتوزيعها . يستحيل علينا أن نقدر بكم تماما يستطيع المرء — رجلا كان أو امرأة — أن يحافظ على مدنيته، لأن التقدير يختلف باختلاف الظروف . لا أعتقد أن الشخص في الظروف الراهنة يستطيع أن يفعل ذلك بأقل من سبعائة أو ثمانمائة في العام الواحد ، والدولة — بطبيعة الحال — هي المسؤولة عن الأطفال . وكذلك يستحيل علينا أن نقدر أية نسبة من السكان يجب أن تبلغ ذروة المدنية كي تمدن بقية السكان إلى درجة معتدلة . كل ما يعرفه المرء أن النسبة في إنجلترا غير كافية . ويبدو أن الأمر يحتاج إلى إيضاح : إن مقدار الدخل غير المكتسب في البلاد جسيم . وعدد المنتفعين به عديد . وقد يرجع أحد الأسباب إلى أن عددا ضخما من أولئك الذين يتناولون دخلا غير مكتسب — ويجب بناء على ذلك أن ينتموا إلى الطبقة المتفرغة الناشرة للمدنية — يؤثرون أن يضاعفوا دخلهم بالإنتاج ، ومن ثم فإنهم يصبحون — على أحسن الفروض — نصف متمدنين . وسلب آخر هو أن مقداراً كبيراً من الدخل غير المكتسب يحشر في جيوب قليلة . هناك إذن إجراءان عمليان واضحان لا بد منهما للنهوض بالثقافة البريطانية ، قانون يرغم الأغنياء على التعطل عن العمل ، وقانون يلغى تلك الظاهرة الشاذة البربرية ، وهي زيادة دخل الفرد عن ثلاثة آلاف جنيه في العام .

(١) المهضة لبروكارت — الجزء الأول — صفحة ١٨٤ .

وقد تكون هذه نصيحة سياسية طيبة ، غير أني أخشى ألا تقر بنا كثيرا إلى الإجابة عن سؤالنا هذا : أى نوع من أنواع الحكومه يكون أكثر ملاءمة للمدنية ؟ ولكي نجيب عن هذا السؤال ونحن واثقون ينبغي أن نوجه أولا سؤالاً آخر ، سؤالاً سيكولوجياً : لما كانت الطبيعة البشرية على ما نعلم من حقد وأرتياب ، فهل يعقل أن يعول الناس بمحض إرادتهم وبعيون متفتحة — من أجل الخير الروحي ، ولكن بما يبهظهم مادياً — هل يعولون جماعة من الناس المتفوقين في المدنية يكون لها امتياز خاص ، ولكنها في ظاهر الأمر عاطلة عن العمل سعيدة ؟ لا يستطيع إلا رجال السياسة وضباط البوليس أن يذكر على وجه التأكيد ما تستطيعه وما لا تستطيعه الطبيعة البشرية ، وهؤلاء أترك هذا الواجب راضياً . ولكنني أعرف أمراً واحداً : ذلك أنه مالم يكن الناس قادرين على بذل هذا السخاء المستنير ، فإن الديمقراطية لا يمكن أن تتفق والمدنية .

لم تكن هناك قط ديمقراطية متمدنة ، ولكن من الحق كذلك أنه حتى القرن العشرين لم تقم في العالم ديمقراطية . أما فيما نسميه ديمقراطية في اليونان وإيطاليا فلم تكن سوى طبقة صغيرة ممتازة هي التي تمارس السلطة . وبرغم ذلك ، ولأنه كانت هناك خلال القرن التاسع عشر حركة مطردة نحو الديمقراطية — ولو أن جميع السكان البالغين في أى بلد من البلاد لم يظفروا حتى القرن العشرين من النفوذ السياسى بالقدر الذى يهيئ السبيل له نظام التصوت — برغم ما ذكرت ، ومن أجل ذلك ، فاني لو كتبت هذه المقالة عقب تخطيطها مباشرة — منذ عشرين عاماً —

لقلت إن مناقشة مستقبل المدينة في ظل أي لون من ألوان الحكم غير الديمقراطية عمل علمي بحث ربما لا يعود بأي نفع . غير أن الحرب قد غيرت كل ذلك . إن الحرب — وما استتبعته من كوارث — قد أثبتت لأبناء هذا الجيل تلك الحقيقة المرة ، وهي أن الاستبداد الحربي صورة من صور الحكم لا زالت ممكنة ، بل إنها المحتملة خلال الخمسين سنة المقبلة . ذكررتنا الحرب أن المصدر الحقيقي للسلطان لم يزل كما كان في الماضي : لا إرادة الشعب ، ولكن هيئة من الناس كاملة التسليم والنظام يمكن أن يوكل إليها تنفيذ أوامر الضباط دون تساؤل . وفي الفترات التي تتوفر فيها الراحة — كما حدث في أخريات القرن التاسع عشر — يميل المرء إلى التغاضي عن هذه الحقيقة ، لأنه قلبا ينشأ في أمثال هذه الفترات موقف يعتقد الناس فيه العزم على أن ينفذوا إرادتهم بأكملها بأي ثمن . فإن بين ما يحتاج زيد من الناس وما يؤثر عمرو في فترات الهدوء مجال لضروب لا تنتهي من التسوية والتوفيق ، ولكن جمال الحرب العظمى — كما عرضه ساسة الحلفاء — ينحصر في أن التوفيق أمر لا يجوز التفكير فيه . ومن ثم فإنني أعتقد أن ساسة الحلفاء يجب أن يكونوا أقل دهشة مما يبدو عليهم حينما يجدون أن عددا كبيرا من الناس قد أدرك أخيرا أنك إن أردت أن تفرض إرادتك بأكملها على غيرك من الناس ، فإن الطريق إلى ذلك هو أن تحمل الآخرين على أن يدركوا أن الأمر إما أن يكون طاعة عمياء أو عذابا وموتاً . الحرب أقرت في نفس كل امرئ ما عرفه الفلاسفة السياسيون في جميع العصور السالفة ، وهو أن أقوى حجة هي الخوف والقوة . أولئك الذين يستولون على أعظم قسط من

القوة ويستطيعون بث الرعب الشامل في نفوس الآخرين يمكنهم دائما  
— إن أرادوا — أن يحكموا .

وقد رأينا الألوف من الرجال — طبقا لقانون الخدمة العسكرية —  
ينزعون من بيوتهم ومن أعمالهم وملاهيهم ، ويدفعون إلى حياة يمتقونها  
يعقبها بعد وقت قصير موت يخشونه . وقد التحقوا بالجيش للأسباب  
عينها التي يدخل من أجلها الغنم المذابح . وأطاعوا لأنهم كانوا يخشون  
العصيان . وكان الأمر كذلك في كل البلدان المحاربة التي كان التجنيد فيها  
إجباريا . ولم أقابل قط رجلا أرغم على الالتحاق بالجيش خلال العامين  
الأخيرين من الحرب لم يقرّ بأن الدافع الوحيد له إلى القتال هو خوفه  
من الامتناع عنه . وعلى أية حال ، فما إن حل عام ١٩١٧ حتى فقدت  
القضايا التي كان يحارب من أجلها الجندي العادي كل معنى لها . فإن صدر  
إليه الأمر أن يتقدم إلى نيران الأتون المقدس الذي كانت تضحى عنده  
الأطفال (نيران ملوك Moloch) بدلا من أن يتقدم ضد عدوه ، كان الأمر  
لديه سواء . ولو أن هؤلاء الضحايا المروعون نودوا في تلك السنين من  
بين صفوفهم لخدمة الآلهة — وقد نودوا فعلا لذلك — لأدوا ما عهد  
إليهم من واجبات . وإذن فالحكومة المركزية — التي تعتمد صراحة  
على الصحافة الموجهة ، وعلى المحاكم العسكرية ، وذلك الفزع الذي تبعته  
في النفوس المحاكمات وأحكام الإعدام — الحكومة المركزية التي تملك  
النفوذ الذي يحمل الرجال على أداء ذلك ، تحمل أيضا النفوذ الذي  
يحملهم على أداء أي شيء — وقد وجد في روسيا وفي إيطاليا وفي

غيرهما من البلدان عدد من الحكام ذوى البصائر النافذة الذين أدرکوا  
هذه الحقيقة .

إن أصدق أصدقاء البلشفية لا يزعمون أنها تقوم على أساس من  
الرأى العام والعطف . كما أن شعبية الفاشية أمر يبعث على الشك . ومع  
ذلك فالحكومة الروسية والحكومة الإيطالية تستطيع أن تمنع الإضراب  
وترغم العمال العصاة على الإنتاج ، وهو ما لا تستطيعه أية حكومة ديمقراطية .  
إنها تستطيع ذلك لأن لنين وموسوليني يملكان الجرأة على تنظيم الحرس  
البريتورى واستخدامهم دوما استخداما معقولا . وإن النجاح الذى  
على أساسه أقامت قلة من الرجال القادرين من ذوى العزم والتصميم  
السلطان المطلق فى روسيا وفى إيطاليا — وما يزالون يمارسون هذا السلطان —  
هذا النجاح لا بد أن يثير الحقد ويجتذب خيال الحكام فى البلدان الأخرى  
من لم يصيبوا مثل هذا الحظ . ومن الممكن أن يحتذى فى العالم أجمع  
مثالهم بأية طريقة من الطرق . ولست أعرف أن المدنية تفقد شيئا  
من قيمتها فى نهاية الأمر من جراء هذا التبديل . فإن الثورة فى أول  
مراحلها قد تكون هدامة ، لأن الطبقة الصغيرة المتفرغة التى تنشر المدنية  
هى عادة أول من يهلك . ومن الطبيعى أن من يبقى من المجاهدين يحس  
إحساسا قويا بهاتين الحقيقتين . أولاها أنهم متمدنون ، وثانيتها أن  
الدمار قد لحق بهم . فزاهم لهذا يشكون من الشكوى من وحشية النظام  
الجديد . ومهما يكن ما تنتهى إليه التجربة فيما بعد ، فإن نتائجها المباشرة  
سيئة بالنسبة إليهم . وهؤلاء المنبوذون المحطون المجردون من تراثهم  
لا يمكن أن تتوقع منهم أن ينظروا إلى الموضوع نظرة فلسفية ، أما

نحن الذين لم يمسسنا سوء تقريباً فليس بوسعنا — إن كنا حقاً على شيء — من المدنية — أن ننظر إلى الموضوع من وجهة نظر أخرى . وعند النظر إلى الموضوع نظرة فلسفية لا نملك إلا أن نعترف بأنه ليس هناك مبرر قوى يحملنا على الاعتقاد بأن الاستبداد العسكرى الروسى سيسير فى اتجاهات تختلف كثيراً عن الاتجاهات التى سارت فيها حكومات أخرى عسكرية مستبدة . ويبدو أن إعادة تنظيم الطغمة الحاكمة هو النتيجة المحتمة للشورة فى نهاية الأمر . فإن رأس الدولة — سواء كان أغسطس أو لينين أو موسولينى أو نابليون — لا بد له لسكى يحكم ويدير أن يجمع حوله جماعة من الزعماء المدنيين والعسكريين . وهؤلاء نفوذ ورغبات ، وما يرغبون فيه هو بعينه ما كان يستمتع به المنبذون والمحكوم عليهم بالإعدام . ولما كان لديهم من النفوذ ما يمكنهم من إشباع رغباتهم ، فلا مفر من أن يشبعوها ، وتنشأ طبقة جديدة من الملاك ، تنفرع منهم الطبقة المتفرغة ، ومن هؤلاء قد نبتت مدنية جديدة .

ويحتمل جداً أن تم العودة من الرحلة عن طريق أقصر . قل من الأمور ما تشبهه الحكومة الناشئة أكثر من الجاه . وباستثناء السلطان الحربى ليس هناك ما يضاف عليها تلك الجاذبية الغامضة ما هو أنصح من الثقافة ( ولندكر عرضاً أن تكاليف الإنفاق على الثقافة الرفيعة لا تقاس إلى ما ينفق على بضع حملات صغيرة ) ومن أجل هذا كان من أولى الأمور التى تشغل أذهان أكثر الطغاة الغاصبين رعاية الفنون والعلوم وتشجيع نمو الجماعة المثقفة . ومثل نابليون الأول ونابليون الثالث ماثل فى جميع الأذهان ، وأكثر الأذهان تعلق بها ذكرى عصر



أغسطس وزعيمه الذي منحه هذا الإسم التاريخي . إن تلك المدنية التي حققتها روما ، إنما حققتها تحت حكم الأباطرة الأوائل ، ومن بين هؤلاء كان أكفأهم — كوسيلة من الوسائل — ذلك الحاكم العسكري المستبد النموذجي هادريان . ويظهر أن كبار الغزاة ، كورش والاسكند وشرلمان ونيمور وأكبر ، كانوا جميعاً يتعالون بإيمانهم بالثقافة . ولم يكن الأمر يقتضى إلا فترة يسيرة من النضوج حتى يحقق خلفاء جنكيز خان ما حققه الأمراء الرومان ، أو أن يبلغوا ما بلغه مديشى في حكم الامبراطورية الرومانية . ومن المؤكد أن العذوبة والضياء كثيراً ما شعت من بلاط اللطفاة والناصبين ، لأن الحكام — وإن كانوا لا يستطيعون أن يتخذوا الفنانين المبدعين خدمة مباشرة أكثر من توفير النظام والأمن لهم ثم يتركون حبلهم بعد ذلك على غاربه — بوسعهم أن يقدموا للمدنية خدمة كبرى . فهم يستطيعون أن ينعموا على طبقة تشر المدنية ويدفعوا عنها . ومن أجل هذا أفكر في إرسال نسخ من هذا المقال للرؤساء الروس ، وولسنبور موسولينى ولستر ونستن تشرشل .

إنى لا أحب الاستبداد ، فليس فيه خير أو جمال . بيد أنى أدهش لتفاهة أولئك القوم الجادين الذين يفترضون — دون أن يفكروا فى الأمر لحظة — إنه لا يمكن أن يكون وسيلة للخير ، وإذا كان الاستبداد وما يلازمه من استرقاق دائماً وفى وقت من الأوقات وسيلة للخير الأعظم — أى إلى الذروة من حالات العقل الطيبة — فليست أعتقد إلا أن الأشرار من الرجال هم الذين ينفرون من استخدام الاستبداد والرق . والواقع أن ما يميل أولئك المحبون للانسانية الذين لا يفكرون — إن ما يميلون

إلى القول به هو أنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون خيراً، ولا يمكن لمدينة أن تكون جديرة بهذا الاسم ، ما لم تقم على أساس من الحرية والعدالة والديمقراطية ، إلى آخر ذلك . لهم يجعلون هذه الصفات غايات في حد ذاتها ، فبضعون أنفسهم موضعاً يثير الضحك ، لأن الديمقراطية والعدالة وما إليهما ليست لها قيمة إلا كوسائل . إن العالم الذى تسوده الحرية الشاملة أو العدالة الكاملة ولا يتصف بشيء غير ذلك يكون فى تهاة العالم الذى يتلون كله باللون القرنفلى أو اللون الأزرق . ولكى نحكم على مدينة من المدن بالتجرد من المزايا لا يكفى أن نبين أنها تقوم على الرق أو الظلم ، بل ينبغى أن نبين أن الحرية والعدالة لا بد أن يتمخضا عن شيء أفضل من هذا .

إذا تساوت جميع الظروف فإنى أفضل مدينة تقوم على الحرية والعدالة ، من ناحية لأنه يبدو لى أن وجود الرقيق قد يكون هادماً لتلك الطبقة الممتازة نفسها التى تنبثق منها المدينة ، ومن ناحية أخرى ، لأن العبيد إذا انحطوا إلى درجة كبرى يصبحون عاجزين عن تقبل أدنى لون من الألوان التى تحاول الطبقة الممتازة أن تضيفه عليهم . إن الرجل الحساس الذكى لا يسهه إلا أن يدرك الظروف الاجتماعية التى يتعين عليه أن يعيش فيها ، فإن أدرك أن المجتمع يتوقف فى وجوده على رقيق غير طائع فلا بد أن يعود عليه ذلك بإحدى نتيجتين : إما إحساس بالقلق ، أو برودة تامة . وإنه ليدولى أن الفتور العقلى الذى يؤدى إما إلى الانصراف عن جانب من جوانب الحياة الهامة أو إلى جمود العقل ، لا بد أن ينتهى بانخفاض قيمة الإنسان المتمدن كغاية وإضعاف كفاءته كوسيلة .

وأنا أعلم أن أحسن الآراء الدينية لا تتفق معى فى هذا ، فإن قداسة  
لا تكمل دون تلك النشوة التى تصدر عن التأمل فى آلام الآئمين . وكان  
القديس أغسطين يؤمن بأن من الشر المطلق عند النخبة المختارة أن تشفق  
على من يلحق بهم غضب الله . ولكن معدتى أضعف من معدة الأسقف :  
ولأنه ليزعج فؤادى فى الواقع أن أضطر إلى إلقاء اللوم على الطاهى . ومن  
ثم فىنى أوثر ديمقراطية اجتماعية تسند وسائل المدنية من تلقاء نفسها على  
حكم الاستبداد الذى يكفل وجود طبقة متمدنة بتنظيم الرق ، وعلى  
حكومة الأغنياء التى تخشى أن تعرض مصالحها للخطر فتلقى على زملائهم  
فى المدنية درعا واقيا من رجال الشرطة لحمايةهم . يسد أن الديمقراطية  
المستندرة التى أوثرها لم نسمع بها بعد .

إن كل المدنيات التى سمعنا بها فرضتها إما إرادة حاكم مستبد أو  
سندتها أوليغاركية حاكمة . وما نطلق عليه خطأ اسم « الديمقراطية  
الإثنية » كان أوليغاركية تعتمد على الرقيق فى وسائلها للندنية . فى  
اتكا — ويبلغ سكانها زهاء نصف مليون — يقدر العلماء أن من كان له  
حق التصويت أو ممارسة السلطان على أى لون من الألوان لم يزيدوا عن  
اثنين وعشرين ألفا : وإذا أعفنا إلى هؤلاء المواليد الأحرار من النساء  
والأطفال ، كان عدد الإثنيين الأحرار زهاء مائة وخمسين ألفا . ومن  
بين الرقيق الذين كانوا هناك أقل شقاء منهم فى أى مكان آخر عدد كبير  
من الصناع المهرة يؤجرهم أصحابهم ، وكثيرون آخرون كانوا يخدمون  
فى البيوت . ويبدو أن هؤلاء كان يحسن استخدامهم ويستمتعون ببعض  
فوائد الثقافة الإثنية . كانوا يرودون المسارح . وإذا كانوا يقدررون  
هذه المزية فلا بد أنهم كانوا يفوقون أبناء العامة فى مدارسنا الإلزامية

ذوقا وذكاء وتربية . ولو لم تنشب حرب بلبونيز ، بل لو أنها انتهت عند صلح نيكياس ، لسكان من المحتمل أن يكتسب هؤلاء العبيد المتفوقون تدريجا حقوق المواطنين . ولسكننا نستطيع أن نؤكد أنهم كانوا يبقون عبيدا ، إذا قصدنا بالعبد ذلك الرجل الذى يحرم النفوذ السياسى ويرغم على العمل للآخرين . ودون هؤلاء الخدم المهرة المتعلمون نجد قطيعا من الحيوانات البشرية التى تحمل الأثقال . ويمكننا بالتأكيد أن نستبدل الآلات بهؤلاء فى هذا القرن العشرين .

ومن ثم ترون الجهل الذى يطبق على أولئك الذين يزعمون أنهم سياسيون مثقفون ، الذين يوردون أئينا مثلا للندية التى تقوم على الحرية والعدالة والديمقراطية . إن ما يستطيعون الإصرار عليه بصورة مجدية هو وجود المساواة الاجتماعية والسياسية التامة ، والمساواة المالية التى تكاد أن تكون تامة ، بين أفراد الطبقة المالكة المتمدنة — أو فى الواقع بين المواطنين . ويخيل إلى الناظر لأول وهلة أن طبقة المواطنين هذه تشبه فى الكثير تلك الديمقراطية الاجتماعية المتمدنة التى داعبت طويلا أحلام كثير من أفذاذ الرجال . فى ظل هذا النظام تجد طبقة تعيش إلى حد كبير على كسب غيرهم ، ويعيش بجانب كبير منها أساسا — لا كلمة — من أجل الأمور العقلية والملاذات الدقيمة الرائعة . من بين هؤلاء يتيسر لنا أن نجد نواة ناشرى المدنية ، كهان وكاهنات الثقافة السكبار ، تليهم مباشرة كتلة المواطنين المشربين تماما بروحهم إلى درجة لا تبعدهم كثيرا عنهم . وبقى أن توحد الثقافة بين الطبقة العليا من العبيد ، وهذه الطبقة الدنيا من المواطنين .

وبالنسبة إلينا — نحن أبناء القرن العشرين ، المحصنين بالمكتشفات العلمية والمخترعات التي تمت خلال القرنين السابقين — لا يحتاج الوصل بين هاتين الطبقتين إلى وثبة بعيدة الاحتمال . فما الذي يمنع إذن مجتمعا حديثا من التمدن ؟ والجواب على ذلك لا يحتاج إلى تفكير . كانت أثينا ممكنة لأن الأثينيين كانوا يحبون أن يتمدوا ، ولم تشته « الحياة الطبيعية » الطبقة المتفرغة فحسب ، بل كان كذلك يشتهيها الصناع والعاملون . أما في إنجلترا فلا يزال لدينا الدخل غير المكتسب الذي يعول طبقة ضخمة من المتفرغين . وقد حقق المنتجون لأنفسهم — بتوجيه من المفكرين المتمدنين — قسطا كبيرا من الأمن والطمأنينة ، ولكن الأثرية من الطبقة التي كان ينبغي أن تكون النواة الصغيرة التي تنشر المدنية ، هذه الأثرية تؤثر أن تبرر بالعمل المكتسب الذي يهدم الروح وبالملذات التي تتصف بالخشونة ، في حين أن الصناع والعمال يكرسون ما لهم الذي اكتسبوه حديثا للانفاق في سبيل محاكاة هؤلاء .

إن خير العقول تتجه نحو أثينا دائما تلتمس عندها قبسا من الأمل . ومن ثم يجدر بنا أن نذكر أن أثينا كانت أوليغارشية كبرى ، وأن جميع المواطنين من الذكور البالغين كانوا متساوين سياسيا واجتماعيا ، وأنه لم يكن بين المواطنين فقير مدقع ، وقل من كان ثريا ، وإن النساء لم يكن جميعا من الرقيق ، وإن لم يكن لهن حق التصويت . إن مركز المرأة — في أثينا خاصة — وفي المدنية عامة لا يمكن إغفاله ونحن بصدد البحث في وسائل المدنية ، لأن النساء — بطرق واضحة وأخرى خفية — من وسائل المدنية . حقا لقد كانت الزوجة الإثينية العادية تعامل إلى حد كبير

كأنها رقيق له احترام كبير ، وكان ذلك طبيعياً ، لأن الزوجية رق .  
 وفي هذا — كما في غيره من كثير من الأمور — كان الإثنيون يحاولون  
 أن يروا الأشياء كما هي . كانوا يواجهون الحقائق ويشحذون الذهن  
 لمعالجتها ، فشيّدوا بذلك مدنية تتقدم على كل ما سبقها وما لحقها . إننا  
 نعترف عادة أن المرأة في الحياة المعاصرة في مركز لا يرضى . لقد ظفروا  
 بحق التصويت ، وبدأن يكتشفن قيمة هذه المنحة التي اكتسبها بشق  
 الأنفس . إلا أنهن ما زان في موقف لا يحسدن عليه . وسوف يلزمه  
 حتى يتساوى عمل الأم والزوجة تماماً مع عمل الميكانيكي والحامى . لأن  
 الزوجة عاملة ، وكان يُعترف للزوجة الإثنية بهذا الوضع . وكانت تعامل  
 بالاحترام الذي يستحقه كل عامل مخلص كفاء . ولكنها لم تنتم إلى  
 الطبقة الممتازة المتمدنة التي تنشر المدنية ، لأنها لم تستطع ذلك بطبيعة  
 مصالحها وأعمالها . وكان الإثنيون يقررون لها أهميتها ، ولكنهم كانوا  
 كذلك يقدرون أهمية المرأة المتقدمة في المدنية — كانوا يقررون أهميتها  
 كوسيلة من وسائل المدنية . كانوا يدركون أن المدنية إذا خلت من  
 وجهة النظر النسوية ومن الاستجابة النسائية ، وإذا خلت من الذوق  
 النسوى ، وبصر المرأة ، وإلهامها ، وفطنتها ، ودقتها ، وإخلاصها ،  
 وعنادها ، وريبتها ، إذا خلت من ذلك كانت مدنية ناقصة عرجاء .  
 ولوجود هذا العنصر النسوى اعتمد الإثنيون على نظام الهتيرا (المحظيات) .  
 أو هكذا على الأقل أدرك الموضوع . هناك خرافة سائدة : نشرها فيما  
 أظن بعض أساتذة الجامعات ، إن الحياة في أثينا كانت تشبه الحياة في  
 كلية أو في دير ، لا تلعب فيها المرأة دوراً ، أو تلعب دوراً تافهاً . وكل

ما أستطيع أن أقوله لهؤلاء الأساتذة المسنين أنهم قرأوا الآداب القديمة قراءة جزئية ، وأحب أن أوجه أنظارهم أولاً إلى كتب « بكر » التي بدأت تختفي ، ثم إلى الثقافة الذين ورد ذكرهم في هذه الكتب . ويقيني أن أكثر من كتب من المحدثين عن المجتمع القديم يظهر أنهم رجعوا إلى « بكر » واطلعوا فيه على قائمة بأسماء الثقافة ، ولم يفعلوا أكثر من ذلك . وأرجوا أن يتابعوا بحوثهم ، لأن هؤلاء الثقافة سوف يدلونهم على الأقل على الدور العظيم الذي لعبته طبقة خاصة من السيدات العصريات .

. . . . .

لو كنت حاكماً مستتبداً لتنازلت عن حكمي فوراً . ولكني لو ورثت مع السلطان تذوقاً لفعل الخير ، لوجهت أطماعي نحو نشر المدنية . وكخطوة أولى في هذا السبيل أقيم طبقة متفرغة وأمنحها المزايا ، على ألا يتناول أى عضو من أعضائها أكثر مما يكفيه . كما أنى جعل من المستحيل على كل فرد من أفراد هذه الطبقة - رجلاً كان أو امرأة - أن يصاعف دخله بأية وسيلة من الوسائل . ويهمنى بعد ذلك أن أنظم المجتمع بحيث يتوفر للطبقة الدنيا ، طبقة العمال ، قدر كاف من الفراغ وراحة العيش يمكنهم من الاستفادة من وجود طبقة المتفرغين . ولا بد أن أوفر للطبقة الممتازة تربية كاملة وكل وسائل الثقافة المعروفة ، وأن أوفر لبقية أفراد المجتمع من التعليم ومن فرص الاستمتاع بما يهيئه التعليم بقدر ما تسمح به خزائني .

ولكى أهيب الوسائل لفراغ مجموع الشعب وراحته أتطلع مستبشراً في اتجاهين : أتطلع إلى المخترعات ، التي تمكن رجلاً واحداً يشرف على

آلة من الآلات من أن يؤدي ما يقوم به مائة من الرجال من خدمات، وأتطلع كذلك إلى الإقلال من السكان . وقد تقدمنا كثيرا في ناحية توفير العمل ، إلا أن الثروة التي نجمت عن ذلك لم تخصص في أكثر الأحيان لتزجية الفراغ ، وإنما خصصت - إلى حد كبير - لمضاعفة الثراء ، ولإشعال الحرب ، وصنع السلاح ، وللمتع الدنيا ( مثل دور الصور المتحركة ، والجولف ، والسيارات ، وسباق الكلاب ، وكرة القدم ) وتربية الأطفال . وسوف يزداد عدد السكان ، إذ أن العلم عندما يعطيهم آلة يستطيع المرء أن يؤدي بها عمل مائة رجل ، فإن المائة بأسرها ، تستطيع - دون أن تهوى في مستوى العيش - أن توفر لنفسها وقتا أوسع . بيد أنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك تراهم ينجبون تسعة وتسعين طفلا يستهلكون الفائض ، ويبقون هم في مكانهم لا يتزحزون، أى في حالة من الهمجية الشاقة . وقد سمعت بعض الخبراء يقول إن ثروة العالم حتى في الوقت الحاضر يمكن - لو نظم الإنتاج تنظيما يقوم على العقل - أن ينتجها نصف السكان ، ومعنى ذلك أننا لو نصّفنا عدد السكان استطاع كل امرئ أن يضاعف أجره أو دخله مرتين - ولكن الخبراء يؤكدون كل افتراض . وفي دولتي يُمنفق نصف فائض الثروة الممكنة عن الحاجات المعقولة في الرفاهية المادية - اللهو والسلح - ويُمنفق النصف الآخر في الفراغ . وعندما يقل عدد السكان إلى الحد الذي يوفق توفيقا طيبا بين الإنتاج والفراغ ، يثبت عدد السكان على ما وصل إليه . أما الأمر كما هو الآن فثوداه أن كل اختراع جديد يعنى مجرد زيادة الإنتاج لكي يكفي زيادة السكان مع إضافة وسائل قليلة للراحة . وما دام ازدياد



السكان يلاحق المخترعات الجديدة فلن يفيد منها أحد شيئاً . وتبقى  
المدنية — على الأقل — كما كانت دائماً بعيدة المنال (١) .

وإني لأعطي لرعيتي حرية كاملة في التفكير والتعبير، كما أعطيهم حق إجراء  
ما يرون من تجارب في حياتهم الخاصة ، ولكنني لن أعطيهم حرية كاملة  
في العمل — لأن العمل لاعلاقة له بالمدنية ، فهي تتعلق بالحالات العقلية .  
وسيقع ذلك موقعا شديداً على أولئك البرابرة المنسكودين الذين لا يستطيعون  
أن يعبروا عن أنفسهم إلا بالعمل . على هؤلاء أن يقنعوا باللقاء  
الخطب ، والاشترك في اللجان ، ومحاربة إقناعنا — لإرغامنا — بأداء  
ما نريغون . وأستطيع أن أتخذ منهم رجال الشرطة . وفي دولتي أحبس  
الصوص المتلبوعين والسفاكين والفضوليين وأصحاب النزعة النابليونية  
والمتحمسين لتفسير القانون غير المكتوب . إن حرية العمل بغير قيد  
لا تتفق والمدنية . ففي العالم أناس يتدخلون في شؤون غيرهم ، متعصبين ،  
شبهين ، مستهترين ، في قلوبهم قسوة الحيوان ، لو أتاحت لهم الفرصة  
سلكوا مسلكاً يجعل الحياة غير محتملة والمدنية مستحيلة . وفي دولتي  
لن تتاح الفرصة لهؤلاء . وربما تصور تولستوى عالماً كل سكانه طيبون ،  
فهو لا يحب أن يتدخل في شأن أي فرد سواه ، عالم متطهر من الشراة

---

(١) استطاع الاثنيون كعادتهم أن يجابهوا هذه الحقائق بشجاعة ، فعالجوا الأمر  
بتعريض الأطفال للذوت ، وهو إجراء يتناق مع ذوقنا في العصر الحاضر . ومن ثم  
كان ازدياد المواليد في أئتنا يقابله ازدياد في وفيات الأطفال . وقد جعل العلم هذه  
الوسائل العتيقة أمراً لا ضرورة منه ، أو لعل العلم كان يستطيع ذلك لو أن المعرفة  
العلمية امتدت الى مثال أولئك الذين هم في أشد الحاجة إليها .

والبغضاء ، والحقد والأطباع ، عالم لو وجد فيه من يتصف بهذه الصفات فلن يعمل قط بدافع من ميوله الشريرة . والأرجح أن تولستوى كان يعتقد أن العالم لا يخلو قط من المتوحشين الذين يتصفون بالعنف والفضول والشراهة والحقد ، الذين يتبعون غرائزهم مهما بلغت سفالتها ، ولكنه لم يحسب لوجودهم حساباً ما دام الآخرون يحتفظون بطهارتهم ناصعة من غير سوء . يزعم تولستوى أن طهارة النفس يمكن الاحتفاظ بها إذا استسلم المرء استسلاماً سليماً وعن طيب خاطر . وبقاء طهارة النفس ممكن ، بل يمكن أيضاً أن تزيد أضعافاً مضاعفة ، ولكن المدنية لا بد أن تهلك ، إن عبد الهمجي الذي يعذب ويساق سوق الأغنام يمكن أن يكون قديساً أو رواقياً ، ولكنه لن يكون إنساناً متمدناً . إذ ينقصه الفراغ الذي لا بد منه ، والأمن ، وفرص الحياة . ومن ثم كانت السيطرة على العمل ، التي تعنى قوة بوليسية قادرة — فيما يبدو — ضرورة في كل مكان إلا في مجتمع من الملائكة أو الحيوان — الحيوان الذي يهبط إلى درك لا أمل البتة في انتشاله منه ، ولا يهمننا قط لذلك أن يسىء أحدهم إلى الآخر أو يتسلط عليه .

ولا مناص للتقدمين في المدنية من أن يعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم . ومهما يكن إملاء العقل ، فإن حساسيتهم تجعل من المستحيل عليهم أن يكيلوا الضربات قاصدين أو أن يوقعوا العقوبات عامدين . لأنهم لا يستطيعون البقاء مالم يعتقد زملائهم المواطنون أو السلطة الحاكمة — أيا كانت — في ضرورة عونهم والدفاع عنهم . إذ أنه في اللحظة التي يشرعون فيها في الدفاع عن أنفسهم يفقدون كلهم . ولم أنس

أن كل أئبى كان عرضة لاستدعائه للخدمة العسكرية . وكان ذلك السبب  
الأول فى عدم استقرار الثقافة الأئبىة التى تدهورت تدريجاً خلال الحرب ،  
وربما هبطت فى نهاية الأمر إلى المستوى الأسبرطى لولا أن موقعة  
ايجوسبوتامى كانت نعمة عظيمة . وإذا كان التنظيم من أجل الدفاع  
يعبث بمدنية الدولة فكيف يكون أثره الهدام على إنسان حساس كالفردي  
المتقدم فى مدنيته . كان سقراط جندياً حسناً : بيد أن سقراط كان فيلسوفاً  
إلى جانب أنه سقراط وحسب . وقد رمى هوارس درعه فى قلبي .

أريد فى دولتى قوة بوليسية لحماية المدنية لا لىكى تفرضها فرضاً على  
الناس . فالمدنية لا يمكن أن تفرض بالقوة . ولو كانت تنحصر فى الإيمان  
ببعض الأفكار لاقتضى الأمر حشرها حشراً فى حلوق العازفين عنها . أما  
وهى تنحصر فى موقف معين من الحياة ، وفى طرق التفكير والشعور ، فيجب  
نشرها . إن من يريد أن ينشر المدنية بين زملائه يجب أن يسمح لهم  
بأن يكتشفوا بأنفسهم أن للحياة أسلوباً أفضل من أساليبهم : وهكذا  
كانت المدنيات العليا تنتشر دائماً . وكثيراً ما حدث فى التاريخ أن أما  
همجية عرفت بالسلب والنهب بدأت زحفها وهى تؤمن بتفوقها من  
جميع الوجوه على الشعب المسالم الذى توشك أن تخضعه وتمثله . كم  
مرة أعاد التاريخ نفسه ؟ إن بلاد الإغريق التى استولى عليها غزاة  
الرومان غزت هؤلاء الأجلاف وتقلت إلى سهل لايتوم الريفى فنون  
الحضارة .

يرى زعماء الغزاة أولاً أن الشعوب المغلوبة تملك أسراراً مجهولتها

يقبلون بها ما يبدو لهم خبرة نافذة إلى متعة غزيرة . وسرعان ما يتأثر  
 الملك الهمجي بنفوذ الثقافة الأعلى ويغرى بها فيبدأ في الاعتماد في لوه  
 — ثم فيما بعد في مشورته — على النساء والرجال من العنصر «الأحط» .  
 ثم سرعان ما يحتل هؤلاء — بسبب تفوقهم في الإدراك والمعرفة —  
 مكان الثقة والشرف والمنفعة ، حتى يصبح الملك في النهاية نصف متمدن ،  
 ويتحول معه إلى المدنية الأذكاء من رفاة القواد وكبار الإقطاعيين .  
 وفي هذه اللحظة بالذات تبدأ الطبقة الأقل ذكاء في تدمرها ، ويزداد  
 تمردا ، وتنظم معارضة رجعية . عندئذ يكون الملك — لحسن حظه —  
 والرعماء والمراقون له الذين تأثروا بمن يفضلونهم من الشعب المغلوب ،  
 يكون هؤلاء بدورهم قد علموا عددا كافيا من الحشد التابع لهم يقابلون  
 به المدافعين القدامى عن الوحشية التقليدية . وهكذا تفعل الخيرة فعلها :  
 لقد تمدن المنغول الغزاة إلى درجة ما على يد الصينيين والفرس الذين  
 غلبوهم . ولاقت جيوش العرب نفس هذا المصير في فارس والهند ومصر .  
 وكذلك تمدن الفاتحون الميديون الأوائل فيما بين النهرين ، ونستطيع  
 أن نراقب في روما خلال القرن الأول النزاع بين سداجة الرومان ومدنية  
 الشرق المغلوب . فكاتو وتيبريوس لم يرتفعا إلى مستوى أوفيد وجوليلى ،  
 ومنع ذلك فانا نجد في القرن الثانى شيئا أشبه بالحضارة مما كان يتوقع  
 المرء صدور بهذه السرعة عن الهمجية الظلمة التى خيمت على تلك  
 الجمهورية المروعة . وقد بذل الرعماء حتى فى تلك الشعوب التى دخلت  
 الامبراطورية واستوطنتها فى النهاية بعض الجهد — ولكنه جهدمتأخر  
 ضعيف — لى يفيدوا من الثقافة الأعلى التى عرف بها الرومان  
 الاقليميون . بيد أنهم فشلوا ، ويرجع السبب الأول فى ذلك إلى أن

الى أن رجال الأقاليم لم يكونوا متمدين ولم يكن عددهم كافياً للقيام بهذه المهمة . ومن أجل هذا فلم يكتسب البرابرة سوى أهداب من الثقافة براقة يتزين بها بلاط شلمان والملوك من بيت أوتو الذى يدعو إلى الرثاء . ولو أنهم تثقفوا ثقافة حقيقية لجنبوا أوربا العصور المظلمة .

وقد تُمُنشأ وسائل المدنية ، وقد توجد الحكومة المحسنة التى تنفق على طبقة متفرغة مثقفة ، وتسكفل الأمر ، وتبيح حرية التعبير فى الفن والفكر والحياة ، وتنهض بالتعليم وتحد من العمل ، ولكن يبقى أمر واحد لا بد منه لكى تخرج المدنية إلى حيز الوجود . وذلك هو الإرادة — إرادة المدنية . وهى قد لا تعدو أن تكون الرغبة فى المتعة بعد تهذيبها وسيرها فى اتجاه ذهنى . ومن الخماقة أن نفترض أن هذه الرغبة عميقة الجذور بعيدة الغور فى الطبيعة الإنسانية ، وليس أقل من ذلك حماقة أن نعتقد أنها لم توجد قط . وإذا كانت إرادة المدنية لم توجد قط ، فكيف خرجت المدنية إلى الوجود ؟ هل كان ذلك بالحظ ؟ هل خرج الناس من فوضى الهمجية إلى نوع من أنواع النظام بالحظ ؟ ولماذا يخرجون ؟ إذا كانت هناك حالات قريبة من المدنية ، وإذا كانت هناك مدنيات رفيعة ، أليس من الخماقة أن ننسب ذلك كله وما يتطلبه من مجهود جبار أليم إلى المصادفة ؟ ومن ناحية أخرى ، لما كانت المدنية فى بعض الأماكن لم تتقدم قط ، وفى أماكن أخرى ارتفعت عن مستوى التأخر لتغوص فيه ثانية ، وفى أماكن كثيرة نراها تقطع من الشوط بعضه ثم تعجز عن مواصلة المسير ، وقبلما كان الدافع قويا مستمرا إلى درجة يتمكن بها من رفع المجتمع إلى مقربة من المثل الأعلى المتواضع المعقول ، إذا كان الأمر

كذلك فن الحماقة أيضاً أن نفترض إن إرادة المدنية التي ذكرناها ظاهرة موحدة في كل مكان ، ثابتة ، أساسية في الطبيعة البشرية . هناك أسباب عدة تحول دون اعتقادنا في استمرار التقدم . وهناك كذلك أسباب عدة تحملنا على الاعتقاد بأن المستوى الحالى لما نسميه عامة بالمجتمعات المتقدمة ينخفض كثيراً عن الحد المطلوب . وليس هناك من الأسباب ما يدعونا إلى أن نفترض بأن المجتمع سوف يصل إلى هذا الحد أو يعلو عليه ، أو أنه لن يبلغه . كل ما نؤكد هو أن الناس لرغبتهم الدائمة في الاستمتاع بالملذات ، يوجهون رغبتهم هذه أحياناً توجيهاً ذهنياً ، ويعتدون أحياناً أخرى أن الملذات أندر وأبعد وأدق من تلك التي تسوق إليها الفراغ ، وإنهم أحياناً يحققون هذه الملذات . ومن الجلى أن المدنية لم تكن هدف ذلك الهمجى الذى أخذ الأرنب إلى بيته وطهاه . بيد أنه تصور واشتهى متعة أدق وأبعد من متعة التهامه نيئاً . وهكذا نرى أن الناس بتصورهم واشتهائهم قد يحققون المدنية في نهاية الأمر .

ليس من شك في أن إرادة المدنية قد وجدت ، وأنها ربما لم تختلف قط من الوجود ، وإمكانها اختلفت من مكان إلى مكان ومن وقت إلى آخر اختلافاً شديداً من حيث قوتها وكفائتها . وهذه الإرادة — من الوجهة النظرية — يجب أن تسير جنباً إلى جنب مع إرادة الخير ، التي يزعم بعض الفلاسفة أنها موجودة دائماً وأنها وجدت في كل مكان . ومن سوء الحظ أنه من العسير أن نميز بين الغايات والوسائل حتى إن رجال الأخلاق العمليين يخطئون دائماً فيحسبون وسائل الخير العتيقة غير المباشرة الخير ذاته ، ومن ثم فإن إرادة الخير لا تعين إرادة المدنية

دائماً فحسب ، بل إنها تعرقل سيرها أحياناً عرقلة إيجابية . إن إرادة الخير كثيراً ما توجه نشاطها إلى ما كان في وقت ما وسيلة بعيدة ، وهي بذلك تقف عقبة في سبيل الوسائل المباشرة والقريبة . في لحظة معينة من تاريخ أى مجتمع قد يكون شكل الحكومة ، أو الدين ، أو التاموس الخلقى ، وسيلة للخير والمدنية . ولكنه بعد أن يؤدي غرضه بوقت طويل ، وبعدها يصبح أداة تعطيل بوقت طويل ، ترى كثيراً من دعاة الخير لا يزالون يكرسون حياتهم للإبقاء عليه . فقد كان الإصلاح البروتستانتي في شمالى أوروبا — من غير شك — وسيلة الخير بمقدار ما كان وسيلة لتطهير العالم من مجموعة من الخرافات . بيد أن هذه الوسيلة ، التى بولغ فيها حتى أصبحت غاية من الغايات ، وأمست في نهاية الأمر حركة بيوريتانية ( تطهيرية ) — تركز جهودها في بعض العقائد الدينية والخلقية — وربما وقفت في إنجلترا عقبة وحائلاً في سبيل إرادة المدنية أكثر من أى شيء آخر . إن البيوريتان — برغم كل نواياهم الطيبة — أعداء الخير ، لأنهم يجعلون الاستمتاع بالحالات العقلية الطيبة أشق على أنفسهم وعلى غيرهم مما ينبغي . إنهم يعلقون على ما كان في وقت من الأوقات وسيلة للخير أهمية لا تتعلق إلا بالغاية ، ثم يصرون على هذه الوسائل العتيقة فيعوقون بذلك انتشار الوسائل التى تفضلها في تحقيق الأغراض لأنها أكثر منها ملاءمة . ومن ثم فإن العفة التى ربما كانت من الفضائل في عصر الحيوانية القسوى حينما كان القوم يخرجون للرعى والغزو والنهب مسلحين ، وحينما كانوا لا يمتطون الدواب الاغتصاب والنساء — هذه العفة لا يزال لها في القرن العشرين من يصرون على أنها

وسيلة للخير تفضل مزايا عيادات الأطباء الشائعة التي تقوم بالتحكم في النسل . ولا يمكن للناس أن يأملوا في التفريق بين الغابات والوسائل أو بين الوسائل المباشرة والوسائل البعيدة إلا بعد أن يتكون لديهم إحساس بالقيم ، بشرط أن يكون ذلك في جو من التجرد العقلي . إن الوسائل غير المباشرة تختلف من عصر إلى عصر ومن قطر إلى آخر ، وقيمتها محدودة وموقوتة ، وتطبيقها محلي . وإلى أن يدرك هذه الحقيقة المحبون للخير فلا بد أن ينصرف جانب كبير من نشاطهم الخلقى إلى الحث على وسائل تناقض ما يهدفون إليه من غايات . وتمسى إرادتهم للخير إرادة سيئة لتلك الوسيلة التي هي أدنى اليهم — وأعنى بها المدنية .

ما أكثر ما فى انجلترا من نشاط خلقى أميل إلى وصفه بارادة للخير منحرفة ، ولسكن هل هناك إرادة للمدنية ؟ إن قدرا كافيا من الدخل غير المكتسب يعول عددا عديدا من العاطلين ، بيد أن هذا الدخل يساء انفاقه ، والعاطلون جاهلون ، ومن ثم فإن مجموعة المتمدنين فى انجلترا المعاصرة — وإن كنت لا أشك أن بها بضعة آلاف بلغوا من رقى المدنية ما بلغه أى عدد فيما مضى — هذه المجموعة أصغر من أن تكون تلك النواة الفعالة التي تحول الثقافة السلبية إلى قوة ممدنة . وهذه المجموعة — على قلتها — يتضاءل عددها تدريجا . إن روح العصر تقف فى وجوههم ، ويعترض سيلهم الإيمان بالعمل ، والرأى الذى ينادى بأن الناس إنما أتوا إلى هذا العالم لجمع المال ، ولمباريات اللعب ، وارتياح دور السينما وحلبات السباق ، وسوق العربات ، وإنجاب الأطفال . ذلك هو مذهب المنتجين . ومن يؤمن به لا يفسد من العمل الذى لا ينتج



اقتصاديا ، أو من الملذات الدقيقة الشاقة . من يؤمن به لا يريد المدنية ، ولكنه يملك النفوذ والسلطان .

إن حكومة إنجلترا تقوم على أساس التوفيق الاعتبارى بين كبار أصحاب الأجور وصغارهم . هى حكومة الأغنياء يخفف من غلوائها تقابات العمال . وحكومة الأغنياء هى صاحبة الكلمة الفصل فى السياسة فى الوقت الحاضر ، وهى التى ترسم طريق الحياة . ولا يعرف هذا الطريق تمام المعرفة إلا أولئك الذين يطالعون الصحف المصورة اليومية والأسبوعية . وهذه الطريق هى مايريده الناس ، وهى أيضا ما يسمونه المدنية . وهى التى حاربوا من أجلها لإرضاء الأغنياء ، والتى قد يحاربون من أجلها لإرضاء أنفسهم . لأن التوفيق المنشود بين كبار الكاسبين وصغارهم أمر اعتبارى . ولا يفتأ الصغار يخالفون الوصية العاشرة : ومن ثم كان هذا الحديث الذى لا ينقطع عن الثورة . والأمر العجيب أن هناك دائما متفائلين ممن يحبون البشرية يتوقعون خيرا من مثل هذه الثورة . إنهم يلومونى جهرا ، لأنى لا أميل إلى التخلى عما أملك أملا فى الحصول على ما يظنون أنه ربما كان وسيلة لما هو أحسن . إنهم يؤكدون لى « أن الناس لو تركوا وشأنهم لتحققت كل آمالك فى المدنية فى لحظة . وينبغى لك أن تعلم أن الناس دائما يحبون الخير والجمال — يحبون الأرقى حينما تقع عليه عيونهم : وهنا تقع الطريق التى تبحت عنها ، .

وإن كنت برغم هذا النداء لم أتخل عن الدرس لأنصرف إلى الحياة العادية ، فإنما يرجع ذلك إلى أن العامل الراقى — الذى يترقبون تطوره

عن العامل المعروف في إنجلترا من قديم — لا يبدى أية رغبة ملحة للإفادة من وسائل المدنية التي تقع تحت يديه . بل إنه ليسدولى أن مطالعته تتجه وجهة أخرى . وبدلا من أن أكتشف بين العمال أية إرادة لل المدنية ، أجدنى مساقا إلى الظن بأن العامل البريطانى يحب همجيته حبا جما . بل إنه لا يريد المزيد منها . إنه لا يجد مغمزا فى جنة المستفعين حتى إنه ليود لو كانت له . وهو لا يتطلع إلى ثورة مجيدة لىكى يعيد تشكيل الحياة فيقربها من المثل الأعلى ، بل لىكى يسلك مسلك الأثرياء . والواقع أن العمال المأجورين وأصحاب رؤوس الأموال على اتفاق تام فى كل أمر من الأمور إلا فيما يتعلق بتقسيم الغنائم . إن العامل فى منجم الفحم الثائر لا يتطلع إلى حياة أفضل من حياة صاحب المنجم الرجعى . إنه يتطلع إلى شرب الروم واللبن قبل الفطور ، وإلى فطور من أربعة أصناف ، وإلى يوم يقضيه فى الصيد والقنص ، أو فى لهو لا تسفك فيه دماء ، وإلى الشمبانيا فى العشاء ، والسيجار الطويل بعد العشاء ، وإلى مساء يقضيه فى دار الصور المتحركة أو فى قاعة الموسيقى ، إلى أن يقرأ بين الحين والحين لمس كورلى وميخائيل آرلن ، وفى صحيفة « مرور » و « جون بل » أو مجلة « ستراند » . وهو يعتقد فى كل حين اعتقادا نظريا ثابتا فى قداسة رباط الزوجية وفى بغض الأجانب والفنانين والمتحذلقين بغضا صادقا . وإن هذه الحياة لتلائم بل جونز كما تلائم لورد ميدنهد . إنها الحياة التى يعجب بها ويفهمها ، ولذلك فهو — بطبيعة الحال — يحبها لنفسه . ومن أجل ذلك كان نائرا . وإنك لتقدر مركزه ، وإنك لتدرك تمام الإدراك أنه يود لو استطاع أن يتبادل مع اللورد

مكانته . وإنك كذلك لا ترى مانعاً من ذلك . بل إنك — أهم من ذلك كله — لا ترى سبباً يدعو إلى أن يتوقع العطف والإعجاب من رجل يقف موقف الحكم المحاميد إزاء ما يود أن يسميه « بالنضال من أجل الحرية والعدالة » . إن الشد والجذب بين جونز وسيده على ثمار الهمجية أمر يخصهما وحدهما دون سواهما . وليس هناك من الأهداف العامة في هذا النضال ما يتعرض للخطر فيشير أو لئك الذين يقفون خارج حلبة النضال . إن من يهتم بالمدينة وما إليها لا يهتم بالبتة من يحصل على السيارات وحفلات الكوكيتيل ، وسواء عنده من ينتمى إلى نقابة العمال ومن ينتفع . كلاهما تافه ، عامي ، ساذج ، عاطفي ، شره ، عديم الإحساس ، وحيث أن كليهما يسعده أن يبقى كما هو ، فلا ينتظر لأحدهما أن يتحسن . إن إرادة المدينة قد توجد بين القدا في سيلان أو بين الميجي في ساحل الذهب ، ولكن بادرة منها لا تظهر في سوق الأوراق المالية أو في مؤتمر نقابات العمال .

انتهى



الإشراف النّفوى : حسام عبد العزيز  
الإشراف الفنّى : حسسن كسامل  
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد

ما المدنية؟ هل هي احترام حق الملكية؟ أو ديموقراطية الحكم، أو حب الوطن، أو الوحدة العالمية، أو التمسك بالدين، أو مكانة المرأة في المجتمع، أو الخضوع المطلق لقانون الطبيعة، أو التحلى بالفضائل الخلقية والعادات الحسنة، أو تقدم العلوم، أو توفير أسباب الراحة للجميع... يحاول المؤلف أن يصل إلى تعريف للحضارة يستخلصه من أهم ما يميز الجماعات المتحضرة، وهي في التاريخ ثلاث: أثينا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وإيطاليا في عصر النهضة، وفرنسا في القرن الثامن عشر حتى الثورة الفرنسية. والصفات المشتركة التي تنفرد بها هذه الجماعات هي: "تحكيم العقل" و "الإحساس الصحيح بالقيم" و "تقدير الفن".

وهي مقاييس للمدنية متداخلة وإن تنوعت، وتنبثق منها مميزات حضارية كثيرة.